استراتيجية الفتوحات الإسلامية

(٢)

القادسية

أحمد عادل كمال

الكتاب : القـادسيـة
استراتيجية الفتوحات الإسلامية

الكاتب : احـمـد عـادل كـمـال

طبعة القاهرة ٢٠٠٤
عدة طبعات سابقة

الغـلاف : صـالح وحـيـد

الجمع والصف الالكترونى :
وحدة الكمبيوتر بمركز الحضارة العربية
٤ ش العلمين - عمارات الأوقاف
ميدان الكيت كات - القاهرة
تليفاكس : 3448368 (00202)
alhdara_alarabia@yahoo.com
alhdara_alarabia@hotmail.com

القادسية

رقم الإيداع : ١٧٦٧١ – ٢٠٠٤
I.S.B.N : ٩٧٧ – ١٧ – ١٧٥٨ – ٨

الشركة الدولية للطباعة

المنطقة الصناعية الثانية - قطعة ١٣٩ - شارع ٣٩ - مدينة ٦ أكتوبر
☎ : ٨٣٣٨٢٤٠ - ٨٣٣٨٢٤٢ - ٨٣٣٨٢٤٤
e-mail: pic@6oct.ie-eg.com

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم هذه الطبعة

بدأنا سلسلة استراتيجية الفتوح الإسلامية بكتابنا الأول «الطريق إلى المدائن» فعرضنا العمليات التى استهدفت فتح أرض العراق واستغرقت أقل من عامين منذ أول عام ١٢هـ أبريل ٦٣٣م حتى آخر ذى القعدة ١٣ هـ يناير ٦٣٥م وذلك بعد انتهاء حروب الردة، وهى التى قام بقيادتها خالد بن الوليد ومعه المثنى بن حارثة فى خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنهم.

كان خالد وأبو بكر ثنائيًا منسجمًا يتفق كل منهما فى العمل مع صاحبه، فلما لقى أبو بكر ربه فى ٢١ جمادى الآخرة ١٣ هـ ٢٢ أغسطس ٦٣٤م وآلت الخلافة من بعده إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه أجرى التغيير الذى يتفق مع طبيعته، فأسند قيادة عمليات فتح العراق إلى سعد بن أبى وقاص.

لم يكن سعد نسخة من خالد بن الوليد ولا كان مقلداً له، ولكن كانت له طبيعته وطريقته وأسلوبه الذى يرتاح إليه عمر بن الخطاب ويلائم العمل معه.

ولا نسبق فى هذه المقدمة أحداث الفتح الذى نتركه لصفحات الكتاب، ولكن نذكر أن الذى اتفق عليه الرجلان عمر وسعد أن تكون المعركة التالية على الحدود بين سواد العراق وأنهاره وأراضيه وبركه ومستنقعاته، وبين صحراء جزيرة العرب، وأن تكون معركة حاسمة خلافًا للمعارك السابقة الخاطفة التى كانت تدور يومًا أو بعض يوم ليعود الطرفان إلى لقاء آخر فى معركة أخرى، واختار سعد لذلك موقع القادسية.

فصارت كلمة «القادسية» اسمًا وعنوانًا لهذه الموقعة التى دارت أربعة أيام وبعض لياليها، من ١٣ شعبان ١٥ هـ إلى ١٦ منه (١٩-٢٢ سبتمبر عام ٦٣٦م) بعد تجهيز كبير من الطرفين الفرس والمسلمين على السواء، وذلك بعد معركة اليرموك التى دارت على أرض الشام قبل ذلك بأربعين يومًا، فى ٥ رجب ١٥ هـ ١٢ أغسطس ٦٣٦م بين الروم والمسلمين، وقد اشترك فريق من جيش المسلمين فى المعركتين على ما بينهما من زمن قصير ومسافة طويلة

كما كان عدد جيش المسلمين في القادسية (٣٢٨٠٠) أقل من ربع عدد جيش الفرس (١٢٠٠٠٠ مقاتل) خلاف فريق الخدمات من ورائهم.

هذه المعركة كسرت أكبر جيش للفرس حتى ذلك التاريخ، فاهتزت أركان دولته وتزعزعت معنويات شعبها وصار ذلك مقدمة حقيقية لدخول المسلمين عاصمتهم المدائن وهروب كسرى يزدجرد ومن معه هروبًا لا رجعة بعده.

صدرت أولى طبعات هذا الكتاب عن دار النفائس في بيروت - مشكورة - عام ١٣٩٣هـ ١٩٧٣م منذ أكثر من ثلاثين عامًا وطبعات عديدة من بعدها، ونعود إلى إصداره من القاهرة ليظل تحت يد القراء فلا يغيب عن الذين يبتغون معرفة هذا التاريخ الفريد.

ومع هذا الصدد يجرى تجهيز الكتاب الثالث «سقوط المدائن ونهاية الدولة الساسانية» للصدور بإذن الله.

ونسأل الله أن يجعل هذا العمل علمًا ينتفع به وأن يعيننا بفضله على إتمامه.

أحمد عادل كمال

القاهرة ١٤٢٥ هـ

٢٠٠٤م

تقديم

ليس أسعد لقلب كاتب من أن يحس بالتجاوب بين قرائه وبين ما يكتب. ولقد حدث هذا منذ اللحظات الأولى التى وصل فيها كتابنا «الطريق إلى المدائن» إلى أيدى القراء. كانت تسعدنى كثيراً تلك الساعات الطوال التى شغلتها مناقشاتهم حول «الطريق إلى المدائن» وكذلك كتابات الذين قرّظوه أو قدّموه إلى قراء العربية على صفحات الجرائد والمجلات أو على موجات الإذعات العربية أو فى نشرات بعض الجيوش العربية إلى ضباطها، فأفاضوا من المديح والثناء ما أسأل الله أن يكون مستحقاً له.

ولقد تناول «الطريق إلى المدائن» من فتح العراق عامى ١٢ و١٣هـ. فشمل حملة خالد بن الوليد وحملة أبى عبيد بن مسعود الثقفى وحملة المثنى بن حارثة الشيبانى... ووقفنا من تلك الأحداث على قرار المثنى بالانسحاب من جميع أرض العراق بعد أن تم له اكتساحه أثر معركة البويب للأسباب التى أوضحناها. وهنا فى هذا الكتاب «القادسية» نستطرد من حيث وقفنا هناك، فهو استكمال متصل لأحداث التاريخ الحربى وتخطيطات الفتح الإسلامى للعراق التى بدأناها فى «الطريق إلى المدائن». كان «الطريق إلى المدائن» ثلاثة أجزاء صدرت فى مجلد واحد شغلت المقدمات الجزء الأول منها، وما «القادسية» إلا الجزء الرابع من سفر هذا التاريخ العظيم. ولذلك فلن نجد هنا مقدمات جديدة، وكل ما نشير إليه فى هذا الشأن أن المنهج واحد فى الكتابين.

هذا التاريخ نقدمه إلى أمتنا فى وقت هى أشد ما تكون حاجة إليه، فإننا فى صراعنا المعاصر لا نبدأ من فراغ، وليس على سطح الأرض اليوم لا فى أمريكا ولا فى أوروبا ولا فى روسيا ولا فى غيرها أمة لها ما للمسلمين من جذور عميقة فى التاريخ وفى الأصول الحضارية الصالحة وفى منهج الحياة... كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء، ولئن أتى على هذه الأمة خريف أسقط ما عليها من ورق ولم ير الراؤون عليها ما اعتادوا من أطايب الثمر، وأقبل صبيان التاريخ يتقافزون على فروعها ويقتطعون منها، فإن من طبائع الأمور الخاضعة لسنة الله أن تمدها جذورها من جديد بما سبق أن أمدتها به من قبل فتعود مثمرة مورقة تستظل

البشرية بظلها، ولن يصلح شأن هذه الأمة إلا بما صلح بها أولها.

«القادسية» نقدمه شاكرين لكل من استجاب لدراسته مخلصاً لله، ولكل قارئ زودنا بتوجيه أو إرشاد أو نقد.

والله الموفق والمستعان.. هو يقول الحق.. وهو يهدى السبيل.

أحمد عادل كمال

الباب الأول

القادسية فى التاريخ

المعارك الحاسمة:

يترك الإنسان بصماته على ما يضع أصابعه عليه من أشياء فتبقى هذه البصمات كثيراً أو قليلاً حتى يزيلها الناس أو يعفى عليها الزمن. ومن المعارك ما يضع بصماته على سطح الأرض فتبقى آثارها على التاريخ ما بقى كوكبنا لأنها لم تكن ذات أثر محدود يذوب مع الزمن أو لم تكن فعلاً ينقضه رد فعل فى الأجل المناسب، وإنما كانت فعلاً اكتسب من استطراده المحتوم ما استحال معه إيقافه أو إزالة آثاره.

وعلى ذلك يعتبرون معركة واترلو من المعارك الحاسمة فى تاريخ العالم، فلو ظل نابليون بونابرت يوالى انتصاراته لما استطاع أحد أن يتصور خريطة العالم اليوم. ويعتبرون معركة ستالينجراد معركة حاسمة استطاعت عندها روسيا البلشفية أن توقف تقدم هتلر، ولولا ذاك لتمّ له غزو روسيا ولبادت الشيوعية وارتفعت على أنقاضها النازية. ويعتبرون معركة العلمين من المعارك الحاسمة، فلولا أن انتصر الإنجليز فيها لدخلت القوات الألمانية مصر واخترقت الشرق الأوسط وانقلب ميزان الموارد والقوى فى الحرب العالمية الثانية لصالح ألمانيا. ولا يعتبرون سقوط فرنسا وباريس تحت أقدام هتلر من المعارك الحاسمة لأنها لم يكن لها ذلك الأثر الممتد مع التاريخ.

وليس أغنى من التاريخ الإسلامى بالمعارك الحاسمة، ليس فقط بعدد تلك المعارك على مداه، ولكن بمقدار ما صاحبها من أثر وحسم. وليس على سبيل الحصر أن نذكر أن صلاح الدين استطاع فى حطين أن يضع نهاية للنفوذ الصليبى فى الشرق الأوسط فتعود الموجات الصليبية من حيث أتت وتستمر الحضارة الإسلامية تؤدى دورها لقرون أخرى. واستطاع «قُطز» أن يقهر التتار فى عين جالوت فيوقف المد المغولى المخرب بعد أن اكتسح الشرق كله حتى بلغ حدود مصر الشرقية، ثم يرتد مرة أخرى من حيث جاء فى هزائم متلاحقة.

القادسية معركة حاسمة:

ولا شك أن القادسية - وتقاربها اليرموك - تقع على قمة قائمة المعارك الحاسمة فى تاريخ العالم، فهى التى انفتحت على آثارها أبواب العراق، ومن وراء العراق فارس كلها، وهى التى

من عندها استطرد نصر المسلمين، فاستطرد معه السقوط الساسانى من الناحيتين الحربية والسياسية، والسقوط المجوسى من الناحية الدينية العقائدية. ومن هنا انساح دين الإسلام فى العالم شرقاً وغرباً، ولولا ذلك لظل محصوراً فى جزيرة العرب لا يتعدى القبائل الضاربة فى صحاريها وحواضرها القليلة. كان الإسلام جديداً، فهو مازال فى فتوته، فإن لم يكسب المسلمون إنجازاتهم حينذاك، ودينهم حى فى قلوبهم يصرّف أعمالهم لأدرك أمتهم الهرم والشيخوخة ولظلت السيطرة على العالم لجيرانهم من الفرس والروم من دونهم، ولأمكن حينذاك - ولو من الناحية التصورية البحتة للتاريخ - أن ينحسر ظل الإسلام فيضمر حيث حصره أصحابه، لولا أن الإسلام يفرض على المسلمين مجاهدة أعدائهم ومناجزتهم حتى يتم النصر عليهم.

فى القادسية كسر المسلمون شوكة المجوس كسراً لم ينجبر بعدها أبداً. فيها ألقى الفرس بكل طاقاتهم من سلاح وعتاد وأفيال كثيرة وأعداد ضخمة من الجند، وبقيادة تمثلت فى أحكم رجالهم وأشهرهم فى الحرب والسياسة. وألقى المسلمون أيضاً بكل إمكانياتهم من وجوه المسلمين وغررهم، وبقيادة تمثلت فى صحابى رسول الله ﷺ، وواحد من السابقين الأوائل إلى الإسلام وأحد الستة المرشحين للخلافة بعد عمر، سعد بن أبى وقاص، كما نزلوا إلى مواجهة أعداد الفرس وأفيالهم وعدتهم بسلاحهم الذى اختصوا به على عدوهم... الإيمان بكل ما يُفرغه على أصحابه من صلابة وصبر وكفاءة. بهذا استحقت القادسية مكانها، بل مكانتها على قمة المعارك الحاسمة فى تاريخ البشر.

من يقود الحملة

هل يقودها عمر

توافد الناس من أنحاء شبه الجزيرة، فأنزلهم عمر على ماء (فى مكان فيه ماء) يدعى صرار بالقرب من المدينة على طريق نجد نحو العراق، فعسكروا به وخرج عمر معهم. وجعل على مقدمته طلحة بن عبيد الله وقدمه إلى ماء بعد صرار اسمه الأعوص. وجعل على الميمنة الزبير بن العوام وعلى الميسرة عبدالرحمن بن عوف. كان ذلك فى أول محرم ١٤هـ. (٢٤ فبراير - شباط ٦٣٥م)، ولا يدرى الناس ما إذا كان أمير المؤمنين قد اعتزم الخروج بنفسه على رأس هذا الجمع أو أنه سيبقى فى المدينة ويبعث رجلاً غيره. وكان عثمان بن عفان رديف عمر (والرديف عند العرب هو نائب الرئيس والرجل الذى يرجونه بعده)، كما كان عبدالرحمن بن عوف من كبار الصحابة ذوى المكانة فى الدولة وعند عمر، فكان الناس إذا أرادوا أن يسألوا عمر عن شىء أوفدوا إليه عثمان أو عبدالرحمن، فإذا لم يقدر هذان على علم شىء مما يريدون ثلثّوا بالعباس بن عبدالمطلب.

وسأل عثمان عمر عما يريد، فلم يجب عمر وإنما نادى «الصلاة جامعة» فاجتمع الناس إليه فأخبرهم الخبر واستشارهم فى الأمر لينظر ما يقولون، ولم يكن قد استشار فى شىء مما كان قبلها.

قال العامة: «سِر وسر بنا معك».

فدخل فى رأيهم وكره أن يدعهم حتى يخرجهم منه فى رفق، فقال:

«استعدوا وأعدوا فإنى سائر إلى أن يجىء رأى هو أمثل من ذلك[1]».

ثم بعث إلى على بن أبى طالب وكان قد استخلفه على المدينة فأتاه، وأرسل إلى طلحة

---

(١) الطبرى ٣ - ٤٨٠ عن السرى عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم.
فتوح البلدان ٦٣٢.

وإلى الزبير وإلى عبدالرحمن بن عوف فجاؤوا إليه وعرض عليهم الأمر فقال: «أحضروني الرأى فإنى سائر».

فكان طلحة وعلى بن أبى طالب ممن تابع الناس على رأيهم ورأى خروج عمر.

وكان العباس بن عبدالمطلب وعبدالرحمن بن عوف ممن نهاه.

روى عبدالرحمن ما كان فى ذلك الشأن فقال:

«ما فديت أحداً بأبى وأمى بعد النبى ﷺ قبل يومئذ ولا بعده، فقلت بأبى وأمى اجعل عجزها بى (يعنى اجعلنى آخر من تبعث) وأقم وابعث جنداً، فقد رأيت قضاء الله لك فى جنودك قبل وبعد، فإنه إن يهزم جيشك ليس كهزيمتك. وإنك إن تُقتل أو تُهزم فى أنف الأمر خشيت ألا يكبّر المسلمون وأن لا يشهدوا ألا إله إلا الله أبداً».

فاجتمعوا جميعاً وأجمع ملؤهم على أن يقيم بالمدينة ويبعث رجلاً من أصحاب النبى ﷺ، ويمده بالجنود، فإن كان الذى يشتهى من الفتح فهو الذى يريد ويريدون، وإلا أعاد رجلاً ثانياً وندب جنداً آخر وفى ذلك ما يغيظ العدو ويرعوى المسلمون (الاحتياط مما يجنبهم ردة ثانية) ويجىء نصر الله بإنجاز موعوده.

العدول عن ذلك

ومرة أخرى نادى عمر: «الصلاة جامعة» فاجتمع الناس إليه فقام فيهم فقال: «إن الله عز وجل قد جمع على الإسلام أهله فألف بين القلوب وجعلهم فيه إخواناً، والمسلمون فيما بينهم كالجسد لا يخلو منه شىء من شىء أصاب غيره، وكذلك يحق على المسلمين أن يكونوا وأمرهم شورى بينهم بين ذوى الرأى منهم. فالناس تبع لمن قام بهذا الأمر ما اجتمعوا عليه ورضوا به لزم الناس وكانوا فيه تبعاً لهم، ومن أقام بهذا الأمر تبع لأولى رأيهم ما رأوا لهم ورضوا به لهم من مكيدة فى حرب كانوا فيه تبعاً لهم.

يا أيها الناس، إنى إنما كنت كرجل منكم حتى صرفنى ذوو الرأى منكم عن الخروج، فقد رأيت أن أقيم وأبعث رجلاً، وقد أحضرت هذا الأمر من قدّمت ومن خلفت». (يعنى طلحة وعلياً).

لم تكن فكرة خروج عمر إلى العراق جديدة تثار لأول مرة، فقد مرّ بنا قول أبى بكر: «... وددت أنى كنت إذ وجهت خالد بن الوليد إلى الشام، كنت وجهت عمر بن الخطاب

إلى العراق فكنت قد بسطت يدى كلتاهما فى سبيل الله»، ومد يديه. غير أن أبا بكر ود لو أنه بعث عمر إلى العراق إذ لم يكن عمر أميراً للمؤمنين، أما وقد صار كذلك فإن الأمر يختلف. نعم لقد كان رسول الله ﷺ يقود بنفسه جيوش المسلمين،وكذلك فعل أبو بكر فى قتال ردة عبس وذبيان. ولكن ليست هذه كتلك. لقد كانت غزوات الرسول وقتال عبس وذبيان يدور على أرض هى عقر دار الإسلام والمسلمين، فالأمر يحتاج إلى الاستماتة وإلى حشد كل طاقة من صفوف الجند كانت أو فى مكان القيادة. فإذا نظرنا إلى شخص الخليفة من زاوية أن المصلحة تقضى صيانته حفظاً لوحدة الأمة وهيبتها وقيادتها، فإننا نجد أن بقاءه بالمدينة لم يكن ليكفل ذلك والمعركة على أبوابها، فكان من الأجدى إذن أن يخرج على رأس جنده. ومع ذلك فقد ارتفعت أصوات تطلب من أبى بكر فى قتال عبس وذبيان أن يبقى بالمدينة[1]. فضلاً عن ذلك فقد كانت جميع هذه المعارك قصيرة الأجل لا تمتد كثيراً مع الأيام، أما الفتوح فإنها تمتد سنة بعد أخرى مما لا يتيسر معه الاستغناء عن شخص الخليفة بعيداً عن تصريف كافة شئون الدولة. الصالح الحربى إذن هو الذى حدا بالحاكم أن يخرج على رأس جيشه. والصالح الحربى هنا هو الذى يطلب من عمر أن يبقى بالمدينة. وبهذا أخذ أبو بكر إذ لم يخرج فى سائر حروب الردة التى ابتعدت عن المدينة ولا فى الفتوح.

قائد الحملة

انتهى عمر إلى أن يبقى بالمدينة وأن يبعث قائداً سواه. وبقى عليه أن يختار ذلك القائد، فعرض على على بن أبى طالب أن يقود[2] الحملة ولكن علياً أبى. وراح عمر يتداول الأمر مع مستشاريه ويقول لهم:

«أشيروا علىّ برجل».

وفيما هم يرتادون الرجال إذ جاءه كتاب من سعد بن أبى وقاص، وكان أبو بكر قد استعمله على صدقات هوازن بنجد وأقره عمر وكتب إليه فيمن كتب إليهم من العمال حين أعلن النفير أن ينتخب أهل الخيل والسلاح ممن له رأى ونجدة. فرجع إليه جواب سعد بمن

---

(١) الطبرى ٣-٢٤٧ عن السرى عن شعيب عن سيف عن سهل بن يوسف عن القاسم بن محمد. هذا ونود الإشارة هنا إلى أن سلسلة رواة «السرى عن شعيب عن سيف» سوف تتكرر كثيراً، لذلك آثرنا أن نرمز لها بالحروف س ش س على النهج الذى أخذنا به فى «الطريق إلى المدائن».

(٢) فتوح البلدان ٦٣٢.

اجتمع له من الناس، وقال فيه:

«إنى قد انتخبت لك ألف فارس مُؤْدٍ[1] كلهم له نجدة ورأى وصاحب حيطة (احتياط وحذر، لا يؤخذ على غرة) يحوط حريم قومه ويمنع ذمارهم. إليهم انتهت أحسابهم ورأيهم فشأنك بهم».

قال عبدالرحمن بن عوف: «وجدته».

قال عمر: «فمن ؟».

قالوا: «الأسد عادياً».

قال: «من ؟».

قال عبدالرحمن: «الأسد فى براثنه[2] سعد بن مالك».

وانتهى عمر إلى قولهم[3]، فكان وصول خطاب سعد فى هذا الوقت هو الذى وضع اسمه أمام أمير المؤمنين ومستشاريه وذكرهم به.

سعد بن أبى وقاص

هو أحد العشرة المبشرين بالجنة وآخرهم وفاة. وأحد الستة الذين جعل عمر الخلافة من بعده شورى بينهم لأن رسول الله ﷺ توفى وهو عنهم راض. أول من رمى من المسلمين بسهم فى سبيل الله، وأحد الفرسان الشجعان من قريش الذين كانوا يحرسون رسول الله فى مغازيه.

هو بطل القادسية الذى فتح العراق وبعضاً من أرض فارس، وهو الذى كوّف الكوفة وأنشأ بها أول قاعدة حربية كبرى للمسلمين، فكانت بعد ذلك حاضرة العلوم والمعارف الإسلامية تشعها إلى سائر بقاع الأرض، وإليها ينتسب الخط العربى الكوفى المشهور بجماله وزخرفه وسحنته العربية الصرفة. كان سعد قصير القامة ممتلئ الجسم قوى البنية.

كان سعد مجاب الدعوة مشهوراً بذلك، يخاف الناس دعوته ويرجونها لاشتهار إجابتها عندهم. كان من أهدأ القادة المشهورين أعصاباً وأكثرهم رزانة وأبعدهم عن الخطأ فى الحرب.

---

(١) مؤد معجز - آده أعجزه. ومنها «ولا يؤوده حفظهما».

(٢) البراثن للسباع والطير كالأصابع للإنسان، والمخلب ظفر البرثن. (مختار الصحاح).

(٣) الطبرى ٣ - ٤٨٢ س ش س عن محمد بن اسحق عن صالح بن كيسان عن عمر بن عبدالعزيز. وس ش س عن سهل بن يوسف عن القاسم بن محمد، ابن الأثير ٢ - ١٧٢.

كما كان من الرماة المسددين الذين لا يطيش لهم سهم. وكان من أحدّ الناس بصراً، رأى ذات يوم شيئاً يتحرك عن بعد فقال لمن معه: «ترون شيئاً؟»

قالوا: «نرى شيئاً كالطائر».

قال: «أرى راكباً على بعير».

فكان كما قال وجاء عم سعد بعد قليل على بختى (بعير).

وكان سعد طيب النفس نقى السريرة. قال: «لا أجد فى نفسى سوءاً لأحد من المسلمين ولا أنوى له شراً ولا أقوله».

وكان رسول الله ﷺ يفاخر به ويقول:

«هذا خالى فليرنى امرؤ خاله».

وسعد قرشي، ولد ونشأ فى مكة. وهو ابن أبى وقاص (واسمه مالك) ابن أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب.

إسلامه

كان سعد قد بلغ السابعة عشر أو التاسعة عشر حين دعاه أبو بكر الصديق رضى الله عنه (٣٨ سنة) إلى الإسلام وعرضه عليه. وحين أسلم سعد لم يكن سبقه إلى الإسلام سوى أبوبكر وعلى بن أبى طالب وزيد بن حارثة وخديجة بنت خُويلد، وقيل إنه كان سابع سبعة فى إسلامه بعد ستة. كان سعد حينذاك يشتغل ببرى النبال بمكة وقد انعكست عليه آثار مهنته فكان من أشد الناس إجادة للرمى. وقد لا يكون من قبيل المصادفة أن يروى سعد عن النبى ﷺ قوله: «عليكم بالرمى فإنه من خير لهوكم». (الطبرانى فى الأوسط - البزار).

وكان أخوه عامر ممن أسلم وهاجر الهجرة الأولى إلى الحبشة حين اشتد البلاء بالمسلمين فى مكة، فى حين آثر سعد أن يبقى مع رسول الله ﷺ ومن بقى معه يحتمل الاضطهاد والعذاب. وقررت قريش مقاطعة المسلمين واعتقالهم، فحصروهم فى شعب أبى طالب من شعاب مكة، لا يبيعونهم ولا يشترون منهم ولا يزوجونهم ولا يتزوجون منهم ويمنعونهم من الخروج من الشعب كما يمنعون الناس من الدخول إليهم، وكانوا رجالاً ونساء وأطفالاً حتى نفد زادهم وسعد معهم يعضّه الجوع بنابه كما يعضّهم، ومكثوا على ذلك ثلاثين شهراً حتى أكلوا أوراق الشجر.

وراح المسلمون يهاجرون فخرج سعد مهاجراً من مكة إلى المدينة مع بلال وعمار بن ياسر. ومن يثرب بعث النبى ﷺ سرية عليها عبيدة بن الحارث فى ثمانين راكباً من المهاجرين، فكان فيهم سعد وعتبة بن غزوان والمقداد بن عمرو، خرجوا إلى ماء بالحجاز حتى إذا رأوا جمعاً من قريش رماهم سعد بسهم فكان ذلك أول سهم أطلق فى الإسلام.

وشهد سعد غزوة بدر مع المسلمين واستطاع يومها أن يأسر اثنين من قريش. ثم دار العام وكانت غزوة أحد فكان سعد من الذين ثبتوا فى بسالة يدفع عن رسول الله ﷺ حين دارت الدائرة على المسلمين وجعل يمطر المشركين بسهامه والنبى يقول له:

«إرم أيها الفتى الحزور فداك أبى وأمى».

وكُسرت قوس سعد من طول ما رمى بها فأعطاه النبى قوساً أخرى ودعا له فقال: «اللهم سدد رميته وأجب دعوته».

وبلغ ما أطلقه سعد يوم أحد ألف سهم.

وقام اليهود بتكتيل قريش وسائر القبائل ضد المسلمين، وزحفت هذه الأحزاب تريد المدينة بقوة تزيد كثيراً عما يستطيع المسلمون مواجهته، فأشار سلمان الفارسى بتحصين المدينة بخندق، فحفره المسلمون فى الجانب المكشوف منها وسعد معهم. ويومها تنبأ رسول الله بفتح الحيرة والمدائن وقصور الروم وقصور صنعاء. لم يكن أحد يومذاك يدرى أن قصور الحيرة ومدائن كسرى سوف يفتحها بعد سنوات قليلة رجال ممن يهاجم المدينة وممن يدافعون عنها الآن على السواء، يقودهم واحد منهم يضرب بالمعول ويحمل التراب على كتفه اسمه سعد بن أبى وقاص. وبلغت الأحزاب المدينة وحاولت اقتحام الخندق فعجزت عن ذلك ووقفت تجاهه تحاصره. وكان سعد وبعض المسلمين يخرجون مراراً للمبارزة حتى يئست القبائل وتعبت من برد الشتاء فانفضت عن مقصدها وانصرفت.

وشهد سعد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ. فلما توفى الرسول ووُلّى أبو بكر الخلافة وارتد من العرب من ارتد ووقف الصدّيق بإيمانه الذى يعدل إيمان أمة يتمسك بكل ما جاء به الإسلام، كان سعد من كبار الصحابة الأبطال الذين اعتمد عليهم فى حراسة المدينة مع على وطلحة وسائر أصحابهم. فلما كانت الليلة الثالثة تجمعت بعض القبائل فى شمال المدينة

تريد مهاجمتها . ورأى أبو بكر أن يباغتها فوراً وفي نفس الليلة مستخدماً مبدأ أن الهجوم خير وسيلة للدفاع ، فتحرك مع الصحابة وسعد معهم فهزموا تلك الجموع وفرقوا تجمعها .
وقضى أبو بكر على الردة بعد حروب طاحنة ثم استعمل سعداً على صدقات هوازن ، واستعمله عمر عليها أيضاً بعد أبي بكر .

سعد بين القادة

والآن تحتاج هذه الجيوش لفتح العراق إلى قائد صحابي جليل يكون وهو يقودها بديلاً عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فاختير سعد بن أبي وقاص . قد نرى منهجه في الحرب والقتال خلاف ما عهدنا من خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة ، وفي كل خير ، تماماً كما نلمس الفوارق الشخصية بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، ولا عجب في ذلك فليس للإسلام قالب واحد جامد في شئون الدنيا يصب فيه الناس جميعاً فيخرجوا منه صورة واحدة متكررة ، وإن علماء النفس اليوم يقررون أن كل شخص فرد مفرد في ذاته ، وحيد نسجه وأن من المحال أن يتكرر الشخص بكافة جملته وتفصيله تماماً ، كما وأنه من المحال أن تكرر البصمات فلا بد من فوارق . هذا خلق الله وهكذا إعجازه فيه وما كان لدين الله أن يناقضه ، وحسبه ما يدخله على الفرد من صقل كما يصقل النحات الحجر ، فإذا هو من آيات الجمال رخاماً كان أو جرانيتاً أو مرمراً أو بازلتاً . وسعد نموذج من نماذج القائد المسلم ، وسوف نلمس تلك الفوارق مع الصفحات التالية . . . صفحات تاريخنا الوضاء .

كان من دأب عمر أن يسأل من يفد عليه عمن وراءه . فجاء عمرو[1] بن معدى كرب يوماً من العراق فسأله عمر عن سعد فقال عمرو :

«متواضع في خبائه ، عربي في نمرته[2] ، أسد في تاموره[3] ، يعدل في القضية ، ويقسم بالسوية ، ويبعد في السرية ، يعطف علينا عطف الأم البَرَّة ، وينقل إلينا حقنا نقل الذرة»[4] .

وقدم جرير بن عبدالله البجلي فسأله : «كيف تركت سعداً في ولايته» .

---

(١) أسد الغابة .
(٢) النمرة كساء في خطوط بيض وسود تلبسه العرب .
(٣) عرينه .
(٤) الذرة أصغر النمل وجمعه ذر .

قال جرير[1] : «أكرم الناس مقدرة وأحسنهم معذرة واقلهم قسوة ، وهو لهم كالأم البرة يجمع لهم كما تجمع الذرة مع أنه ميمون الأثر مرزوق الظفر ، أشد الناس عند البأس وأحب قريش إلى الناس» .

قال : «فأخبرني عن حال الناس» .

قال : «هم كسهام الجعبة منهم القائم الرائش ومنهم العصل الطائش ، وابن وقاص ثقافها ، يغمز عصلها ويقيم ميلها والله أعلم بالسرائر يا عمر»[2] .

وكان سعد يهتم بقيافته يلبس أفخر الثياب . ذواقة في ملبسه ومأكله ومشربه ، يخضب شعره بالسواد ويلبس في إصبعه خاتماً ، يحب الطيب . وكان راجح العقل بعيد النظر متين الخلق عف اليد واللسان براً بأهله وفياً لأصحابه ، أحب الناس للناس وأرفقهم بهم[3] ، وإن كانت فيه حدة ويغضب لله . وكان سعد أحد الناس بصراً ، أسمر أفطس قصيراً دحداحاً غليظاً ذا هامة (كبير الرأس) ، غليظ الأصابع أشعر . تزوج اثنتى عشرة امرأة خلال حياته كان منهن بعض السرارى ، أعقب منهن سبعة عشر ذكراً وثمانى عشرة انثى ، وترك يوم وفاته ربع مليون من الدراهم . (= أكثر من ٧٤٠ جراما من الفضة) . لقد روى سعد أحاديثاً عن رسول الله ﷺ كانت حياته صورة منها ، قال : «أربع من السعادة المرأة الصالحة ، والمسكن الواسع ، والجار الصالح ، والمركب الهنىء . وأربع من الشقاء : الجار السوء ، والمرأة السوء ، والمركب السوء ، والمسكن الضيق[4] . وقال : «إن الله تعالى طيب يحب الطيب نظيف يحب النظافة كريم يحب الكرم جواد يحب الجود ، فنظفوا أفنيتكم ولا تشبهوا باليهود[5]» . وقال : «إن الله تعالى يحب العبد التقى الغنى الخفى»[6] .

موعظة

أرسل عمر إلى سعد فقدم عليه فأمَّره على حرب العراق وأوصاه فقال : «يا سعد بنى وهيب ، لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله ﷺ ، فإن الله عز وجل لا يمحو السيء

(١) الإصابة .
(٢) عصل الشيء اعوج في صلابة ، وعصل السهم التوى في الرمى وأبطأ (المنجد) .
(٣) الطبقات الكبرى .
(٤) ابن حبان في صحيحه .
(٥) الترمذى .
(٦) مسلم ، وأحمد في مسنده .

بالسيء ولكن يمحو السيء بالحسن. فإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته، فالناس شريفهم ووضيعهم فى ذات الله سواء، الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية ويدركون ما عنده بالطاعة، فانظر الأمر الذى رأيت النبى ﷺ منذ بُعث إلى أن فارقنا فالزمه فإنه الأمر. هذه عظتى إياك، إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك وكنت من الخاسرين».

ووصية

ولما حان الرحيل وأراد عمر أن يبعثه دعاه وقال له:

«إنى قد وليتك حرب العراق فاحفظ وصيتى فإنك تقدم على أمر شديد كريه لا يخلص منه إلا الحق فعوّد نفسك ومن معك الخير واستفتح به. واعلم أن لكل عادة عتاداً، فعتاد الخير الصبر، فالصبر الصبر على ما أصابك أو نابك يجتمع لك خشية الله. واعلم أن خشية الله تجتمع فى أمرين، فى طاعته واجتناب معصيته. وإنما أطاعه من أطاعه ببغض الدنيا وحب الآخرة وعصاه من عصاه بحب الدنيا وبغض الآخرة.

وللقلوب حقائق ينشئها الله إنشاء منها السر ومنها العلانية، فأما العلانية فأن يكون حامده وذامه فى الحق سواء، وأما السر فيعرف بظهور الحكمة من قلبه على لسانه وبمحبة الناس، فلا تزهد فى التحبب فإن النبيين قد سألوا محبتهم، وإن الله إذا أحب عبداً حببه وإذا أبغض عبداً بغّضه فاعتبر منزلتك عند الله تعالى بمنزلتك عند الناس ممن يشرع معك فى أمرك».

رحيل الحملة

١٣ شعبان ١٤هـ - أول أكتوبر (تشرين الأول) ٦٣٥م

التجمع

بعث عمر سعداً فيمن اجتمع إليه بالمدينة من نفير المسلمين، فخرج من صرار قاصداً العراق في أربعة آلاف.

١٠٠٠ من قيس عيلان. عليهم بشر بن عبدالله الهلالي.

٣٠٠٠ ممن قدم عليه من اليمن والسَّراة. وعلى أهل السروات حميضة بن النعمان بن حميضة البارقي، وهم بارق وألمع وغامد وسائر إخوتهم، كانوا سبعمائة من أهل السراة وألفين وثلاثمائة من أهل اليمن. منهم النخع بن عمر وعليهم أرطاة بن كعب النخعي، فيهم ستمائة من حضرموت والصَّدف عليهم شداد بن ضمعج، وألف وثلاثمائة من مذْحَج على ثلاثة رؤساء، عمرو بن معدى كرب على مُنَبِّه، وأبو سبرة بن ذُوَيْب على جعفي ومن في حلف جعفي من إخوة جَزْءٍ وزبيد وأنس الله ومن كان مثلهم، ويزيد بن الحارث الصُّدَائي على صُداء وجنب ومُسْلِية[1].

حوار مع عمر

وأتاهم عمر في معسكرهم فقال:

«إن الشرف فيكم يا معشر النخع لُمتربِّع[2]، سيروا مع سعد[3] إلى إخوانكم من أهل العراق».

---

(١) الطبرى ٣ / ٤٨٤ س ش س عن محمد وطلحة والمستنير وحنش النخعي.
الطبرى ٣ / ٤٨٥ و س ش س عن عبيدة عن إبراهيم
سوف تكون لمعرفة القبائل أهميته في متابعة تحركات هذه الحملة، ونوصى بالرجوع إلى الباب الثانى من الجزء الأول من كتاب «الطريق إلى المدائن» «العرب وشبه جزيرتهم».

(٢) الربيع: النماء والزيادة، فيكون متربع بمعنى زائد. وفى الإصابة: «متربعاً» بمعنى ساكن فيكم من الربع وهى الدار.

(٣) الطبرى ٣ / ٤٨٤ س ش س عن حنش بن الحارث النخعي عن أبيه. الإصابة ٧٢ - مادة حنش.

وأرادهم جميعاً أن يتجهوا إلى العراق فأبوا إلا الشام. وأصر عمر على ذهابهم إلى العراق، ثم قسمهم فأمضى نصفهم نحو العراق فكانوا أربعة آلاف، وأمضى النصف الثانى إلى الشام. هذا وقد ازداد عدد النخع حتى بلغ ألفين وخمسمائة عليهم أرطاة[1] بن كعب بن شراحيل النخعى.

عن جرير بن عبدالله قال: «كان أهل اليمن ينزعون إلى الشام وكانت مضر تنزع إلى العراق»، فقال عمر: «أرحامكم أرسخ من أرحامنا! ما بال مضر لا تذكر أسلافها من أهل الشام»[2].

وقال محمد بن حذيفة بن اليمان: «لم يكن أحد من العرب أجرأ على فارس من ربيعة، فكان المسلمون يسمونهم ربيعة الأسد وربيعة الفرس، وكانت العرب فى جاهليتها تسمى فارس الأسد والروم الأسد»[3].

وداع وخطاب

وشيعهم عمر فمشى معهم من صرار إلى الأعوص ثم قام فيهم خطيباً فقال:

«إن الله تعالى إنما ضرب لكم الأمثال وصرف لكم القول ليحيى بها القلوب فإن القلوب ميتة فى صدورها حتى يحييها الله. من علم شيئاً فلينتفع به.

وإن للعدل أمارات وتباشير، فأما الأمارات فالحياء والسخاء والهين واللين، وأما التباشير فالرحمة.

وقد جعل الله لكل أمر باباً، ويسر لكل باب مفتاحاً. فباب العدل الاعتبار ومفتاحه الزهد والاعتبار، ذكر الموت بتذكر الأموات والاستعداد له بتقديم الأعمال، والزهد أخذ الحق من كل أحد قبله حق، وتأدية الحق إلى كل أحد له حق، ولا تصانع فى ذلك أحداً، واكتف بما يكفيك من الكفاف فإن من لم يكفه الكفاف لم يغنه شىء.

إنى بينكم وبين الله وليس بينى وبينه أحد. وإن الله قد ألزمنى رفع الدعاء عنه، فانهوا شكاتكم إلينا. فمن لم يستطع فإلى من يبلغناها نأخذ له الحق غير مُتَعْتَع» (غير منقوص).

---

(١) كان أرطاة قد وفد على النبى مع أخيه قيس بن كعب وكانا من أجمل أهل زمانهما وأنطقه، فدعاهما إلى الإسلام فأسلما، فدعا لهما بخير وكتب لأرطاة كتاباً وعقد له لواء كان هو اللواء الذى شهدوا به القادسية بعد ذلك.

(٢) الطبرى ٣ / ٤٨٧ س ش س عن عبدالملك بن عمير عن زياد عن جرير.

(٣) الطبرى ٣ / ٤٨٧ س ش س عن أبى سعد بن المرزبان عمن حدثه عن محمد بن حذيفة ابن اليمان.

ثم أمر سعداً بالسير وقال له:

«إذا انتهيت إلى زرود فانزل بها وتفرقوا فيما حولها، واندب من حولك منهم، وانتخب أهل النجدة والرأى والقوة والعدة[١]».

ووقف عمر والمسلمون يخرجون من الأعوص يمرون من أمامه، فمرت السكون أول كندة مع الحصين بن نمير السكونى ومعاوية بن حديج فى أربعمائة فاستعرضهم فإذا فيهم فتية دلم سباط (طوال) مع معاوية بن حديج فظل يعرض عنهم حتى قيل له: «ما لك ولهؤلاء؟» قال: «إنى عنهم لمتردد، وما مر بى قوم من العرب أكره إلىّ منهم». ثم أمضاهم فكان كثيراً ما يتذكرهم بعد ذلك بالكراهية ويتعجب الناس من رأى عمر. فكان منهم سودان بن حمران ممن قتل عثمان بن عفان، وكان منهم حليفهم خالد بن ملجم قتل على بن أبى طالب، وكان منهم معاوية بن حديج وهو الذى نهض فى قوم منهم زمن الفتنة الكبرى يتبع قتلة عثمان يقتلهم وكان منهم قوم يقرون قتلة[٢] عثمان، وكان منهم حصين بن نمير السكونى مع جند الشام الذين حاصروا عبدالله بن الزبير بن العوام عام ٦٤هـ. بالكعبة فأحرقوها.

المسير

وسار سعد بهذا الجيش على طريق المدينة - الحيرة مجتازاً أرض نجد حتى نزل زرود على مسافة ٥٨٥ كيلو متر من المدينة، وهى أرض منبسطة رمالها حمراء غير متماسكة إذ تقع على الامتداد الطبيعى للنفوذ، وسميت بذلك لأنها تزدرد الماء، وبها آبار ماء ليست بالعذبة، وهى على مسيرة يوم من فيد[٣]. وتذكر رواية[٤] أن سعداً نزل زرود فى أول الشتاء، وتقديرنا أنه نزلها فى حوالى ٢٧ شعبان ١٤هـ. ١٥ أكتوبر (تشرين الأول) ٦٣٥م. على أساس سوف نذكره فى فصل تالٍ إن شاء الله.

حشود أخر

وبعد خروج سعد جاءت إمدادات أخرى، فأمده عمر بألفى يمانى وألفى نجدى مُؤْدٍ من

(١) الطبرى ٣ / ٤٨٥ س ش س عن محمد وطلحة وسهل عن القاسم.
(٢) الطبرى ٣ / ٤٨٧ س ش س عن محمد بن سوقة عن رجل.
(٣) ابن بطوطة ١٣٤ - وقدامة بن جعفر ١٨٦ وقال زرود هى الخزيمية.
(٤) الطبرى ٣ / ٤٨٦ س ش س عن محمد وطلحة عن ماهان وزياد بإسناده.

غطفان وسائر قيس. فقدم سعد زرود بمن معه، وقدمت من ورائه هذه الجموع ففرقها فيما حول زرود من مياه بنى تميم وأسد. وفى انتظار أمر عمر بالتقدم ووفود مزيد من التعزيزات راح سعد يحشد ممن حوله، فجمع ثلاثة آلف من تميم وألفاً من الرباب وثلاثة آلاف من أسد. ولم تكن زرود لتحتملهم بالإضافة إلى من فيها، فأمرهم سعد أن ينزلوا حدود أرضهم بين الحَزْن[1] والبسيطة، فأقاموا هنالك بين سعد بن أبى وقاص والمثنى بن حارثة. وفيما يذكر البلاذرى أن سعداً أقام بالثعلبية (والثعلبية قريبة من زرود، تبعد عنها ٥٩ كيلو متراً) ثلاثة أشهر حتى لحق[2] به أصحابه.

وبذل عمر فى الحشد لهذه الحرب كل ما استطاع من جهد، فلم يدع رئيساً ولا ذا رأى ولا ذا شرف فى قومه ولا ذا سطوة ولا خطيباً ولا شاعراً إلا رمى به الفرس، فرماهم بوجوه الناس، وغررهم ودررهم وهو يقول: «والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب»[3].

وجاء المسلمون بأثقالهم، جرأهم على ذلك توطئة الحملات السابقة من خالد بن الوليد والمثنى[4] بن حارثة، فلاقوا بعد ذلك بأساً شديداً.

كان المثنى حينذاك فى شراف ينتظر قدوم سعد. وكان معه ستة آلاف من بكر بن وائل وألفان من سائر ربيعة وألفان من بجيلة عليهم جرير بن عبدالله، وألفان من قضاعة وطىء ممن انضم إليه. على طىء عدى بن حاتم وعلى قضاعة عمرو بن وبرة.

فى ذمة الله المثنى بن حارثة

وفى موقف الترقب هذا، سعد ينتظر أن يقدم عليه المثنى أو أن يأتى أمر عمر بالتقدم، والمثنى فى سيراف ينتظر قدوم سعد، مرض المثنى مرضاً خطيراً يقول الرواة إن الجراحة التى جرحها يوم الجسر انتقضت عليه، ولكن أطباء اليوم يرفضون ذلك التشخيص وقد مضى

---

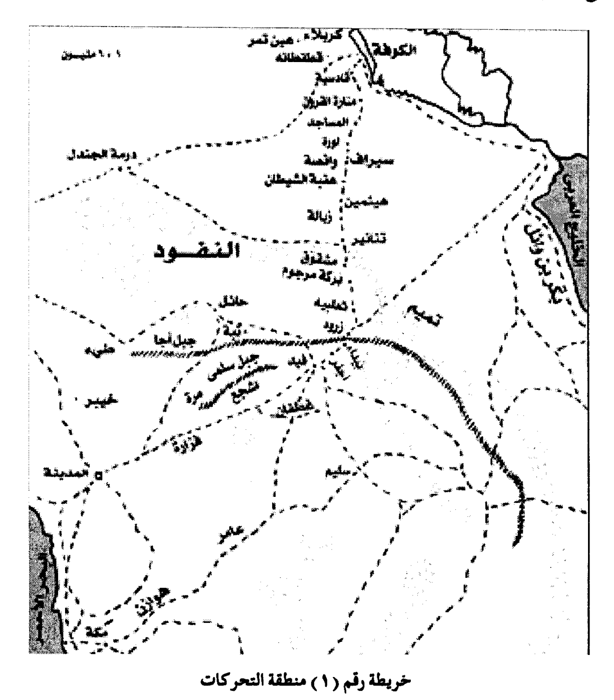
(١) الحزن بين نجد والعراق، موضع مربع فى بلاد بنى أسد تربع فيه العرب لكثرة رياضه. وحزن يربوع قرب فيد من جهة الكوفة وهو من أجل مرابع العرب فيه قيعان، وهى أطيب البادية منظراً وأجلى موضع فى طريق البصرة وهو مائل من طريق الكوفة إلى مكة (معجم البلدان). والبسيطة موضع بين الكوفة وحزن بنى يربوع وقيل بين العذيب والقاع (وهى مسافة ٢٤٥ كيلو متراً) وهى أرض مستوية ليس بها ماء (معجم البلدان).

(٢) فتوح البلدان ٦٣٣.

(٣) الطبرى ٣ / ٤٨٧ س ش س عن طلحة عن ماهان. - ابن الأثير ٢ / ١٧٣.

(٤) الطبرى ٣ / ٥٨١ س ش س عن عطية وهو ابن الحارث عمن أدرك ذلك.

على يوم الجسر عام كامل. واستشعر المثنى دنو أجله واشتد[1] وجعه فحمل إلى قومه واستخلف على من معه بشير ابن الخصاصية، وكان معه وجوه أهل العراق، ومع سعد وفود أهل العراق فيهم فرات بن حيان وعتيبة بن النهاس العجليان أعادهما عمر معه إلى العراق[2] (وكان قد استدعاهما بعد غارة صفين للتحقيق معهما). وطلب المثنى أخاه المعنى وأفضى إليه بوصيته وأمره أن يعجل بها إلى سعد. ثم أسلم المثنى الروح إلى بارئها فانطفأ السراج المضيء وأفلت هذه الشمس المشرقة التي ملأت فتوح العراق نوراً ودفئاً.



خريطة رقم (١) منطقة التحركات

(١) فتوح البلدان ٦٣٣، وقد أخذنا بروايته هنا. أما الطبرى فهو صاحب رواية انتقاض الجراح.
(٢) الطبرى ٣ / ٤٨٦ س ش س عن محمد وطلحة وماهان وزياد بإسناده.

ولم يستطع المعنى أن يخرج بهذه الوصية من فوره إلى سعد، إذ أن آزاذمرد بن آزاذبه بعث عميلاً من عملائه العرب يدعى قابوس بن قابوس بن المنذر إلى القادسية، وقال له: «ادع العرب وأنت على من أجابك وكن كما كان أبوك». ونزل قابوس القادسية وكاتب العرب من بكر بن وائل بمثل ما كان النعمان بن المنذر يكاتبهم به من المقاربة والوعيد والترغيب والترهيب. وعلم المعنى بما يجرى وقد فرغ من توسيد أخيه العظيم المثنى فى لحده، فخرج ليلاً من ذى قار مع بعض فرسانه إلى القادسية حيث بَيَّت قابوس ومن معه فكبسهم وفرغ منهم ثم عاد إلى ذى قار حيث أخذ معه سلمى بنت خصفة التيمية (تيم اللات) أرملة المثنى وخرج إلى سعد[1].

ولد المثنى بالبادية وعاش فى البادية ومات فى البادية وطواه لحد تحت رمال البادية غازياً للدنيا بسيفه عزوفاً عنها بقلبه. وما أشبه لحظات المثنى الأخيرة باللحظات الأخيرة للخليفة أبى بكر رضى الله عنهما. كلاهما ترك الدنيا وهو يفكر للمسلمين فى هذه الفتوح ويوصى لها، توفى أبو بكر وهو يوصى خليفته عمر بندب الناس وبعثهم لفتح العراق. وتوفى المثنى وهو يوصى خليفته سعداً باستراتيجية حملته بناء على تجاربه السابقة وما أفاد منها. لئن نجحت الحملات السابقة نجاحاً باهراً فى انتزاع أرض العراق من بين براثن الأسد إلا أنها لم تبلغ اقتحام المدائن وإسقاط الكسروية وهو ما ينبغى أن تخط له الخطط. لقد عرفنا فى الكتاب الأول «الطريق إلى المدائن» المثنى بن حارثة وعرفنا من هو بطولة وقيادة وعلو قدر، والآن يبعث عمر سعداً قائداً عليه فما يترك ذلك أدنى أثر فى نفس الرجل العظيم، فنراه يجود بنفسه وهو يفكر ويدبر ويوصى سعداً.

لفتة نحو الأبلة

كانت جميع الحملات التى قادها خالد وأبو عبيد والمثنى ثم سعد تستهدف دخول المدائن عن طريق اختراق أرض العراق من خلال إقليم الحيرة. فالحيرة كانت دائماً هى القاعدة المتقدمة للوثوب إلى المدائن. ومع ذلك لم يغب عن الخليفتين أبى بكر وعمر ولا عن قادة جيوشهما ما لمنطقة الأبلة وشط العرب من أهمية وتأثير على محور تقدمهم، فنجد أبا بكر يأمر خالداً أن يبدأ غزو العراق من الأبلة، ثم نجد خالداً فى تقدمه لا يُغفل أمر ذلك الثغر فكان يترك فيه حامية مناسبة لحفظ أمن جيشه من تلك التخوم ولمراقبة أى تحركات فارسية بها. ثم

(١) الطبرى ٣ / ٤٨٩ س ش س عن أبى عمرو عن أبى عثمان النهدى.

نجد المثنى حين انسحب من العراق ونزل على حدود الصحراء قد نشر قواته ما بين القطقطانة شمالاً إلى غضى بحيال البصرة جنوباً، فكان بها جرير بن عبدالله البجلى.

ولذلك كتب عمر إلى سعد مع خروجه من زرود إلى شراف[1] «أن ابعث إلى فرج الهند رجلاً ترضاه يكون بحياله ويكون ردءًا لك من شيء إن أتاك من تلك التخوم».

فبعث سعد المغيرة بن شعبة في خمسمائة من الفرسان فاتخذ موقعه في غُضَيّ بالصحراء تجاه موقع البصرة حيث كان جرير مازال هناك ومعه بجيلة، ولكن جريراً سوف ينضم إلى قوات سعد المتقدمة بعد قليل حيث تتجمع القوات للمعركة المرتقبة. كان خروج سعد من زرود في حوالى ٣٠ ذى القعدة ١٤هـ. ١٤ يناير (كانون الثانى) ٦٣٦م. ونزل بشراف في حوالى ٨ ذى الحجة ١٤هـ. ٢٢ يناير (كانون الثانى) ٦٣٦م. ثم كتب إلى عمر بمنزله ومنازل الناس فيما بين غضى إلى القطقطانة.

والآن يريد عمر لهذا الجيش الذى اجتمع له من الحشد ما استطاع أن يتقدم إلى القادسية على نظام وتعبئة تضم جميع من به حتى المغيرة بن شعبة وخيله. فماذا عن ثغر الأبلة؟ لقد كان قطبة بن قتادة السدوسى يغير بتلك الناحية فكتب إلى عمر يعلمه مكانه وأنه لو كان معه عدد يسير ظفر بمن قبله من العجم فنفاهم من بلادهم. وكان الفرس بتلك الناحية مازالوا يهابونه منذ وقعة المثنى بنهر المرأة ونكاية خالد بهم في المذار.

فأجابه عمر: «إنه أتانى كتابك أنك تغير على من قبلك من الأعاجم وقد أصبت ووفقت. أقم مكانك واحذر على من معك من أصحابك حتى يأتيك أمرى».

ثم وجه شُرَيْح بن عامر أحد بنى سعد بن بكر إلى أرض البصرة وقال له: «كن ردءًا للمسلمين بهذه الجيزة».

وأقبل شريح إلى البصرة فترك بها قطبة ومضى إلى الأهواز من أرض إيران، وهو توغل

---

(١) في المصادر أنه نزل بشراف ولكن موقع شراف أسفل من الكوفة بثلاثة أميال فلا يبلغها سعد إلا إذا تجاوز القادسية بنحو من ثلاثين كيلو متراً، وهو ما يستحيل تصوره إذ من المؤكد أنه نزل منزلاً لم يبلغ به القادسية. ونعتقد أن الموقع المقصود هو سيراف وليس «شراف» فهو لفظ قريب يجوز احتمال التصحيف فيه أو الالتباس على الراوى أو الكاتب أو الخطأ المطبعى. أما سيراف فهى على ثلاثة أميال من واقصة على الطريق من زرود إلى القادسية، وهى التى سبق أن نزل بها المثنى مع قومه من بكر بن وائل وبها آثار كثيرة وهى موقع متوسط بين غضى والقطقطانة إذا نزله المثنى من قبل أو نزله سعد الآن، فهو مكان معقول من حيث موقعه بخلاف شراف. ونرى أن كل ذكر لشراف في هذا الموضع بالذات إنما ينصرف إلى ما ذكرنا. (انظر الخريطة ص ٢٦)

أكثر مما كانت تسمح به قوته، حتى انتهى إلى مكان اسمه دارس فيه قوات للفرس، فدارت بينه وبينهم معركة انتصر الفرس عليه فيها وقتلوه.

أوامر ووصايا

وكتب عمر إلى سعد:

«أما بعد، فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو وأقوى العدة فى الحرب.

وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصى منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة لأن عددنا ليس كعددهم ولا عدتنا كعدتهم. فإن استوينا فى المعصية كان لهم الفضل علينا فى القوة، وإلا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا.

واعلموا أن عليكم فى سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون فاستحيوا منهم ولا تعملوا بمعاصى الله وأنتم فى سبيل الله.

ولا تقولوا إن عدونا شر منا ولن يُسلط علينا وإن أسأنا - فرب قوم سلط عليهم شر منهم كما سلط على بنى إسرائيل لما عملوا بمساخط الله - كفرة المجوس، فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً.

واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم، أسأل الله ذلك لنا ولكم.

وترفق بالمسلمين فى مسيرهم ولا تجشمهم مسيراً يتعبهم، ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم، فإنهم سائرون إلى عدو مقيم جام الأنفس والكراع.

وأقم بمن معك كل جمعة يوماً وليلة حتى تكون لهم راحة يجمعون فيها أنفسهم ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم.

ونح منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه.

ولا ترزأ أحداً من أهلها شيئاً فإن لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر

عليها، فما صبروا لكم فَفُوا لهم، ولا تنتصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح.

وإذا وطئت أدنى أرض العدو فأذْكِ العيون بينك وبينهم ولا يخف عليك أمرهم، وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه، فإن الكذوب لا ينفعك خبره وإن صدق في بعضه والغاش عين عليك وليس عيناً لك.

وليكن منك عند دنوك من أرض العدو، أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم فتقطع السرايا إمدادهم ومرافقهم، وتتبع الطلائع عوراتهم، وانتق للطلائع أهل الرأى والبأس من أصحابك وتخير لهم سوابق الخيل، فإن لقوا عدواً كان أول من تلقاهم القوة من رأيك، واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد والصبر على الجلاد.

ولا تخص أحداً بهوى فيضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حابيت به أهل خاصتك.

ولا تبعث طليعة ولا سرية في وجه تتخوف فيه ضيعة ونكاية.

فإذا عانيت العدو فاضمم إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك واجمع إليك مكيدتك وقوتك، ثم لا تعاجلهم المناجزة ما لم يستكرهك قتال حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها فتصنع بعدوك كصنيعته بك.

ثم أذْكِ حراسك على عسكرك وتحفظ من البيات جهدك. ولا تؤتى بأسير ليس له عهد إلا ضربت عنقة لترهب بذلك عدوك وعدو الله. والله ولى أمرك ومن معك وولى النصر لكم على عدوكم والله المستعان[1].

---

(١) الفاروق القائد ١٥٥ عن نهاية الأرب، نقلاً عن عمر بن الخطاب لمحمد صبيح.

تنظيم الحملة

وكتب عمر إلى سعد:

«إذا جاءك كتابى هذا فَعَشِّر الناس (اجعلهم عشرة أعشار).

وعَرِّف عليهم (اجعل عليهم عرفاء).

وأمِّر على أجنادهم (عين أمراء الجند).

وعَبِّهم (اجعلهم على تعبئة).

ومر رؤساء المسلمين فليشهدوا (يحضروا) وقدِّرهم وهم شهود (ليعرف كل منهم قدره وقدر مسئوليته برئاسته على من معه).

ثم وجههم إلى أصحابهم وواعدهم القادسية.

واضمم إليك المغيرة بن شعبة فى خيله.

واكتب إلىَّ بالذى يستقر عليه أمرهم».

ويحسن بنا قبل أن نسير مع الحملة أن نقوم بعملية جرد لهذه القوات تساعدنا على متابعتها وتفهم تحركاتها حين نستطرد مع الأحداث، وأن نعد قائمة بها من واقع ما سبق ذكره فى هذا الجزء والجزء الثالث من كتاب (الطريق إلى المدائن).

من ولد قحطان

٦٠٠ حضرموت والصَّدِف. عليهم شداد بن ضمعج. (من السكون من كندة).

١٣٠٠ مُنَبِّه. عليهم عمرو بن معدى كرب. (من مذحج). - جعفى وحلفاؤهم من إخوة جَزْء وزبيد وأنس الله ومن لفهم. (من مذحج). عليهم أبو سبرة بن ذؤيب. - صداء وجنب ومُسْلِيَة. (من عريب بن زيد بن كهلان). عليهم يزيد بن الحارث الصُّدَائى.

٢٥٠٠ النخع بن عمرو (من مذحج).

٧٠٠ أهل السروات – بارق وألمع وغامد وسائر إخوتهم (من الأزد). عليهم حميضة بن النعمان بن حميضة البارقي.

هذه الأعداد من اليمن وفدت إلى صرار، منها ٤٠٠ من السكون ضمن كندة عليهم معاوية بن حديج في أول بند من البنود أعلاه.

٢٠٠٠ يماني لحقوا بسعد في زرود (ربما كانوا من مراد بن مذحج ومن همدان).

١٧٠٠ من أهل اليمن عليهم أشعث بن قيس الكندي لحقوا بسعد.

٤٠٠ الأزد[1] أكثرهم من بارق – عليهم عرفجة بن هرثمة – كانوا في جيش المثنى.

٢٠٠ خثعم[2]. عليهم عبدالله بن ذي السهمين كانوا في جيش المثنى.

٢٠٠٠ بجيلة. عليهم جرير بن عبدالله كانوا في جيش المثنى.

١٠٠٠ طيء. عليهم عدي بن حاتم. كلهم فرسان، لعلهم أكثر من ١٠٠٠ كانوا في جيش المثنى ولحق بهم.

١٠٠٠ قضاعة. عليهم عمرو بن وبرة. لعلهم أقل من ١٠٠٠.

١٣٤٠٠

من ولد عدنان

١٠٠٠ قيس عيلان. عليهم بشر بن عبدالله الهلالي. خرجوا مع سعد من صرار.

١٠٠٠ نجدي من غطفان وغيرهم – فرسان. كتب عنهم سعد إلى عمر وهو في هوازن – لحقوا به في زرود.

١٠٠٠ سائر قيس – هم والبند السابق ٢٠٠٠ أمد بهم عمر سعداً فلحقوا به في زرود.

٣٠٠٠ تميم. حشدهم سعد وهو بزرود وأنزلهم على حدود أرضهم بين الحزن والبسيطة.

---

(١) الأزد وكنانة كانوا ٧٠٠ عليهم عرفجة من الأزد – قدرنا الأزد ٤٠٠ وكنانة ٣٠٠. كنانة من ولد عدنان.
(٢) انظر الجدول التالي لولد عدنان.

١٠٠٠ الرباب. حشدهم سعد وهو بزرود وأنزلهم على حدود أرضهم بين الحزن والبسيطة.

٣٠٠٠ أسد. حشدهم سعد وهو بزرود وأنزلهم على حدود أرضهم بين الحزن والبسيطة.

٦٠٠٠ بكربن وائل - منهم بنو شيبان وبنو ذهل وبنو عجل - من جيش المثنى.

٢٠٠٠ سائر ربيعة - منهم عبد قيس - من جيش المثنى.

هذه الـ ٨٠٠٠ كانت ٤٠٠٠ في البويب وازدادت ٤٠٠٠ في الحشد الجديد.

١١٠٠ ضبة من الرباب. عليهم عصمة بن عبدالله، وابن الهوبر، والمنذر ابن حسان. في جيش المثنى.

الرباب (تيم الرباب) عليهم هلال بن عُلَّفَة التيمى. في جيش المثنى.

حنظلة (من تميم) عليهم شبث بن ربعى « « «.

سعد (من تميم) عليهم ابن المثنى الجشمى. « « «.

عمرو (من تميم) عليهم ربعى بن عامر[1]. « « «.

٣٠٠ كنانة. عليهم غالب بن عبدالله الليثى.

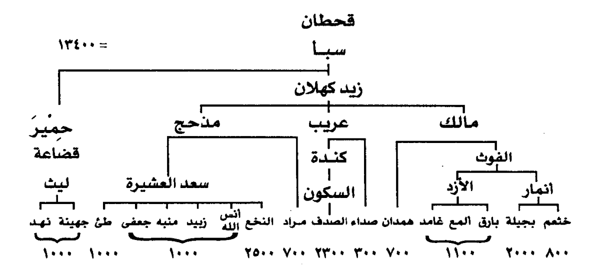
١٩٤٠٠

فجميع من شهد القادسية بضعة وثلاثون ألفاً، وجميع من قسم عليه فيء القادسية نحو من ثلاثين ألفاً[2]. (١٣٤٠٠ + ١٩٤٠٠ = ٣٢٨٠٠). هذا ما أمكننا إحصاؤه وهو في تفاصيله يطابق التفاصيل وفي جملته يطابق المجموع، فإذا جمعنا أبناء كل قبيلة من هؤلاء وجدناهم كالآتي:

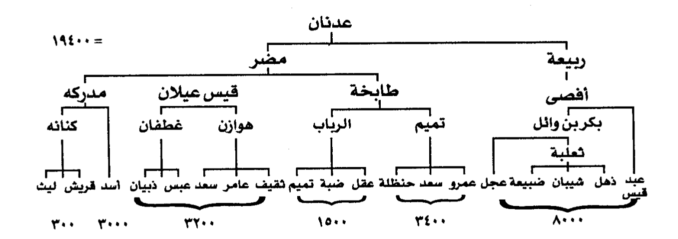
---

(١) ضبة والرباب وحنظلة وسعد وعمرو وخثعم ١٣٠٠ - قدرنا خثعم ٢٠٠، وخثعم من قحطان.

(٢) الطبرى ٣ / ٤٨٧ س ش س عن محمد بإسناده وزياد عن ماهان.



لوحة رقم (١) فروع قحطان



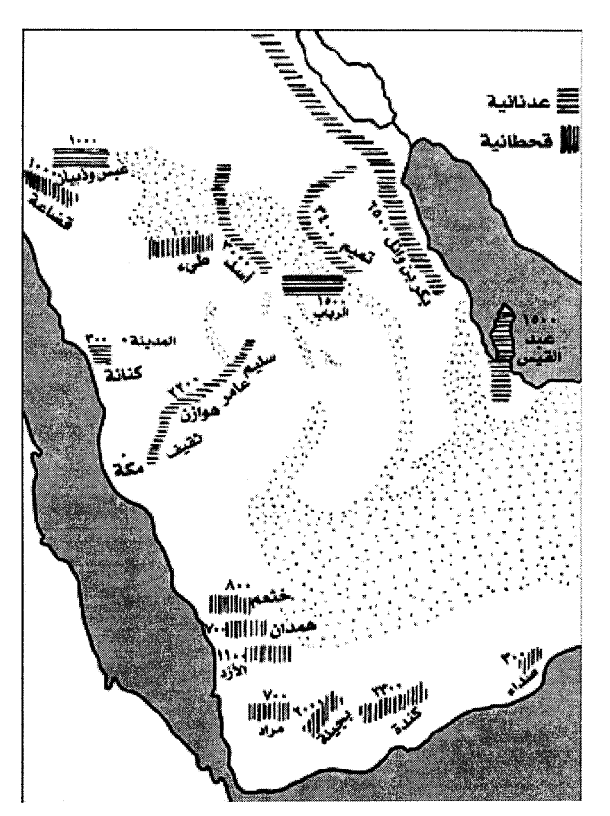
لوحة رقم (٢) فروع عدنان

وبعث سعد إلى المغيرة فانضم إليه بجنده، كما بعث إلى رؤساء القبائل ووجوه الناس فجاؤوه.

فعرّفهم وجعل على كل عشرة عريفاً كما كانت على عهد رسول الله ﷺ ، وكذلك كانت إلى فرض العطاء سنة ١٥هـ.

وعين أمراء الأجناد.

وأمرَ على الرايات رجالاً من أهل السابقة.



خريطة رقم (٢) حشود شبه الجزيرة لجيش القادسية

وعَشَّر الناس أعشاراً وجعل على كل عُشْر أميراً له وسائل فى الإسلام.

فكان كل عُشر يزيد عن الثلاثة آلاف قليلاً أو كثيراً، ومتوسط عدد العشر ٣٢٠٠.

ثم بعد ذلك عبأ التعبئة.

فجعل على المقدمة زُهرة بن عبدالله بن قتادة بن الحوية[١].

وجعل على الميمنة عبدالله بن المعتم صحابى رسول الله ﷺ [٢].

وجعل على الميسرة شرحبيل بن السمط بن شرحبيل الكندى[٣].

وجاء إذن عمر إلى سعد فبعث زهرة بالمقدمة من شراف إلى العذيب.

وجعل رديفه وخليفته خالد بن عرفطة.

وجعل على الساقة (المؤخرة) عاصم بن عمرو التميمى العَمرى.

وجعل على الطلائع سواد بن مالك التميمى (وهى ما يقوم بأعمال الدوريات).

وجعل على المجردة (الخيل) سلمان بن ربيعة الباهلى[٤]

وجعل على الرجل (المشاة) حمال بن مالك الأسدى[٥].

وجعل على الركبان عبدالله بن ذى السهمين الخثعمى. (وهى الإبل يعنى[٦] شئون النقل والحملة - الشئون الإدارية).

فكان السلم القيادى فى الحملة أعلاه الأمير وهو سعد بن أبى وقاص، ثم خليفته خالد بن عرفطة.

---

(١) بن مرثد بن معاوية بن معن بن مالك بن أرثم بن جشم بن الحارث بن الأعرج بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم. وكان ملك هجر قد سود زهرة فى الجاهلية، ووفد على النبى صلى الله عليه وسلم.

(٢) عقد له رسول الله ص يوماً لواء أبيض وهو أحد التسعة الذين قدموا عليه من عبس فتممهم طلحة بن عبيد الله عشرة فكانوا عرافة - الإصابة ٤٩٣٤ - ٤٩٦٧ - الاستيعاب ٢ / ٣٢٣.

(٣) كان غلاماً شاباً قاتل أهل الردة وأبلى بلاء حسناً ووفى فعرف له ذلك، وكان قد غلب الأشعث بن قيس على الشرف فى كندة فيما بين خروجهم من المدينة إلى أن اختطت الكوفة. وكان أبوه ممن اتجه إلى الشام مع جيش أبى عبيدة بن الجراح.

(٤) ذكرنا فى الجزء الأول من كتاب «الطريق إلى المدائن» أن الخيل كانت تكثر فى نجد وتقل الإبل. وسلمان من باهلة من غطفان من قيس عيلان. منازلهم فى نجد وهى مواطن الخيل.

(٥) الإصابة ١٨١٦.

(٦) ذكرنا فى الجزء الأول من كتاب «الطريق إلى المدائن» أن أهل اليمن كانوا أصحاب الإبل وتقل عندهم الخيل، وخثعم من قبائل اليمن. وفى مختار الصحاح: يقال مر بنا راكب إذا كان على بعير خاصة، فإذا كان على فرس فهو فارس. وقال عمارة: راكب الحمار حمار - بتشديد الميم - لا فارس. والركب أصحاب الإبل فى السفر دون الدواب وهم العشرة فيما فوقها، والركبان الجماعة منهم والركاب الإبل التى يسار عليها الواحدة راحلة.

ثم أمراء الأعشار.

ثم أصحاب الرايات.

ثم رءوس القبائل.

ولم يستعن أبو بكر بمن سبقت له ردة. واستنفرهم عمر[١] ولم يولّ منهم أحداً.

وقد بعث عمر إلى سعد بالأطباء.

وجعل على القضاء والأقباض وقسمة الفيء عبدالرحمن بن ربيعة الباهلي ذا النور، وهو الأخ الأكبر لسلمان بن ربيعة قائد المجردة. ويبدو أن جبير بن القشعم الكندي كان يعاونه في ذلك[٢].

وجعل داعيتهم ورائدهم سلمان الفارسي[٣].

وكان الترجمان هلال الهجري.

وكان الكاتب زياد بن أبي سفيان.

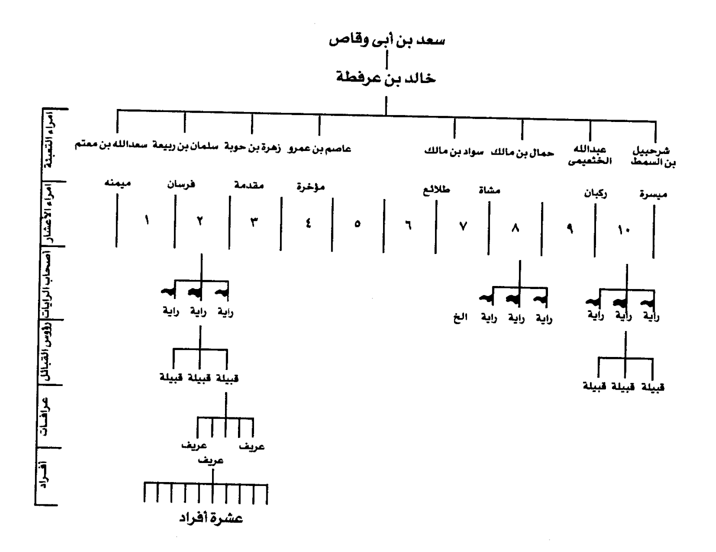
وكان في الحملة كلها بضعة وسبعون ممن شهد بدراً، وثلاثمائة وبضعة عشر ممن كانت له صحبة فيما بين بيعة الرضوان إلى ما فوق ذلك، وثلاثمائة ممن شهد فتح مكة، وسبعمائة من أبناء الصحابة في جميع أحياء العرب. فلم يخرج من شراف إلا على تعبئة ونظام كاملين ولم يخرج منها إلا بأمر عمر.

---

(١) الطبري ٣ / ٤٨٩ س ش س عن عمرو عن الشعبي.

(٢) الإصابة ١٢٧٣. وقال جبير بن القشعم بن يزيد بن الأرقم بن النعمان بن عمرو بن وهب بن ربيعة بن معاوية الأكرمين الكندي: شهد فتوح العراق وتولى القضاء بالقادسية.

(٣) الطبري ٣ / ٤٨٩ س ش س عن مجالد وعمرو بإسنادهما وسعيد بن المرزبان.



اللوحة رقم (٣) - الهيكل التنظيمى لجيش سعد

الباب الثانى

خطة الحملة

وصية المثنى

فرغ سعد من تنظيم جيشه فكتب بذلك إلى عمر . وفيما هو ينتظر جوابه قدم عليه المُعَنّى بن حارثة ومعه سلمى بنت خصفة بوصية المثنى تتضمن عصارة تجاربه فى حرب العراق ، يذكر فيها لسعد رأيه .

«ألا يقاتل عدوه وعدو المسلمين من أهل فارس إذا استجمع أمرهم وملؤهم فى عقر دارهم ، وإنما يقاتلهم على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب وأدنى مَدَرَة (قرية) من أرض العجم .

فإن يظهر الله المسلمين عليهم فلهم ما وراءهم وإن يكن الأخرى رجعوا ، ففاؤوا إلى فئة ثم يكونوا أعلم بسبيلهم وأجرأ على أرضهم إلى أن يرد الله الكرّة لهم على عدوهم» .

وترحم سعد على المثنى ، وأمَّر المعنى على عمله وأوصى بأهل بيته خيراً وخطب سلمى فتزوجها وبنى[1] بها .

أوامر عمر

وكتب عمر إلى سعد كتاباً قدم عليه وهو بشراف بمثل رأى المثنى .

«أما بعد . فسر من شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين وتوكل على الله واستعن به على أمرك كله .

واعلم فيما لديك أنك تقدم على أمة عددهم كثير وعدتهم فاضلة وبأسهم شديد ، وعلى بلد منيع وإن كان سهلاً ، كؤود (شاق) لبحوره وفيوضه ودآدئه ، إلا أن توافقوا غيضاً من فيض (الغيض الماء القليل والفيض الماء الكثير) .

وإذا لقيتم القوم أو أحداً منهم فابدأهم الشد والضرب وإياكم والمناظرة (الانتظار) لجموعهم . ولا يخدَعُنكم فإنهم خَدَعَة مَكَرة ، أمرهم غير أمركم إلا أن تجادّوهم .

---

(١) الطبرى ٣ / ٤٩٠ س ش س عن أبى عمرو عن أبى عثمان النهدى.
الطبرى ٣ / ٥٧٥ عن ابن اسحق.

وإذا انتهيت إلى القادسية والقادسية باب فارس فى الجاهلية وهى أجمع تلك الأبواب لمادتهم ولما يريدونه من تلك الآصل (البلاد الأصلية) وهو منزل رغيب خصيب حصين دونه قناطر وأنهار ممتنعة فتكون مسالحك على أنقابها (النقب الطريق فى الجبل)، ويكون الناس بين الحَجَر والمَدَر، على حافات الحجر وحافات المدر والجِرَاع بينهما (الجرعاء رملة مستوية لا تنبت شيئاً).

ثم الزم مكانك فلا تبرحه فإنهم إذا أحسوك أنغضتهم بجمعهم الذى يأتى على خيلهم ورجلهم وحدهم وجدهم. فإن أنتم صبرتم لعدوكم واحتسبتم لقتاله ونويتم الأمانة رجوت أن تنصروا عليهم ثم لا يجتمع لكم مثلهم أبداً إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم وإن تكن الأخرى كان الحجر فى أدباركم فانصرفتم من أدنى مدرة من أرضهم إلى أدنى حجر من أرضكم، ثم كنتم عليها أجرأ وبها أعلم، وكانوا عنها أجبن وبها أجهل حتى يأتى الله بالفتح عليهم ويرد لكم الكرّة.

فإذا كان يوم كذا وكذا فارتحل بالناس (من شراف) حتى تنزل فيما بين عُذَيْب الهجانات وعذيب القوادس، وشرّق بالناس وغرّب[1] بهم».

ومع هذا الكتاب كتب عمر إلى أبى عبيدة بن الجراح بالشام يأمره بصرف أهل العراق إليه وهم ستة آلاف ومن اشتهى أن يلحق بهم.

وخرج سعد فى حوالى ١٣ صفر ١٥ هـ. ٢٦ مارس (آذار) ٦٣٦م.

خطة القادسية

كانت الخطة الأساسية التى رسمها أبو بكر لحملة خالد بن الوليد أن يطبق على غربى الفرات بفكى كماشة من شماله وجنوبه والقضاء على كافة القوات، ثم يعبر الأنهار إلى المدائن. ويمكن القول أن حملة أبى عبيد كانت امتداداً لتلك الخطة واستمراراً لها. أما حملة سعد فإن الخطة التى رسمها لها عمر تختلف، إذ استفاد من تجارب الحملات السابقة وانتهى إلى مثل رأى المثنى فبنى خطتها على نقطتين أساسيتين:

١- اختيار مكان محدد لتجرى على أرضه المعركة تتوافر فيه شروط معينة:

أ- أن يكون على الحدود الطبيعية بين الصحراء وبين الشبكة المعقدة للمسالك

(١) الطبرى ٣ / ٤٩٠ س ش س عن أبى عمرو عن أبى عثمان النهدى.

والمسطحات المائية تجنباً للتورط فى القتال على أرض الموانع هذه، وهذا درس معركة الجسر.

ب- حفظ خط الرجعة لجيش المسلمين إذا دارت المعركة على غير ما يُرجى، لأنه ليس وراءهم إلا الصحراء، فى حين تكون هذه العوائق المائية نكبة على الفرس إذا دارت المعركة فى غير صالحهم لأنها ستعوق انسحابهم، وهذا درس معركة البويب.

هذه الشروط توافرت فى القادسية.

٢- أن تكون المعركة التى تدور على هذه الأرض - بعد استدراج الفرس إليها - كبيرة وحاسمة تقضى على القوة الأساسية لهم، القوة الأساسية بشقيها المادى والمعنوى، فيكون من أثر ذلك أن ينفتح ما وراءها فلا يعود لهم اجتماع قوة مثلها بعدها، فإن حدث تكون معنوياتها صفراً وقلوبها ليست معها.

البساطة دائماً من عناصر الخطة الناجحة، وما أبسط هذه الخطة.

نزول الحملة القادسية

١٦ صفر ١٥هـ - ٢٩ مارس (آذار) ٦٣٦م

جاسوس بالقادسية

أخرج سعد المقدمة مع زهرة بن الحوية من شراف حتى نزل عذيب الهجانات، ثم ارتحل فى أثره حتى نزل عليهم عذيب الهجانات فى وجه الصبح. يدلنا وصولهم فى أول الصباح على أن سيرهم كان ليلاً وهو ما يفسره لنا تاريخ التحرك إذ أنها كانت ليال مقمرة. فخرج زهرة من عذيب الهجانات إلى عذيب القوادس، وكان من مسالح الفرس لهم به حصن. فلما ظهر للمسلمين استبانوا على بروجه أناساً تظهر وتختفى فى مختلف بروجه وشرفاته، فتوقفت أول خيل المقدمة حتى تلاحق بهم جمع كثيف وهم يرون أن بالحصن خيلاً. ثم أقدموا عليه فخرج رجل يركض نحو القادسية، ودخل المسلمون حصن العذيب فلم يجدوا به أحداً وإذا ذلك الرجل بمفرده هو الذى كان يتراءى لهم على البروج وبين الشرف مكيدة لهم ليخدعهم بأن الحصن مليء بالجند فلما رآهم أقدموا انطلق هارباً ليخبر من وراءه بخبر من رأى من المسلمين. وانطلقوا فى أثره ليدركوه فأعجزهم. وعرف زهرة بذلك فتبعهم ولحقهم ثم سبقهم يتبع الرجل وهو يقول: «إن أفلت الرَّبيءُ أتاهم الخبر».

فأدركه بالخندق (خندق سابور) تجاه القادسية فطعنه فقتله فيه. وقد تعجب المسلمون من شجاعة ذلك الرجل ومهارته وعلمه بالحرب، فلم يروا عين قوم قط أثبت ولا أربط جأشاً منه، ولولا بُعد مقصده ما أدركوه وما أصابه زهرة. ووجد المسلمون بالعذيب رماحاً ونشاباً (سهاماً) وأسفاطاً (السفط وعاء كالقفة) من جلود وغيرها فانتفعوا[1] بها. ونزل زهرة القادسية بين نهر العتيق وخندق سابور أمام قنطرة العتيق وقصر قديس أسفل منها بميل[2].

---

(١) الطبرى ٣ / ٤٩٣ س ش س عن عبدالله بن مسلم العكلى والمقدام بن أبى المقدام عن أبيه عن كرب بن أبى كرب العكلى وكان فى المقدمة أيام القادسية وهو صاحب هذه الرواية.

(٢) الطبرى ٣ / ٤٩٢ عن س ش س عن أبى عمرو عن أبى عثمان النهدى.

وما أن نزل زهرة القادسية حتى بدأ العمل فشكّل سرية وبعثها فى جوف الليل لتشن الغارات، وهذا مثال للمقاتل المسلم النادر الجاهز للتحرك فوراً وفى أى وقت وفى أى اتجاه، فاختار ثلاثين فارساً من المعروفين بالنجدة والبأس، ويبدو أنهم لم يكونوا من قبيل واحد وإنما انتخبهم من جميع قوة المقدمة، كان فيهم الشماخ بن ضرار الشاعر القيسى المخضرم المعروف، وكان أمير السرية بُكَيْر بن عبدالله الليثى. فساروا ليلاً من نفس اليوم الذى نزلوا فيه القادسية، وكانت وجهتهم الحيرة، فعبروا قنطرة العتيق نحو السَّيْلَحَيْن[1] ثم عبروا جسرها وجاوزوها فى اتجاه الحيرة. فما ساروا إلا قليلاً حتى سمعوا جلبة وأزفلة فتوقفوا وأقاموا كميناً بين النخل الذى يملأ المنطقة حتى يتبينوا جلية الأمر.

وظلت الجلبة تقترب على الطريق حتى أقبلت خيول تتقدم تلك الغوغاء فتركوها تمر فنفذت فى الطريق إلى صنين وهى لا تشعر بالكمين الرابض فى النخل إذ كانت تنتظر العين الذى كان بقديس وقتله زهرة، ويبدو أنهم استبطأوا عودته. وأقبل الموكب الصاخب فإذا هو زفة أخت آزاذمرد بن آزاذبه مرزبان الحيرة، كانت تزف فى تلك الليلة إلى صاحب صنين وكان من أشراف العجم. والظاهر أن ذلك الزواج كان مع عيد النيروز (الربيع) عند الفرس.

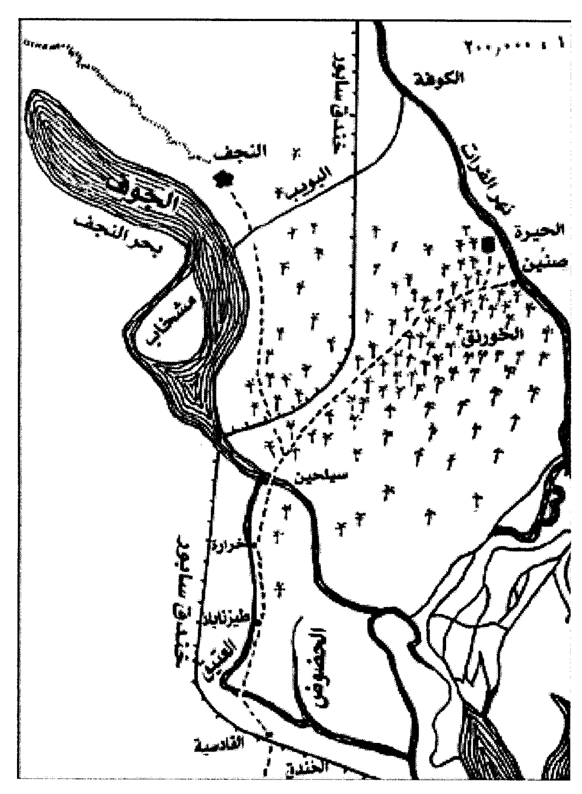
من نشاط آزاذمرد بإيفاده قابوس إلى القادسية، ومن هذا الزواج الذى يتم فى الإقليم نستطيع أن نخلص إلى أن الحكام الفرس قد عادوا بأشخاصهم وخيلهم إلى الحيرة بعد أن انسحب منها المثنى إلى تخوم البادية. والذى يظهر على مسرح الحيرة من الآن فصاعداً هو آزاذمرد وليس أبوه آزاذبه الذى يبدو أنه قضى نحبه. كانت الزفة فى حرس من الخيل يتقدمهم شيرزاذ بن آذاذبه - أخو العروس وأخو آزاذمرد - ليحميها مما هو دون ما لقوا، فلما ذهبت الخيل وجازت الأثقال بالمسلمين، خرج بكير بالمسلمين فهجم على شيرزاذ فقصم صلبه وطارت خيله على وجوهها. واستولى بكير على الأثقال وعلى العروس وثلاثين امرأة من الدهاقين ومائة من التوابع ومعهم ما لا يدرى قيمته، ثم عاد يسوق ذلك كله حتى إذا طلعوا على سعد بعذيب الهجانات كبروا تكبيرة شديدة، فقال لهم سعد:

«أقسم بالله لقد كبرتم تكبيرة قوم عرفت فيهم العزة».

---

(١) قال ابن خردازبه: طسوج السيلحين وفيه الخورنق وطيزناباذ - ص١١.

وقسم سعد تلك الغنيمة فالخمس نفّله وأعطى المجاهدين أربعة أخماس، فوقع منهم موقعاً طيباً[1].



خريطة رقم (٣) صنين

---

(١) الطبرى ٣ / ٤٩٣ س ش س عن عبدالله بن مسلم العكلى، والمقدام بن أبى المقدام عن أبيه عن كرب بن أبى كرب العكلى، وكان فى المقدمة.

انتظار بالقادسية

وأنزل سعد نساء المسلمين بالعذيب ووضع معها خيلاً ترعاها وتحميها، وانضم إليهم حماة كل حريم، وأمر عليهم غالب بن عبدالله الليثى. ثم ارتحل سعد حتى نزل القادسية فنزل بقُدَيْس (حصن القادسية) ونزل زهرة بالمقدمة أمام القنطرة التى على العتيق فهى مفتاح المرور بتلك الجهة وكان يتعين الإمساك به. ثم كتب سعد إلى عمر بخبر سرية بكير وبنزوله قُدَيْساً. وأقام على ذلك شهراً.

وعاد سعد يكتب إلى عمر:

«لم يوجه القوم إلينا أحداً، ولم يسندوا حرباً إلى أحد علمناه. ومتى يبلغنا ذلك نكتب به. واستنصر الله، فإنا بمنحاة دنيا عريضة دونها بأس شديد. قد تقدم إلينا فى الدعاء إليهم فقال ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد».

فيهما فجاهد

ومع اهتمام عمر بحشد كل الطاقات المتاحة وإمداد سعد بها فقد كانت تغلب عليه الاعتبارات الإنسانية حين تكون القضية على ذلك المحك.

كان شيبان بن المخبل التميمى ممن خرج مع سعد، وكان أبوه قد هرم وضعف وكاد يُغلب على عقله فجزع عليه وعمد إلى ما له ليبيعه ويلحق بابنه فلحقه علقمة ابن هودة وقال له أنا أكلم لك عمر فى رد ابنك. وتوجه إلى عمر فأنشده قول المخبل:

أيملكنى شـيـبـان فى كل ليلة	فقلبى من خوف الفراق وجيبُ[1]
ويخبرنى شيبان أن لم يعقّنى	تعُق إذا فارقتنى وتحوبُ
فإن يك غصنى أصبح اليوم بالياً	وغصنك من ماء الشباب رطيبُ
إذا قال صحبى يا ربيع ألا ترى	أرى الشخص كالشخصين وهو قريب

فبكى عمر ورق له وكتب إلى سعد أن يعيد شيبان فانصرف إلى أبيه فكان معه حتى مات[2].

---

(١) وجيب: يدق ويخفق.

(٢) الإصابة ٢٧٢٦ - ٣٩٩١ ونسبه شيبان بن المخبل (وهو الربيع) بن ربيعة بن ثمال بن أنف الناقة بن قريع بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم.

وكان كلاب بن أمية بن الأسكر من بنى ليث من كنانة يسكن الطائف فهاجر إلى المدينة في خلافة عمر وأقام بها زمناً ثم لقى طلحة والزبير فسألهما : «أى الأعمال أفضل ؟» قالا : الجهاد في سبيل الله . فسأل عمر فأغزاه مع سعد بن أبى وقاص وخرج معه أخوه أُبى . وكان أبوهما شريفاً في قومه وقد كبر وضعف[1] فقال :

أعـاذلُ قـد عـذلت بغـيـر علم ... ومـا يدريكِ ويحكِ مـا ألاقى

فـإمـا كنت عـاذلتى فـردى ... كـلاباً إذ توجـه للعـراق

سـأسـتـعـدى على الفـاروق رباً ... له رفع الحـجـيج إلى بسـاق

إن الفـاروق لم يـردد كـلاباً ... إلى شـيـخين هامـهـمـا زواقى

ولما طالت غيبة كلاب عاد أبوه يقول :

لمن شـيـخـان قـد نشـدا كـلاباً ... كـتـاب الله لو قَلّ الكتـابا

أتاه مـهـاجـران فـرنَّخَـاه ... عـباد الله قـد عـقَّـا وخـابا

أناديه فـيـعـرض فى إباء ... فـلا وأبى كـلاب مـا أصـابا

تركتَ أباك مـرعـشـة يداه ... وأمك مـا تسـيغ لهـا شـرابا

إذا نَعَبَ الحـمـام ببطن وَجٍّ ... على بيـضـاته ذكـراً كـلاباً

أبراًّ بعـد ضـيـعـة والديـه ... فـلا وأبى كـلاب مـا أصـابا

وإنك والتـمـاس الأجـر بعـدى ... كـبـاغى الماء يتـبع السـرابا

وكان عمر إذا قدم عليه قادم سأله عن الناس، فقدم قادم فسأله : «من أين ؟» قال : «من الطائف» .

قال : «فمه ؟»

فذكر له أبيات أمية .

قال عمر : «ومن كلاب ؟»

قال : «ابن الشيخ كان غازياً» .

(١) الإصابة ٢٥-٢٥٣ - ٧٤٤٠ ، ونسبه كلاب بن أمية بن حرثان بن الأسكر بن عبدالله بن زهرة بن زبينة بن جندع بن ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة .

قال عمر : «أجل . وأبى كلاب ما أصابا» .

وكتب إلى سعد يأمره بإرجاع كلاب . فلما قدم أرسل عمر إلى أمية .

فقال : «أى شيء أحب إليك ؟»

قال : «النظر إلى ابنى كلاب» .

فأعاده إليه فلما رآه اعتنقه وبكى بكاء شديداً فتأثر عمر وبكى وقال :

«يا كلاب الزم أباك وأمك ما بقيا» .

كان عمر فى هذا على طريق رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل ليغزو معه فلما عرف أن له أبوين شيخين كبيرين قال له : «فيهما فجاهد» .

غارات تموينية

كان جيش سعد أكبر من أى جيش سبق لفتح العراق ، فكانت المسألة التموينية بشأنه تحتاج إلى مزيد من التدبير أكثر مما كان بالنسبة للجيوش السابقة التى قادها خالد وأبو عبيد والمثنى . ولقد كان إيغال تلك الجيوش بسرعة إلى داخل سواد العراق يتيح لها الحصول على ما تحتاج إليه فى معاشها وأكثر ، أما هذا الجيش فهو على ضخامته يقف على تخوم الصحراء . ولذلك اتجهت الخطة التموينية إلى أن تساهم المدينة فى الأمر فيمدهم عمر بما يلزمهم اعتماداً على سهم «سبيل الله» من الزكاة التى تؤديها قبائل شبه الجزيرة وهى المنصوص عليها فى الآية ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(١) . هذا بالإضافة(٢) إلى ما يصيب المسلمون من غاراتهم على نواحى العراق ، تلك الغارات التى كان عليها أن تزداد عدداً وأن تذهب إلى مدى أبعد .

فبالنسبة إلى الحنطة والشعير والتمر والحبوب كانوا قد اكتسبوا منها ما اكتفوا به لو أقاموا(٣)

---

(١) التوبة : ٦٠ .

(٢) الطبرى ٣ / ٥١٠ س ش س عن محمد وأصحابه وشاركهم النضر عن ابن الرفيل عن أبيه . فتوح البلدان ٦٣٤ .

(٣) الطبرى ٣ / ٤٩٥ س ش س عن عبدالله بن مسلم العكلى والمقدام بن أبى المقدام عن أبيه عن كرب بن أبى كرب العكلى ، وكان فى مقدمات القادسية .

زماناً. أما اللحوم فهى التى كانوا يقرمون (يتوقون) إليها، فإن اثنين وثلاثين ألفاً من الجند يلزمهم ثلاثمائة وعشرون جملاً فى اليوم على أساس البعير لمائة (كما تقدم فى الجزء الأول من الطريق إلى المدائن)، أو نحو تسعة آلاف وستمائة من الإبل فى الشهر لطعامهم خلاف مايلزم نساءهم بالعذيب بما قد يبلغ نحو ذلك أو يزيد. روى أن المغيرة بن شعبة قدم القادسية على سعد بسبعين من الإبل الجيدة التى يحمل عليها ويركب، وعند سعد ضيق شديد من الحال فنحروها وأكلوا لحومها وادهنوا بشحومها واحتذوا[1] جلودها (اتخذوها أحذية). فكان سعد يبعث السرايا للحصول على اللحوم وكانوا يسمون أيامها بها.

يوم الأباقر

بعث سعد فى إقامته تلك عاصم بن عمرو فى سرية فيها نذير بن عمرو والوليد ابن عبد شمس وزاهر فساير الفرات إلى جنوبه حتى أتى ميسان (منطقة العمارة بين البصرة وواسط)، فطلب غنماً أو بقراً فلم يقدر على شيء منها وهرب بها الفلاحون فى الزرع ووغلوا فى آجام القصب، وأوغل عاصم وراءهم حتى أصاب رجلاً على طف أجمة[2] فسأله واستدله على البقر والغنم فحلف الرجل أنه لا يعلم وإذا ذلك الرجل راعى ما فى تلك الأجمة، وخار ثور من داخلها يكذب الراعى فدخل عمرو فاستاق الثيران وكانت كثيرة فأتى بها عسكر المسلمين فقسمها سعد على الناس فأخصبوا بها أياماً.

يذكر الرواة أن ذلك بلغ الحجاج بن يوسف الثقفى فى زمانه فأرسل إلى النفر الذى ذكرنا ممن شهدها فسألهم:

فقالوا: «نعم نحن سمعنا ذلك ورأيناه واستقناها».

فقال: «كذبتم».

قالوا: «كذلك إن كنت شهدتها وغبنا عنها».

فقال: «صدقتم! فما كان الناس يقولون فى ذلك؟»

قالوا: «آية تبشير يستدل بها على رضاء الله وفتح عدونا».

---

(١) البخلاء ٢ / ١٩١.

(٢) جانب شجر كثيف مكتث.

فقال: «والله ما يكون هذا إلا والجمع أبرار أتقياء».

قالوا: «والله ما ندرى ما أَجَنَّت (أخفت) قلوبهم، فأما ما رأينا فإنا لم نمر قوماً قط أزهد في دنيا منهم ولا أشد لها بغضاً، ما اعتد على رجل منهم في ذلك اليوم بواحدة من ثلاث، لا بجبن ولا بغدر[1] ولا بغلول».

عرف هذا اليوم بيوم الأباقر وبث الغارات بين كسكر والأنبار، فحووا من الأطعمة ما كانوا يستكفون به زماناً. كانت كسكر بجنوب العراق من وراء الفرات وكانت الأنبار بشمالها فكأن الغارات انبعثت من القادسية إلى كافة أنحاء العراق في حركة مفاجئة للحصول على الميرة والطعام. وكان هدفها اللحوم بصفة خاصة.

(١) الطبري ٣ / ٤٩٣ س ش س عن عبدالله بن مسلم العكلي، والمقدام بن أبي المقدام عن أبيه عن كرب بن أبي كرب العكلي. والفلول: الاختلاس من الغنيمة.

رستم فى مواجهة سعد

أقام سعد بالقادسية زمناً ينتظر المجوس أن يوجهوا إليه قواتهم وهم لا يفعلون. واستبطأهم فبعث عيوناً إلى أهل الحيرة وإلى صلوبا بن نسطونا دهقان قس الناطف من وراء الفرات. فرجعت إليه العيون بأن يزدجرد قد ولى رستم بن الفَرُّخْزاذ الأرمنى حرب المسلمين، وأنه أمره أن يعسكر بجنوده.

مراسلات

وجاء إلى سعد كتاب من عمر:

«أما بعد، فتعاهد قلبك وحادث جندك بالموعظة والنية والحسبة. ومن غفل فليحدثهما.

والصبر الصبر، فإن المعونة تأتى من الله على قدر النية، والأجر على قدر الحسبة.

والحذر الحذر على ما أنت عليه وما أنت بسبيله. واسألوا الله العافية وأكثروا من قول لا حول ولا قوة إلا بالله.

واكتب إلىّ أين بلغك جمعهم ومن رأسهم الذى يلى مصادمتكم، فإنه قد منعنى من بعض ما أردت الكتابة به قلة علمى بما هجمتم عليه والذى استقر عليه أمر عدوكم.

فصف لنا منازل المسلمين والبلد الذى بينكم وبين المدائن صفة كأنى أنظر إليها، واجعلنى من أمركم على الجلية.

وخَف الله وارْجُه ولا تُدل (تغتر) بشىء واعلم أن الله قد وعدكم وتوكل لهذا الأمر بما لا خُلف له، فاحذر أن تصرفه عنك ويستبدل بكم[1] غيركم».

فكتب إليه سعد بصفة البلد وصفاً طبوغرافياً مفصلاً:

«إن القادسية بين الخندق والعتيق.

---

(١) الطبرى ٣ / ٤٩١ س ش س عن أبى عمرو عن أبى عثمان النهدى.

وإن ما عن يسار القادسية بحر أخضر (مستنقع) في جوف (منخفض) لاحٌ (متجه) إلى الحيرة بين طريقين. فأما أحدهما فعلى الظهر وأما الآخر فعلى شاطئ نهر يدعى الحضوض يطلع بمن سلكه على ما بين الخورنق والحيرة.

وإن ما عن يمين القادسية إلى الولجة فيض من فيوض مياههم (هى البطيحة العظمى).

وإن جميع من صالح المسلمين من أهل السواد قِبَلى إِلْبٌ[1] لأهل فارس، قد خفوا لهم واستعدوا لنا.

وإن الذى أعدوا لمصادمتنا رستم فى أمثال له منهم، فهم يحاولون إنغاضنا وإقحامنا ونحن نحاول إنغاضهم وإبرازهم وأمر الله بعد ماض وقضاؤه مسلم إلى ما قدر لنا وعلينا.

فنسأل الله خير القضاء وخير القدر فى عافية».

فكتب عمر:

«قد جاءنى كتابك وفهمته.

فأقم بمكانك حتى ينغض الله لك عدوك. واعلم أن لها ما بعدها.

فإن منحك الله أدبارهم فلا تنزع عنهم حتى تقتحم عليهم المدائن فإنه خرابها إن شاء الله».

وجعل عمر ومن معه يدعون لسعد ومن معه.

وعاد عمر يكتب إلى سعد:

«إنى قد ألقى فى روعى أنكم إذا لقيتم العدو هزمتموهم، فاطرحوا الشك وآثروا التقيَّة عليه (إظهار غير ما تبطن، أى لا تظهر نواياك).

فإن لاعب أحد منكم أحداً من العجم بأمان أو قَرَفَه (خلط عليه) بإشارة أو بلسان كان لا يدرى الأعجمى ما كلمه به وكان عندهم أماناً فأجروا ذلك له مجرى الأمان، وإياكم والضحك.

والوفاء الوفاء. فإن الخطأ بالوفاء بقية، وإن الخطأ بالغدر الهلكة وفيها وهنكم وقوة عدوكم وذهاب ريحكم وإقبال ريحهم.

---

(١) الإلب: الجماعة تجمعهم عداوة الواحد، يقال ألبهم بتشديد اللام عليه أى جمعهم على عداوته.

واعلموا أنى أحذركم أن تكونوا شيناً على المسلمين وسبباً لتوهينهم[١].

ولا يكربنك ما يأتيك عنهم ولا ما يأتونك به. واستعن بالله وتوكل عليه.

وابعث إليه رجالاً من أهل المنظرة والرأى والجلد يدعونه (إلى الإسلام) فإن الله جاعل دعاءهم (دعوتك لهم) توهيناً لهم وفلجاً (ظفراً) عليهم. واكتب إلىّ فى كل يوم[٢]».

رستم إذن هو الذى كتب عليه أن يقود جيش فارس ليخوض المعركة الكبرى فى مواجهة سعد بن أبى وقاص. فكيف وقع اختيار فارس على قائدها الأول؟ ومن هو هذا القائد؟

من رستم

قال البلاذرى، رستم من أهل الرّىْ ويقال بل من أهل همذان[٣]. وفى أخبار عيون سعد التى أوردناها سابقاً قالوا إنه أرمنى. ولقد مرّ بنا ذكر رستم قبل ذلك حين أراد أبوه الوصول إلى مُلك فارس بالزواج من آزرميدخت فتحايلت حتى قتلته، وعمت فارس فوضى أرادت بوران أن تحسمها فكتبت إلى رستم وكان أميراً على خراسان فاستحثته للسير فزحف إلى المدائن لا يلقى جيشاً لآزرميدخت إلا هزمه، ثم حاصر المدائن واقتحمها وفقأ عينى آزرميدخت ثم قتلها.

وولته بوران أمر فارس عشر سنوات يعود الملك بعدها إلى ال ساسان وتوجته وأمرت أهل فارس أن يسمعوا له ويطيعوا.

ورستم هو الذى وضع خطة الهجوم المضادة وبدأه مع رجوع المثنى من المدينة فحرض دهاقين السواد على الثورة بالمسلمين ودس فى كل رستاق رجلاً لذلك وبعث ثلاثة جيوش هزمها أبو عبيد فوجه بهمن جاذويه ومنحه كل الإمكانيات الممكنة فكسب المجوس أول وآخر معركة لهم من المسلمين. وكانت فارس قد دانت لرستم قبل وفود أبى عبيد. ولكن مع انتصارهم يوم الجسر نقض أهل فارس العهد الذى عقدته لرستم.

ثم أوقع المثنى بالمجوس فى البويب وشن غاراته على أنحاء العراق فطلب رستم وفيرزان من

---

(١) الطبرى ٣ / ٤٩٢ س ش س عن القعقاع بإسناده.

(٢) الطبرى ٣ / ٤٩٥ س ش س عن عبدالله بن مسلم العكلى، والمقدام بن أبى المقدام عن أبيه عن كرب بن أبى كرب العكلى.

(٣) فتوح البلدان ٦٣٤.

بوران أن تدلهما على نساء ال كسرى وبحثاحتى وجدا يزدجرد مختبئاً عند أخواله فنصباه ملكاً وعاد رستم يوجه الجيوش ضد المسلمين.

حتى تجيء المعركة

وكان سعد مقيماً بالمسلمين فى القادسية يبعث السرايا تشن الغارات هنا وهناك تستهدف هدفين:

الأول: هو الإعاشة والتموين لجيش المسلمين فى الميدان.

والثاني: هو شن حرب استنزاف Drain War على الفرس.

ومادام الفرس يطاولون ولم يخرجوا إلى القادسية فليجبرهم سعد على ذلك. ولا شك أن وقوف المسلمين بالقادسية وعدم تجاوزها إلى ما بعدها من ريف العراق قد استوقف نظر الفرس[1] لا سيما وليس هذا دأب المسلمين فيما سبق من معارك وحملات، غير أنه يبدو أنهم لم يفطنوا إلى خطة المسلمين فى المعركة المرتقبة وإلا لعملوا على تلافيها. ولا شك أيضاً أن الغارات التى كان يشنها سعد كانت تشكل ضغطا شديداً على ماديات المجوس ومعنوياتهم. فقد ضج أهل السواد إلى يزدجرد بن شهريار وجأروا إليه بالشكوى وأرسلوا إليه[2].

«إن العرب قد نزلوا القادسية بأمر ليس يشبه إلا الحرب. وإن فعل العرب منذ نزلوا القادسية لا يبقى عليه شيء، وقد أحربوا ما بينهم وبين الفرات. وليس فيما هنالك أنيس إلا فى الحصون. وقد ذهبت الدواب وكل شيء لم تحتمله الحصون من الأطعمة ولم يبق إلا أن يستنزلونا. فإن أبطأ عنا الغياث أعطيناهم بأيدينا».

آتت حرب الاستنزاف ثمرتها، وأثر ضغطها المادى والنفسى على المواطنين فكثرت استغاثة أهل السواد إلى يزدجرد على يدى آزاذمرد بن آزاذبه. كما كتب إليه بذلك الملوك الذين لهم ضياع بالطف فأثاروه وهيجوه على أن يتخذ إجراء يراه حاسماً فبدا له أن يرسل رستم.

---

(١) الطبرى ٣ / ٥١٠ عن س ش س عن محمد وأصحابه.
وعن النضر عن ابن الرفيل عن الرفيل (وكان فارسياً).

(٢) الطبرى ٣ / ٥٠٧ س ش س عن محمد وطلحة وعمر بإسنادهم.

دبشليم الملك وبيدبا الفيلسوف

وأرسل يزدجرد إلى رستم فدخل عليه.

قال يزدجرد: «إني أريد أن أوجهك في هذا الوجه وإنما يعد للأمور على قدرها، وأنت رجل أهل فارس اليوم وقد ترى ما جاء أهل فارس من أمر لم يأتهم مثله منذ ولي آل أردشير».

ولم يكن رستم يرحب بهذه المهمة الثقيلة على نفسه غير أنه رأى من السياسة أن يتظاهر بالقبول وأثنى على الملك على أمل أن يجد من هذا الأمر مخرجاً.

قال يزدجرد: «قد أحب أن أنظر فيما لديك لأعرف ما عندك، فصف لي العرب وفعلهم منذ دخلوا القادسية، وصف لي العجم وما يلقون منهم».

قال رستم: «صفة ذئاب صادفت غِرَّة من رعاء فأفسدت».

قال يزدجرد: «ليس كذلك، إني إنما سألتك رجاء أن تعرب صفتهم فأقويك لتعمل على قدر ذلك فلم تُصِبْ فافهم عني.

إنما مثلهم ومثل أهل فارس كمثل عُقاب أوفَى على جبل يأوي إليه الطير بالليل فتبيت في سفحه في أوكارها فلما أصبحت تجلت الطير فأبصرته يرقبها، فإن شذ منها شيء اختطفه. فلما أبصرته الطير لم تنهض من مخافته، وجعلت كلما شذ منها طائر اختطفه، فلو نهضت نهضة واحدة ردته وأشد شيء يكون في ذلك أن تنجو كلها إلا واحداً، وإن اختلفت لم تنهض فرقة إلا هلكت، فهذا مثلهم ومثل الأعاجم. فاعمل على قدر ذلك».

حوار أشبه بما نقرأ في كليلة ودمنة، غير أنه يرسم استراتيجية عامة وهي أن تحشد فارس كل طاقاتها لمعركة فاصلة واحدة، ذلك كان اتجاه يزدجرد وتلك كانت خطة عمر أيضاً. ويبدو أن رستم قد بلغ به الملل مبلغه فقال: «أيها الملك دعني، فإن العرب لا تزال تهاجم العجم ما لم تضربهم بي. ولعل الدولة أن تثبت بي فيكون الله قد كفى ونكون قد أصبنا المكيدة ورأى الحرب، فإن الرأي فيها والمكيدة أنفع من بعض الظفر».

فأبى يزدجرد وقال: «أى شىء بقى؟»

كان كأنما يرمى آخر سهم فى جعبته.

قال رستم: «إن الأناة فى الحرب خير من العجلة، وللأناة اليوم موضع. وقتال جيش بعد جيش أمثل من هزيمة بمرة وأشد على عدونا».

ورنت استغاثات أهل السواد فى أذنى الملك فاشتد حرصه ولجّ وأبى أن يعفى رستم، وكان ضيقاً لجوجاً فترك الرأى وأصر على رأيه.

نرى أن رأى رستم كان أقرب إلى الصواب، غير أنه لا محل للموازنة بينه وبين رأى الملك إذ لم يكن رستم يقوله مخلصاً فى قوله وإنما كان ينتحل المعاذير ليتملص من هذه القيادة. ولم يكن الملك مقتنعاً بذلك. هذا وذاك فقط هما بُعدا المسألة حين ناقشها الرجلان.

خرج رستم من المدائن فضرب عسكره بساباط، وصارت رسل رستم تتردد بينه وبين الملك ليرى موضعاً لإعفائه وبعث غيره. ولكن الملك أبى واستحث رستم على المضى، فأعاد عليه رستم القول فى مرارة ظاهرة: «أيها الملك، لقد اضطرنى تضييع الرأى إلى إعظام نفسى وتزكيتها. ولو أجد من ذلك بداً لم أتكلم فيه فأنشدك الله فى نفسك وأهلك وملكك، دعنى أقم بعسكرى وأسرّح جالنوس، فإن تك لنا فذلك وإلا فأنا على رجل وأبعث غيره حتى إذا لم نجد بداً ولا حيلة صبرنا لهم وقد وهنَّاهم وحسرناهم ونحن جامُّون».

فأبى إلا أن يسير[1].

دولة تتبع التنجيم

رجعت عيون سعد التى أرسلها إلى الحيرة وإلى ابن صلوبا بهذه الأخبار، فكتب بها إلى عمر الكتاب الذى أثبتناه سابقاً.

وقد جرأ يزدجرد[2] على إصراره على رأيه غلام جابان وكان منجماً لكسرى من أهل فرات بادقلى، فأرسل إليه يزدجرد فأتاه.

قال له الملك: «ما ترى فى مسير رستم وحرب العرب اليوم؟»

---

(١) الطبرى ٣ / ٥٠٧ س ش س عن محمد وطلحة وعمرو بإسنادهم.

(٢) الطبرى ٣ / ٥٠٦ س ش س عن النضر بن السرى عن ابن الرفيل عن أبيه.

فخافه على الصدق فكذب عليه. وكان رستم يرى ما يراه المنجم وكتمه فثقل عليه مسيره وخف على الملك.

قال الملك للمنجم: «إنى أحب أن تخبرنى بشىء آراه أطمئن به إلى قولك».

وكان هناك منجم هندى يدعى زرنا، فقال له الغلام: «أخبره».

فقال زرنا: «سَلْنى»، فسأله.

قال: «أيها الملك يقبل طائر فيقع على إيوانك فيقع منه شىء فى فيه ها هنا» وخط دائرة على الأرض.

فقال العبد: «صدق، والطائر غراب والذى فى فيه درهم!»

وطلب الملك جابان فأقبل حتى دخل عليه فسأله عما قال غلامه، فحسب جابان نجومه ثم قال: «صدق ولم يصب، هو عقعق، والذى فى فيه درهم فيقع منه على هذا المكان - وكذَب زرنا - ينزو الدرهم فيستقر ها هنا». ورسم دائرة أخرى.

فما قاموا من مجلسهم حتى وقع على الشرفات عقعق فسقط منه الدرهم فى الخط الأول وتدحرج فاستقر فى الخط الثانى. وعارض زرنا الهندىُّ جابان وناظره حيث خطأه، فأتيا ببقرة نتوج حامل، فقال الهندى: «سخلتها[1] بيضاء سوداء».

فقال جابان «كذبت بل سوداء صبغاء».

فنحرت البقرة واستخرجوا جنينها فوجدوه مشوهاً ذيله بين عينيه.

كان هذا كافياً لإثبات كذب المنجمين، فلم يذكر أحد منهم شيئاً عن هذا وهو أظهر ما فى الجنين بلا ريب. ومع ذلك قال جابان:

«من ههنا أتى زرنا».

وشجع ا الملك على إخراج رستم فأمضاه.

وخرج جابان من عند الملك فكتب إلى جشنسماه:

إن أهل فارس قد زال أمرهم وأديل عدوهم عليهم، وذهب ملك المجوسية وأقبل مُلك العرب وأديل دينهم.

(١) السخلة هى الجنين.

فاعتقد منهم الذمة ولا تخلبنك الأمور، والعجل العجل قبل أن تؤخذ».

وخرج جشنسماه حتى أتى المعنى بن حارثة الشيبانى وهو فى خيل على العتيق فأخبره بما جاء فيه. فأرسله المعنى إلى سعد فاعتقد منه الذمة على نفسه وأهل بيته ومن استجاب له (أخذ عهداً) ورده سعد فكان صاحب أخبارهم ومصدراً هاماً من مصادرها. ولكى لا ننسى جشنسماه هذا نذكر أنه هو الذى كان يقود ميمنة جابان فى النمارق فى مواجهة عمرو بن الهيثم الذى كان على ميسرة أبى عبيد الثقفى يومها. وأهدى جشنسماه فالوذج إلى المعنى.

قال المعنى لامرأته ما هذا؟

قالت: «أظن البائسة امرأته أراغت العصيدة فأخطأتها».

قال المعنى: «بؤسا لها!

قائد بالإكراه

كان رستم إذن قائد الميدان لجيش العجم مجنداً مكرهاً شأن كل المجندين فيه من الجند - بينما لم يكن فى جيش المسلمين مكره واحد. وكان التنجيم والتشاؤم والخوف قد ملكت عليه قلبه وهو رجل فارس فى السياسة والحرب. ولئن كانت الدول تجند جنودها تجنيداً إجبارياً فى جميع أنحاء العالم فى مختلف العصور ولا غضاضة، ، فإننا نرى أنه من أفحش الخطأ أن يجند القائد العام على كره منه واعتراض. ومن المسلم به فى العرف الحربى اليوم أن من حق القائد أن يتنحى عن منصبه إذا لم يكن مقتنعاً بالمعركة أو بخطتها أو بأسلوب حكومته معه، وأنه لا يجوز حينئذ إكراهه والضغط عليه لإرغامه على قبول ما لا يقبل.

الباب الثالث

دعوة إلى الإسلام

وفد إلى يزدجرد

وإنفاذاً لأمر عمر جمع سعد نفراً عليهم نِجَار[1] ولهم آراء واجتهاد وهم:

النعمان بن مقرّن المزنى

بسر بن أبى رهم الجهنى

حَمَلَة بن جُوَيَّة الكنانى

حنظلة بن الربيع التميمى

فرات بن حيان العجلى

عدى بن سهيل[2]

المغيرة بن زرارة بن النباش بن حبيب الأسيدى.

ونفراً عليهم مهابة ولهم منظر لأجسامهم ولهم آراء وهم:

عُطارد بن حاجب التميمى

الأشعث بن قيس الكندى

الحارث بن حسان الذهلى

عاصم بن عمرو التميمى

عمرو بن معدى كرب الزبيدى

المغيرة بن شعبة الثقفى

المعنى بن حارثة[3] الشيبانى.

فكان هؤلاء الأربعة عشر هم وفد سعد ودعاته إلى يزدجرد الثالث آخر ملوك بنى ساسان، خرجوا إليه احتجاجاً إلى الله ودعاة له.

---

(١) نجار: أصل وحسب ولون - المنجد.

(٢) لم نعثر على أى ذكر آخر أو ترجمة لعدى بن سهيل، وربما يكون وقع خطأ من الراوى وصوابه سهيل بن عدى الخزرجى من الأنصار، شهد بدراً وأحداً والمشاهد بعدهما. له ذكر فى فتح الجزيرة وفتوح فارس وكرمان.

(٣) الطبرى ٣ / ٤٩٦ س ش س عن عمرو والمجالد بإسنادهما وسعيد بن المرزبان.

من هؤلاء الوفد[1]

أولهم وأميرهم النعمان بن مقرّن من بنى مزينة، صحابى رسول الله ﷺ. أسلم وهاجر إلى النبى فى سبعة إخوة له. روى عنه أنه قال: «قدمنا على رسول الله ﷺ فى أربعمائة من مزينة». وأول مشاهده الخندق. ثم كان صاحب لواء مزينة يوم فتح مكة وكانوا ألفاً. ولما وقعت الردة وقف فى المدينة إلى جوار أبى بكر يدفع عن الإسلام والمسلمين محنتهم، فكان على ميمنة أبى بكر فى قتاله مرتدى عبس وذبيان، وكان أخوه عبدالله على الميسرة وأخوهما سويد بن مقرن على المؤخرة، ساروا من المدينة إلى ذى قصة فدهموا المرتدين وكان ذلك أول فتوح الردة. ورجع أبو بكر إلى المدينة وقد خلف النعمان بذى قصة فى عدد من الرجال. ثم وجدنا النعمان بعد ذلك فى جيش خالد لفتح العراق واحداً من عشرة إخوة جاء ذكرهم فى حصار حصن بنى مازن من حصون الحيرة. وللنعمان بعد ذلك تاريخ ناصع وجهاد مشرف حتى استشهد بنهاوند وهو يقود معركتها. قال عبدالله بن مسعود: «إن للإيمان بيوتاً وللنفاق بيوتاً، وإن بيت بنى مقرن من بيوت الإيمان». والنعمان وإخوته هم الذين نزل فيهم قوله تعالى من سورة التوبة ﴿وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وبسر بن أبى رهم صاحب خالداً فى حروب الردة وشهد معه اليمامة وفتح العراق وهو أحد الفرسان المذكورين، وقد وكل إليه خالد بن الوليد أمر الكمين فى موقعة الولجة. ثم كان ذا بلاء مشهود فى القادسية.

وحنظلة بن الربيع التميمى المعروف بحنظلة الكاتب لأنه كتب للنبى ﷺ كتاباً وكانت الكتابة فى العرب قليلة. كان حنظلة فى جيش خالد لفتح العراق ومن شهود معاهدة الصلح مع أهل ما بين النهرين، ومن شهود جباية الجزية. استقر خالد بالحيرة فعلم أن جابان ظهر فى تستر فى جمع عظيم فوجه إليه المثنى بن حارثة وحنظلة بن الربيع فلما اقتربا منه انسحب إلى داخل إيران. وكان حنظلة ممن استأثر بهم خالد فى خروجه من العراق إلى الشام، غير أن

---

(١) الطبرى - فتوح البلدان - الإصابة فى تمييز الصحابة - الاستيعاب فى معرفة الأصحاب - بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب. وجاء فى الإصابة (٢٠٠١) أن حملة بن أبى معاوية الكنانى كان أحد الخمسة الذين بعثهم سعد يدعون يزدجرد إلى الإسلام، ولم نجد ذلك فى الطبرى. وللمزيد من المعلومات عن رجال الوفد راجع كتاب «الطريق إلى المدائن» فصل «ترجمة مشاهير قادة الفتح».

حنظلة وجرير بن عبدالله البجلى ونفراً استأذنوا من خالد وهم فى سوى ورجعوا إلى المدينة.

وفرات بن حيان العجلى خبير طرق الجزيرة العربية والعراق، كان دليلاً لتجارة قريش مع صفوان بن أمية فى العام الثالث الهجرى، فاعترضته سرية زيد بن حارثة وأسرت فراتاً وعادت به إلى المدينة فأسلم. ثم نجده فى العام الثامن من الهجرة دليلاً لسرية زيد بن حارثة لاعتراض تجارة قريش على طريق العراق بالعيص على أربع ليال من المدينة. وكان فرات فى جيش خالد لفتح العراق وكان ممن اختارهم للخروج معه إلى الشام، فلما أبى المثنى إلا إنفاذ أمر أبى بكر تركه له فيمن ترك. وقد شهد البويب وكان مع المثنى فى غارات الأسواق بشمال العراق وأغرق هو وعتيبة بن النهاس أناساً من بنى تغلب والنمر فاستدعاهما عمر لمساءلتهما ثم أعادهما مع سعد إلى العراق.

أما عطارد بن حاجب من وجوه بنى تميم وسادتهم فقد كان الوحيد فى هذا الوفد الذى دخل إيوان كسرى من قبل إذ كان يفد على ملوك فارس فى الجاهلية. وفى الحديث الصحيح عن نافع عن ابن عمر قال: رأى عمر بن الخطاب عطارداً التميمى يبيع فى السوق حلة سيراء وكان رجلاً يغشى الملوك ويصيب منهم، فقال عمر: يا رسول الله لو اشتريتها فلبستها لوفود العرب! فقال ﷺ: «إنما يلبس الحرير فى الدنيا من لا خلاق له فى الآخرة[1]». وفى رواية أخرى[2] عن عطارد بن حاجب أنه أهدى النبى ﷺ ثوب ديباج كساه إياه كسرى، فدخل أصحابه فقالوا: «نزل عليك من السماء؟!» فقال: «وما تعجبون من ذا؟ لمناديل سعد بن معاذ فى الجنة خير من هذا».

والأشعث بن قيس الكندى، كان فى الجاهلية رئيساً مطاعاً فى كندة وفى الإسلام وجيهاً. كان اسمه معدى كرب وكان أبداً أشعث الرأس فسمى الأشعث. قدم على النبى ﷺ سنة عشر فى وفد كندة ستين أو سبعين راكباً وكان رئيسهم فأسلموا. ثم ارتد بعد النبى وأسره المسلمون فى حروب الردة وأرسلوه إلى أبى بكر فأسلم فأطلق سراحه، فقال لأبى بكر: «استبقنى لحربك وزوجنى أختك!» ففعل أبو بكر وزوجه أخته أم فروة بنت أبى قحافة!!

أما عاصم بن عمرو فهو غنى عن التعريف وقد كثر ذكره مع تحركات خالد وأبى عبيد والمثنى. كان على فرقة من ثلاث هم جيش خالد فى خروجه من النباج إلى العراق. وكان على ميمنة خالد بذات السلاسل وبالمذار وهو الذى قتل أنو شجان قائد ميسرة الفرس. ثم كان

(١) مسلم.
(٢) الطبرانى.

قائد حامية كربلاء بعد صلح الحيرة حتى خروج خالد لإنجاز عمل عياض فخرج معه إلى دومة الجندل، وعاصم هو الذى اعترض طريق أكيدر ملك دومة الجندل فأتى به أسيراً. وقد أجار عاصم بنى كلب فى فتح دومة الجندل فأنجاهم من سيف خالد. ثم كان مع خالد فى مواقعه فى عين التمر والفراض. وجعله خالد على الجيش فى رجوعه من الفراض إلى الحيرة بينما انفلت هو سراً ليحج. وكان عاصم ممن اختارهم خالد ليخرج معه إلى الشام ثم تركه للمثنى استرضاء له. ثم وجدنا عاصماً على مجردة المثنى فى النمارق وفى مطاردة فلول الفرس بعدها. كذلك بعثه أبو عبيد لمطاردة فلول معركة السقاطية حتى نهر جوبر فهزم كل جمع لقيه، وشهد باقسياثا مع أبى عبيد. ولمع فى وقفته مع المثنى يوم الجسر لحماية انسحاب المسلمين فى ذلك الموقف العصيب وجرح يومها، ثم شهد البويب مع المثنى وتطوع للمطاردة بعدها. وهو أحد الشعراء الفرسان. وأخيراً لو كان المرء يشرف بنسبه بعد ذلك لقلنا إنه أخو القعقاع بن عمرو.

وعمرو بن معدى كرب الزبيدى الشاعر الفارس المشهور صاحب الغارات والوقائع فى الجاهلية والإسلام. وفد على النبى ﷺ فى العام التاسع من الهجرة فى وفد بنى زبيد فأسلم وأقام مدة فى المدينة ثم رجع إلى قومه، غير أنه ارتد مع الأسود العنسى فى ردة اليمن، وسار إليه خالد بن سعيد فقاتله حتى عاد إلى الإسلام فأرسلوه إلى أبى بكر فأطلقه وعاد إلى قومه ثم رجع إلى المدينة فبعثه أبو بكر إلى الشام فشهد فيها اليرموك وكان له فيها بلاء حسن وقد ذهبت فيها إحدى عينيه، ثم بعثه عمر إلى العراق وله فى القادسية من المواقف ما سوف نعرض له. وهو صاحب الصمصامة أشهر سيوف العرب. سأل عمر بن الخطاب يوماً عن أى سيوف العرب أمضى؟ فقيل له صمصامة عمرو بن معدى كرب الزبيدى، فبعث عمر إليه أن يرسل إليه سيفه فبعث به فلما ضرب به وجده دون ما كان يبلغه عنه، فكتب إليه فى ذلك فرد عليه عمرو: «إنى إنما بعثت إلى أمير المؤمنين بالسيف ولم أبعث إليه بالساعد الذى يضرب[1] به».

والمغيرة بن شعبة من الدهاة المشهورين وكان يجيد الكتابة ويتكلم الفارسية، وإن كنا لا نقطع متى تعلم الفارسية وما إذا كان ذلك قبل وفادته على يزدجرد أو بعدها. وقد اتخذه رسول الله ﷺ من كتبته. فلما أسلمت ثقيف أرسله النبى إلى الطائف لهدم أصنامها وتسوية

(١) الفروسية العربية. ٤- نقول من المعروف أن عمراً أهدى صمصامته إلى خالد بن سعيد فى حروب الردة فى عهد أبى بكر، وهو ما يتناقض مع هذه القصة.

أموالها . وفيروز المجوسى الذى قتل عمر ابن الخطاب وهو يصلى كان مولى للمغيرة بن شعبة .

وأخيراً المعنى بن حارثة عرفناه فى الصفحات السابقة نلخصها جميعاً فى أنه كان أخا المثنى بن حارثة الشيبانى شهد معه مواقعه كلها .

هذا الوفد المنتقى الذى كان على أعلى درجات الكفاية لما أوفد له ، نلاحظ أنه بالإضافة إلى الميزات الشخصية التى تجعل لكل منهم وزنه الذاتى ، فقد كان فيهم من عارك الفرس وعركهم ومارس حروب العراق فى الحملات السابقة ، وفيهم من وفد فى الجاهلية على ملوك الفرس ، فيهم من يعرف اللغة الفارسية ، ثم كانوا جميعاً يجمعون بالإضافة إلى الرأى والفكر وحسن الأحدوثة أنهم كانوا ذوى مهابة ومنظر وبسطة فى الجسم . فكأنما اختار سعد لهذه الوفادة من اجتاز كشفاً فنياً وكشفاً طبياً وكشف هيئة .

المراسلات قبل ذهاب الوفد

رسالة إلى عمر

وعسكر رستم بساباط خارج المدائن على طريق الحيرة، فكتب سعد إلى عمر:

«إن رستم قد ضرب عسكره بساباط دون المدائن، وزحف إلينا بالخيول والفيول وزهاء فارس (كثرتهم ومنظرهم). وليس شيء أهم إليّ ولا أنا له أكثر ذكراً منى لما أحببت أن أكون عليه. ونستعين بالله ونتوكل عليه. وقد بعثت فلاناً وفلاناً... وهم كما وصفت[1].

الوفد فى أعين الفرس

خرج الوفد من القادسية على الخيل وأميرهم النعمان بن مقرن. ومروا فى طريقهم على معسكر رستم وجازوه حتى عبروا دجلة فقدموا أسبانبر، الحى الملكى من المدائن، وانتهوا إلى باب إيوان يزدجرد فوقفوا على خيول عروات (غير مسرجة) معهم جنائب[2] وكلها صهال واستأذنوا للدخول. فتركوا على الباب حتى بعث يزدجرد إلى وزرائه ووجوه أرضه يستشيرهم فيما يصنع معهم وما يقول لهم. وانتشر بين أهل المدائن أن وفداً من المسلمين جاء لمقابلة الملك فاجتمعوا حولهم فى جمهرة كبيرة ينظرون إليهم وعليهم المقطّعات والبرد (البردة كساء أسود مربع فيه صغر كانت تلبسه الأعراب) وفى أيديهم سياط دقاق وفى أرجلهم النعال. تروى بنت كيسان الضبية عن بعض سبايا القادسية ممن حسن إسلامه بعد ذلك وحضر ذلك اليوم الذى قدم عليهم فيه وفد المسلمين، قالت:

«اجتمع إليهم الناس ينظرون إليهم فلم أر عشرة[3] قط يعدلون فى الهيئة بألف غيرهم، وخيلهم تخبط ويوعد بعضها بعضاً، وجعل أهل فارس يسوؤهم ما يرون من حالهم وحال خيلهم...[4]».

---

(١) الطبرى ٣ / ٤٩٥ س ش س عن أبى ضمرة عن ابن سيرين. وإسماعيل بن أبى خالد عن قيس بن أبى حازم.

(٢) جنب البعير قاده إلى جنبه. يقال فرس جنيب وخيل جنائب.

والمعنى هنا أنهم وقفوا إلى جانبهم خيولهم عروات غير مسرجة.

(٣) كانوا أربعة عشر.

(٤) الطبرى ٣ / ٤٩٨ س ش س عن عمرو بن محمد عن الشعبى وطلحة عن المغيرة.

س ش س عن طلحة عن بنت كيسان الضبية عن بعض سبايا القادسية.

اجتماع بيزدجرد

انتهى يزدجرد من اجتماعه مع بطانته. فلما اجتمع رأيهم أذن للوفد فأدخلوا عليه فأمرهم بالجلوس. وكان سيء الأدب صبيانياً فى تصرفه، فكان أول ما دار بينه وبينهم أن أمر الترجمان فقال سلهم ما يسمون هذه الأردية؟ فسأل الترجمان النعمان: «ما تسمى رداءك؟»

قال: «البُرد».

فتطير وتشاءم وقال بردجهان: وتغيرت ألوان الفرس وشق ذلك عليهم.

ثم قال: سلهم عن أحذيتهم. فقال الترجمان: ما تسمون هذه الأحذية؟

قال: «النعال».

فعاد يزدجرد لمثلها وقال: «ناله ناله فى أرضنا».

ثم سأله عن الذى فى يده فقال: «سوط».

والسوط بالفارسية الحريق - فقال: «أحرقوا فارس أحرقهم الله».

ولم يكن يزدجرد وحده هو الذى استشاط تشاؤماً وإنما شاركه فى هذا كل من شهد من الفرس، فقد كانوا أهل تطير وتشاؤم يتشاءمون ويتفاءلون بما يرون ويسمعون. ولم تكن هذه البداية من يزدجرد إلا استهلالاً تافهاً لا يتفق وجدية الموقف وإن كان يتفق فى التعبير عن نفسية الرجل ووزنه.

النعمان يتكلم

ثم قال يزدجرد للترجمان: «سلهم ما جاء بكم وما دعاكم إلى غزونا والولوع ببلادنا؟ أمن أجل أنا أجممناكم وتشاغلنا عنكم اجترأتم علينا؟»

فقال لهم النعمان بن مقرن: «إن شئتم أجبت عنكم ومن شاء آثرته».

فقالوا: «بل تكلم» وقالوا للملك: «كلام هذا الرجل كلامنا».

وتكلم النعمان فقال:

«إن الله رحمنا فأرسل إلينا رسولاً يدلنا على الخير ويأمرنا به ويعرّفنا الشر وينهانا عنه.

ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة.

فلم يدع إلى ذلك قبيلة إلا صاروا فرقتين: فرقة تقاربه وفرقة تباعده، ولا يدخل معه فى دينه إلا الخواص، فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث.

ثم أُمر أن ينبذ إلى من خالفه من العرب وبدأ بهم وفعل.

فدخلوا معه جميعاً على وجهين، مكره عليه فاغتبط وطائع أتاه فازداد.

فعرفنا جميعاً فضل ما جاء به على الذى كنا عليه من العداوة والضيق.

ثم أمرنا بأن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف.

فنحن ندعوكم إلى ديننا، وهو دين حسن الحسن وقبح القبيح كله.

فإن أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه، الجزاء (الجزية) فإن أبيتم فالمناجزة.

فإن أجبتم إلى ديننا خلّفنا فيكم كتاب الله وأقمناكم عليه، على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم.

وإن اتقيتمونا بالجزاء قبلنا ومنعناكم.

وإلا قاتلناكم».

وتكلم يزدجرد فقال:

إنى لا أعلم فى الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عدداً ولا أسوأ ذات بين منكم. قد كنا نوكل بكم قرى الضواحى فيكفونناكم. لا تغزوكم فارس ولا تطمعون أن تقوموا لهم! فإن كان عددٌ لحق فلا يغرنكم منا، وإن كان الجهد دعاكم فرضنا لكم قوتاً إلى خصبكم وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم وملّكنا عليكم ملكاً يرفق بكم.

مقالة المغيرة بن زرارة

فسكت القوم برهة، ثم قام المغيرة بن زرارة بن النباش الأسيدى فكان خطيب الوفادة. قال:

«أيها الملك، إن هؤلاء رءوس العرب ووجوههم، وهم أشراف يستحون من الأشراف. وإنما يكرم الأشرافَ الأشرافُ ويعظم حقوق الأشرافِ الأشرافُ ويضخم الأشرافَ الأشرافُ.

وليس كل ما أرسلوا به جمعوه لك، ولا كل ما تكلمت به أجابوك عليه. وقد أحسنوا، ولا يحسن بمثلهم إلا ذلك. فجاوبنى لأكون الذى أبلغك ويشهدون على ذلك.

إنك وصفتنا صفة لم تكن بها عالماً.

فأما ما ذكرت من سوء الحال فما كان أسوأ حالاً منا. وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع. كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات فنرى ذلك طعامنا. وأما المنازل فإنما هى ظهر الأرض، ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم. ديننا أن يقتل بعضنا بعضاً ويغير بعضنا على بعض، وإن كان أحدنا ليدفن ابنته وهى حية كراهية أن تأكل من طعامنا، فكانت حالنا قبيل اليوم على ما ذكرت لك.

فبعث الله إلينا رجلاً معروفاً. نعرف نسبه ونعرف وجهه ومولده. فأرضه خير أرضنا وحسبه خير أحسابنا وبيته أعظم بيوتنا وقبيلته خير قبيلتنا، وهو بنفسه كان خيرنا، فى الحال التى كان فيها أصدقنا وأحلمنا فدعانا إلى أمرٍ فلم يجبه أحد، أول من ترب[1] كان له (سنداً) وكان الخليفة من بعده، فقال وقلنا وصدق وكذبنا وزاد ونقصنا فلم يقل شيئاً إلا كان، فقذف الله فى قلوبنا التصديق له واتباعه، فصار فيما بيننا وبين رب العالمين، فما قال لنا فهو قول الله وما أمرنا فهو أمر الله.

فقال لنا إن ربكم يقول إنى أنا الله وحدى لا شريك لى، كنت إذ لم يكن شىء، وكل شىء هالك إلا وجهى وأناخلقت كل شىء وإلىّ يصير كل شىء، وإن رحمتى أدركتكم فبعثت إليكم هذا الرجل لأدلكم على السبيل التى بها أنجيكم بعد الموت من عذابى، ولأحلكم دارى دار السلام. فنشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق.

وقال من تابعكم على هذا فله ما لكم وعليه ما عليكم. ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم. ومن أبى فقاتلوه، فأنا الحكم بينكم، فمن قتل منكم أدخلته جنتى، ومن بقى منكم أعقبته النصر على من ناوأه.

فاختر إن شئت الجزية عن يد وأنت صاغر، وإن شئت فالسيف، أو تُسلم فتنجى نفسك».

جواب يزدجرد

قال يزدجرد وقد مُس كبرياؤه أمام حاشيته وبطانته:

---

(١) تاربه كان تربه وجمعه أتراب أى صديقه.

«أتستقبلني بمثل هذا؟»

قال: «ما استقبلت إلا من كلمني، ولو كلمني غيرك لم أستقبلك به».

فاستشاط يزدجرد غضباً وصاح فيهم:

«لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم. لا شيء لكم عندي».

ثم التفت إلى بطانته وقال:

«ائتوني بوقر من تراب».

فأتوا به.

قال: «احملوه على أشرف هؤلاء ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن. ارجعوا إلى صاحبكم فأعلموه أني مرسل إليكم رستم حتى يدفيكم[1] ويدفيه في خندق القادسية، وينكّل به وبكم من بعد، ثم أورده بلادكم حتى أشغلكم في أنفسكم بأشد مما نالكم من سابور... من أشرفكم؟»

فسكت القوم إلا عاصم بن عمرو فقد افتات ليأخذ التراب وقد سره ذلك.

قال: «أنا أشرفهم، أنا سيد هؤلاء، فحملنيه».

فسألهم يزدجرد: «أكذلك؟»

قالوا: «نعم».

فحمله على عنقه.

تهويش

من المؤكد أن تهديد يزدجرد للوفد بغزو بلادهم لم يكن ممكن التنفيذ من الناحية العملية، فإن جزيرة العرب مع اتساعها وجفافها وطبيعة تضاريسها ومع اعتبارها مجاهل يجهلها الفرس أو غيرهم من غير أبنائها، كل ذلك قد جعلها درعاً حصينة لم يفكر أحد في العصور القديمة في غزوها.

---

(١) يدفيكم: يقتلكم. وفي قصة قتل مالك بن نويرة أن خالداً قال لجنده: «دافئوا أسراكم» يقصد أن يدفئوهم من البرد، ففهم الجند من كنانة أنه يريد قتلهم فقتلوهم. وربما كان الأصل «يدفنكم» فحدث تصحيف.

إنهما مرتان على سبيل الحصر. مرة حين أغرى قائد رومى امبراطور الروم فجهز حملة بحرية لغزوها من ناحية البحر الأحمر، ونتيجة لجهلهم بجغرافية السواحل فقد تحطمت جميع السفن الحاملة للحملة على الشعاب المرجانية الغاطسة بحذاء الساحل الغربى على البحر الأحمر فيما عدا سفينة واحدة رجع فيها قائد الحملة فكافأه الأمبراطور بالاعدام. ومرة أخرى حين أراد أبرهة أن يغزو مكة بالفيل، وكلتاهما منيتا بفشل ذريع.

لا ندرى إن كان يزدجرد كان يدرك تلك الاستحالة، ولكن الذى لا شك فيه أن المسلمين كانوا يعلمون أن تهديد يزدجرد لم يكن أكثر من صياح. وإذا كانوا فى حملات سابقة بأعداد قليلة قد استطاعوا أن يهزموا جيوش الامبراطورية العجوز المرة تلو المرة، فكيف لو انتقل الميدان إلى ديارهم؟ ليكونن حينذاك أكثر قدرة على إيقاع الهزيمة بعدوهم. غير أنهم كانوا على يقين من أن ذلك العدو كان أعجز من أن ينقل المعركة من دياره إلى ديارهم.

نسوق هذا الاستطراد بمناسبة أن رأينا أحد كتابنا المحدثين ينطلى عليه تهويش يزدجرد فكتب يقول:

«... كانت[1] القادسية من أهم المعارك التى خاض المسلمون غمارها ضد أعدائهم. ومبعث أهميتها أن الفرس كانوا قد قرروا غزو بلاد العرب إذا كُتب لهم النصر...»

نعود فنكرر أن تخطيط المسلمين قام دائماً على أن يحتموا بصحرائهم إذا دارت الدائرة عليهم حيث يعجز عدوهم عن ملاحقتهم فيها. هذا الاعتبار الحق فى استراتيجية المسلمين لا ينبغى أن يغيب عن أذهاننا.

الوفد يعود

خرج الوفد من عند يزدجرد وعاصم يحمل وقر التراب من الإيوان والدار حتى أتى راحلته[2] فحمله عليها ثم أسرعوا فى السير حتى أتوا سعداً بالقادسية وسبقهم عاصم فمر بباب قديس وقال:

«بشروا الأمير بالظفر. ظفرنا إن شاء الله».

(١) الفتح العربى للعراق وفارس ١٩٣.

(٢) الراحلة: ناقة الركوب. والأثبت أنهم وفدوا على المدائن على ظهور الخيل وليس على الإبل. ونرى هذا لبساً فى الرواية.

ثم مضى حتى جعل التراب فى حجره ثم رجع فدخل على سعد فأخبره الخبر، فقال سعد:
«أبشروا فقد والله أعطانا الله أقاليد ملكهم».
ثم وصل سائر الوفد.

المجوس يتشاءمون

وعاد جلساء يزدجرد ينظرون فيما صنع وما كان من قبول المسلمين لحمل التراب وتشاءموا من ذلك على عادة الفرس، فقد رأوا فيه أن الملك أعطاهم أرض ملكه وسلمهم ترابها فاشتد ذلك عليهم. وانفلت رستم من معسكره بساباط إلى يزدجرد الملك يسأله عما كان من أمره مع الوفد وكيف رآهم. فقال له الملك:

«ما كنت أرى أن فى العرب مثل رجال رأيتهم. دخلوا عليّ وما أنتم بأعقل منهم ولا أحسن جواباً منهم...»

وأخبره بحديثهم حتى قال:

«لقد صدقنى القوم.. لقد وُعد القوم أمراً ليدركنه أو ليموتن عليه. على أنى وجدت أفضلهم أحمقهم، لما ذكروا الجزية أعطيته تراباً، فحمله على رأسه فخرج به ولو شاء اتقى بغيره وأنا لا أعلم!»

وفطن رستم لما فات الملك إدراكه فقال: «أيها الملك إنه لأعقلهم».

وتطير رستم من ذلك فخرج من عند يزدجرد كئيباً غضبان. وكان منجماً كاهناً فبعث فى أثر الوفد وقال لأهل ثقته وخاصته:

«إن أدركهم الرسول تلافينا أرضنا، وإن أعجزوه سلبكم الله أرضكم وأبناءكم».

فرجع الرسول من الحيرة بفواتهم، قال رستم:

«ذهب القوم بأرضكم غير ذى شك، ما كان من شأن ابن الحجّامة الملك!

ذهب القوم بمفاتيح أرضنا».

فكان ذلك مما زاد الله به أهل فارس غيظاً وتشاؤماً. (تشاءموا من أخذ التراب أن يكون نذيراً بأخذ الأرض).

يوم الحيتان

وفيما[1] بين خروج وفد سعد إلى يزدجرد ورجوعه من عنده، بعث سعد سرية عليها قائد الطلائع سواد بن مالك التميمي إلى النجاف[2] فاستاق منها ثلاثمائة دابة بين بغل وحمار وثور. وكان الصيادون قد فرغوا من تجميع كميات كبيرة من سمك صادوه، فحمّله سواد على الدواب وعاد بها نحو القادسية، وبلغ الخبر إلى آزاذمرد بن آزاذبه مرزبان الحيرة - وفى بلوغ هذاالخبر إلى آزاذمرد ما يؤكد بشكل عملى نقض أهل الحيرة لعهدهم مع خالد ورجوعهم عملاء للفرس كما كتب سعد إلى عمر.

فخرج آزاذمرد ليلاً فى خيله يطلب سواداً ومن معه ويعترضه. وشاهد سواد آزاذمرد يجد فى أثره، وقدّر أنه سوف يدركه، فقد كان آزاذمرد فى خيل وكان سواد لا يتجاوز بطبيعة الحال سرعة الحمير والبغال والثيران التى يستاقها، فكلف من سريته من يبلغها المسلمين بالقادسية ومال هو وفرسان معه إلى آزاذمرد فالتقوا على قنطرة السَّيْلَحَيْن وظل يقاتلهم ويمنعهم من اجتياز القنطرة حتى اطمأن إلى أن الغنيمة قد نجت فانسحبوا واتبعوها فأبلغوها المسلمين وصبحوا بها العسكر. فقسم سعد السمك بين الناس وقسم الدواب ونفّل الخمس إلا ما رُد منه على المجاهدين، وكان فى الغنيمة سبياً فأسهم عليه (بالقرعة). هذا اليوم من أيام الغارات التموينية عُرف بيوم الحيتان. وكان العرب يقولون الحيتان ويقصدون به السمك.

وبعث سعد سرية من تيم الرباب عليها مالك بن ربيعة التيمى (تيم الرباب ثم الواثلى) ومعه المساور بن النعمان التيمى الرُّبَيعى. فأغاروا على الفيوم - على حوالى ٢٥٠ كيلو متراً شمالاً - وأغلب الظن أنهم سلكوا طريقاً فى جوف الصحراء. فأصابوا إبلاً لبنى تغلب والنمر فاستولوا عليها وعلى من فيها وعادوا بها إلى سعد فنحرت الإبل فى الناس وأخصبوا بها.

---

(١) الطبرى ٣ / ٥٠٢ س ش س عن عمرو عن الشعبى.

(٢) فى الأصل «إلى النجاف والفراض إلى جنبها» والفراض جمع فرضة وهى موارد الاستسقاء من الأنهار، ويطلق لفظ الفراض على الأراضى الآهلة بالسكان حول الأنهار. وفى مختار الصحاح فرضة النهر: ثلمته التى يستقى منها، وفرضة البحر أيضاً محط السفن. ونظن أن المقصود هنا النجف (وليس النجاف).

وبعث على النهرين[1] عمرو بن الحارث الفهرى من المسلمين الأوائل الذين هاجروا إلى الحبشة ثم إلى المدينة وممن شهد بدراً، بعثه في سرية فوجدوا على باب ثوراء مواشى كثيرة، فسلكوا أرض شَيْلى وهى نهر زياد بجهة الأنبار، فعادوا بها إلى عسكر المسلمين.

(١) كانت كورة (إقليم) بهقباذ الأعلى ستة طساسيج (نواحى) هى بابل وخطرنية والفلوجة العليا والفلوجة السفلى والنهرين وعين التمر. (المسالك والممالك ٨، والخراج وصنعة الكتابة ٢٣٦).

الباب الرابع

رستم يتحرك



جيش رستم

نزل رستم بساباط وجمع السلاح وآلات الحرب وأدواتها، وعبأ جيشه فجعل[1]:

- ٤٠٠٠٠ مقدمة عليها جالنوس.
- ٣٠٠٠٠ ميمنة عليها هرمزان.
- ٣٠٠٠٠ ميسرة عليها مهران بن بهرام الرازى.
- ٢٠٠٠٠ مؤخرة عليها بيرزان.
- ٨٠٠٠٠ تابع للخدمات.

هذه مائة وعشرون[2] من المقاتلين خلاف التبع. نذهب إلى أن نصفهم (ستين ألفاً) كان من الفرسان[3] ونصفهم (ستين ألفاً) كان من المشاة.

---

(١) الطبرى ٣ / ٥٠٤ س ش س عن النضر بن السرى الضبى عن ابن الرفيل عن أبيه.
الطبرى ٣ / ٥٠٥ س ش س عن محمد وطلحة وزياد وعمرو بإسنادهم.

(٢) فتوح البلدان ٦٣٤.

(٣) فى الطبرى ٣ / ٥٠٥ س ش س عن هشام بن عروة (بن الزبير بن العوام) عن عائشة (أم المؤمنين - وكانت خالته) أن رستم زحف لسعد وهو بالقادسية فى ستين ألف. وفيه ٣ / ٥٧٣ عن ابن حميد عن سلمة عن ابن اسحق عن وهب بن كيسان عن عبدالله بن الزبير قال: «... وأقبل رستم فى جموع فارس ستين ألفاً مما أحصى لنا فى ديوانه سوى التباع والرقيق حتى نزل القادسية..» ونذهب إلى أن الذى يحصى فى الديوان إما هو من كان من الفرسان الأشراف أما المشاة الذين كانوا من الفلاحين يجمعون على عجل فلم يكن لهم عند سادة فارس أى اعتبار، ولم يكن لهم أى أجر أو غيره فلا معنى لقيدهم فى ديوان (انظر الطريق إلى المدائن - النظام الحربى لفارس).
أما الجيش بأكمله فكان مائة وعشرين ألف مقاتل فرسانه ومشاته وذلك بخلاف التبع الذين يقومون بأعمال الخدمة كإعداد الطعام وعلف الخيل والبغال. فعن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم أن رستم خرج من المدائن فى ستين ألف متبوع (هم الفرسان) وأنه خرج من ساباط فى مائة وعشرين ألفاً كلهم متبوع، وأن هذا العدد هو الذى كان فى القادسية (الطبرى ٣ / ٥٠٥). وذكر الرفيل (الفارسى) أنهم خرجوا من ساباط فى مائة وعشرين ألفاً (الطبرى ٣ / ٥٠٥) وكان الرفيل نفسه واحداً منهم. وذكر الشعبى أنهم كانوا مائة وعشرين ألفاً فى القادسية. (الطبرى ٣ / ٥٣٥).
وهذا التخريج يوفق بين ما تناقض من أخبار عن تعداد جيش رستم فمن قال ستين ألفاً إنما قصد الفرسان الأشراف الذين كانوا عماد الجيش، ومن قال مائة وعشرين ألفاً إنما عنى الجيش بعد انضمام المشاة إليه وكانوا من الفلاحين، ومن قال مائتى ألف فقد أضاف إليهم الخدم والتبع والرقيق.

وبالرغم مما كان عليه رستم فقد أراد أن يصطنع الشجاعة أمام الملك فقال له: «إن فتح الله علينا القوم يكون فيرزان وجهنا إلى ملكهم في دارهم حتى نشغلهم في أصلهم وبلادهم إلى أن يقبلوا المسالمة أو يرضو بما كانوا يرضون به».

هواجس

ورستم في مقامه هذا بساباط مرّ به وفد سعد إلى يزدجرد ذهاباً إلى المدائن وإياباً منها ثم علم بما كان من شأنهم مع الملك فرأى رؤيا كرهها وأحس بالشر منها وكره الخروج ولقاء المسلمين فاختلف عليه رأيه واضطرب. وعاد يسأل الملك أن يمضي جالنوس ويقيم هو حتى ينظر ما يصنعون. وقال له:

«إن غناء جالنوس كغنائي، وإن اسمي أشد عليهم من اسمه، فإن ظفر فهو الذي نريد وإن يكن الأخرى وجهت مثله ودفعنا هؤلاء القوم إلى يوم ما، فإني لا أزال مرجواً في أهل فارس ما لم أهزم، ينشطون ولا أزال مهيباً في صدور العرب ولا يزالون يهابون الإقدام ما لم أباشرهم، فإن باشرتهم اجترأوا آخر دهرهم وانكسر أهل فارس آخر دهرهم»[١].

فأبى الملك.

رستم يتباطأ

وعاد رستم إلى ساباط يتلكأ فيها ولا يتحرك منها. وكتب إلى أخيه كتاباً وإلى رءوس أهل فارس[٢]:

«من رستم إلى بندوان مرزبان الباب، وسهم أهل فارس الذي كان لكل كون يكون فيفضّ الله به كل جند عظيم شديد، ويفتح به كل حصن حصين، ومن يليه.

فَرُمُّوا حصونكم وأعدوا واستعدوا. فكأنكم بالعرب قد وردوا بلادكم وقارعوكم عن أرضكم وأبنائكم.

وقد كان من رأيي مدافعتهم ومطاولتهم حتى تعود سعودهم نحوساً فأبى الملك».

---

(١) الطبري ٣ / ٥٠٤ س ش س عن النضر بن السري الضبي عن ابن الرفيل عن أبيه.

(٢) الطبري ٣ / ٥٠٥ س ش س عن محمد وطلحة وزياد وعمرو بإسنادهم.

ولاحظ يزدجرد أن رستم يتلكأ فأمره بالتحرك من ساباط فعاد رستم يكتب إلى أخيه بمثل الكتاب الأول ثم زاد فيه مما ساقه إليه تنجيمه :

« . . . فإن السمكة قد كدرت الماء . وإن النعائم قد حسنت . وحسنت الزُهْرَة واعتدل الميزان ، وذهب بهرام .

ولا أرى هؤلاء القوم إلا سيظهرون علينا ويستولون على ما يلينا . وإن أشد ما رأيت أن الملك قال لتسيرن إليهم أو لأسيرن أنا بنفسي فأنا سائر إليهم(١) .

وخرج رستم من ساباط فلقيه جابان على قنطرتها فتشاكيا(٢) .

قال جابان : «ألا ترى ما أرى ؟»

قال رستم : «أما أنا فأقاد بخشاش وزمام ولا أجد بداً من الانقياد» .

وأمر رستم جالنوس بالتقدم نحو الحيرة ، وقال له : «ازحف زحفاً ولا تنجذب إلا بأمري» .

وبلغ جالنوس النجف فضرب عسكره وأقام فسطاطه بها .

ونزل رستم بكوثى . وكتب وهو بكوثى إلى جالنوس وآزاذمرد :

«أصيبا لي رجلاً من جند سعد» .

فركبا بنفسيهما في سرية من مائة رجل طليعة حتى انتهيا إلى القادسية فأصابا رجلاً وجداه قبل القنطرة فاختطفاه ، وأحس المسلمون بما حدث فانطلقوا في أثرهم فأعجزوهم وأفلتوا به إلا ما أصاب المسلمون من أخرياتهم . وانتهى جالنوس وآزاذمرد إلى النجف فأرسلا الرجل إلى رستم وهو مازال بكوثى .

قال له رستم : «ما جاء بكم وماذا تطلبون ؟»

قال : «جئنا نطلب موعود الله» .

قال : «وما هو ؟»

قال : «أرضكم وأبناءكم ودماءكم إن أبيتم أن تسلموا» .

قال رستم : «فإن قُتلتم قبل ذلك ؟»

قال : «في موعود الله أن من قُتل منا قبل ذلك أدخله الجنة وأنجز لمن بقي منا ما قلت لك ،

---

(١) الطبري ٣ / ٥٠٦ س ش س عن الصلت بن بهرام عن رجل .

(٢) الطبري ٣ / ٥٠٧ س ش س عن محمد وطلحة وزياد وعمرو بإسنادهم .

فنحن على يقين».

قال رستم: «قد وضعنا إذن في أيديكم!»

قال: «ويحك يا رستم! إن أعمالكم وضعتكم فأسلمكم الله بها فلا يغرنك ما ترى حولك، فإنك لست تجاول الإنس، وإنما تجاول القضاء القدر».

فاستشاط رستم غضباً وأمر به فضربت[1] عنقه.

اغتصاب

وخرج رستم من كوثى حتى نزل في بُرَس. فغصبت جنوده الناس أموالهم واعتدوا على حرماتهم فوقعوا على نسائهم وشربوا الخمور، فضج الأهالي - وهم من المجوس - إلى رستم يشكون ما يلقون في أموالهم وأبنائهم. فقام رستم فيهم فقال:

«يا معشر أهل فارس، والله لقد صدق العربي. والله ما أسلمنا إلا أعمالنا. والله للعرب في هؤلاء وهم لهم ولنا حرب أحسن سيرة منكم. إن الله ينصركم على العدو ويمكن لكم في البلاد بحسن السيرة وكف الظلم والوفاء بالعهود والإحسان. فأما إذ تحولتم عن ذلك إلى هذه الأعمال فلا أرى الله إلا مغيراً ما بكم، وما أنا بآمن أن ينزع الله سلطانه منكم».

ثم بعث رجاله فاعتقلوا له نفراً ممن يشكى منه فضرب أعناقهم. ثم ركب ونادى في الناس بالرحيل فخرج ونزل بإزاء دير الأعور.

ثم خرج منها فانصب إلى الملطاط فعسكر بين الفرات وبين النجف فيما بين النجف إلى الخورنق إلى الغريين. ونصب سرادقه إلى جانب الدير.

متهوّر

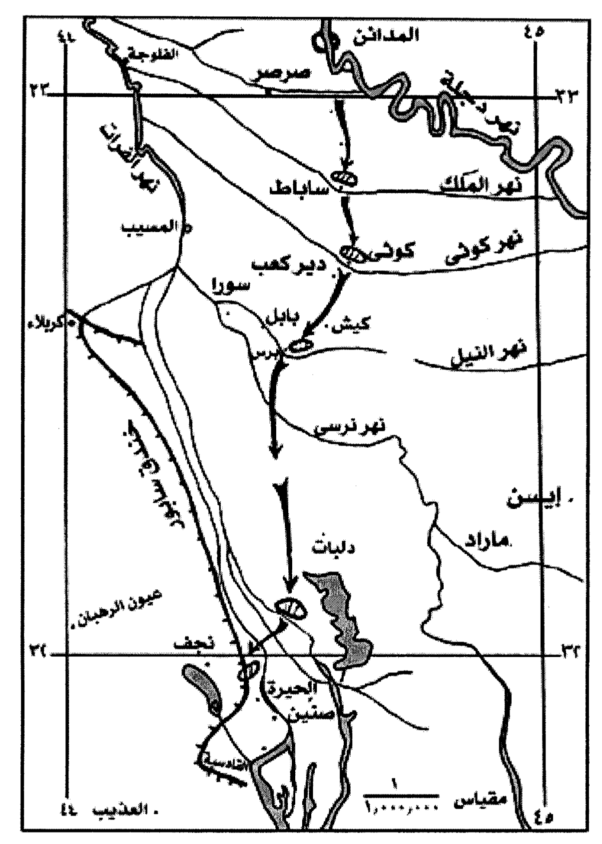
ودعى بأهل الحيرة ليناقشهم الحساب. فلما دخلوا عليه أرغى وأزبد وتوعدهم وهم بهم فقال لهم[2]:

«يا أعداء الله. فرحتم بدخول العرب علينا بلادنا، وكنتم عيوناً لهم علينا، وقويتموهم بالأموال».

---

(١) الطبري ٣ / ٥٠٧ س ش س عن النضر بن السرى عن ابن الرفيل عن أبيه.

(٢) الطبري ٣ / ٥٠٨ س ش س عن عمرو عن الشعبي والمقدام الحارثي عمن ذكره.



خريطة رقم (٤) تحرك رستم

ثلاث تهم وجهها إليهم. فأصابهم الرعب واتقوه بابن بقيلة وقالوا له: «كن أنت الذى تكلمه». فتقدم ابن بقيلة إلى رستم وقال: «أما أنت وقولك إنا فرحنا بمجيئهم فماذا فعلوا

وبأى ذلك من أمورهم نفرح؟ إنهم ليزعمون إنا عبيد لهم، وما هم على ديننا، وإنهم ليشهدون علينا إنا من أهل النار.

وأما قولك إنا كنا لهم عيوناً، فما الذى يحوجهم إلى أن نكون عيوناً لهم وقد هرب أصحابكم منهم وخلوا لهم القرى، فليس يمنعهم أحد من وجه أرادوه إن شاؤوا أخذوا يميناً أو شمالاً.

وأما قولك إنا قويناهم بالأموال، فإنا صانعناهم بالأموال عن أنفسنا إذ لم تمنعونا مخافة أن نُسبى وأن نُحرب وتقتل مقاتلتنا، وقد عجز عنهم من لقيهم منكم فكنا نحن أعجز.

ولعمرى لأنتم أحب الينا منهم وأحسن عندنا بلاء فامنعونا منهم نكن لكم أعواناً فإنما نحن بمنزلة علوج السواد (العجم) عبيد من غلب.

فلا تجمع علينا اثنتين.. أن تعجز عن نصرتنا وتلومنا على الدفع عن أنفسنا وبلادنا».

أحسن ابن بقيلة الجواب واقتنع به رستم فقال لمن حوله: «صدقكم الرجل».

وسكت عنهم. وفى الواقع أن موقف عرب العراق كان تماماً كما ذكر ابن بقيلة فهم لم يفرحوا بالغزو الإسلامى ولم يعينوه.

بات مع الملائكة

وبات رستم بجوار الدير تطارده هواجسه فرأى فى المنام[1] أن ملكاً جاء حتى دخل عسكر فارس فختم السلاح أجمع! ومكث رستم فى مقامه ذاك بعض الوقت حتى إذا اطمأن أمر جالنوس أن يسير من النجف فسار بالمقدمة حتى نزل بينها وبين السيلحين. وارتحل رستم بجنده من الدير فنزل النجف مكان المقدمة. وكان مازال يتباطأ فى مسيره حتى لقد قطع ما بين المدائن إلى ساباط ومنها إلى القادسية (مسافة ١٨٥ كم) قطعها فى أربعة أشهر بمعدل كيلو متر ونصف فى اليوم، لا يقدم ولا يقاتل على أمل أن يضجر المسلمون بمكانهم وأن يفقدوا حماسهم ويجهدوا فينصرفوا، وهو يتلافى قتالهم مخافة أن يتحقق تنجيمه فيلقى ما لقى من قبله، لولا أن الملك كان من ورائه دائماً يستعجله وينهضه من كل منزل ينزله فيقدمه حتى أقحمه القادسية.

ولما نزل رستم النجف عاودته أحلامه المزعجة، فرأى المَلَكَ الذى[2] رآه فى حلمه السابق

(١) الطبرى ٣ / ٥٠٩ س ش س عن النضر بن السرى عن ابن الرفيل عن أبيه.
(٢) المصدر السابق.
الطبرى ٣ / ٥١٦ س ش س عن مجالد عن الشعبى.

ومعه النبى ﷺ وعمر، دخلوا معسكر الفرس فأخذ الملك سلاحهم فختمه بختم ثم حزمه ودفعه إلى النبى فدفعه النبى إلى عمر. فأصبح رستم وقد ازداد حزناً. ورأى أحد من معه ذلك - وكان يدعى الرفيل - فرغب فى الإسلام، وكان ذلك الحلم هو الذى دعاه إلى الإسلام. وعن طريق الرفيل هذا بلغنا كثير من وقائع هذه الأحداث التى كانت تقع فى الجانب الفارسى.

ثبات على الخطة

وأدرك عمر مما يجرى أن الفرس يطاولون المسلمين فعاد يؤكد على سعد خطته ويعهد إليه وإلى المسلمين أن ينزلوا حدود أرضهم وأن يطاولوهم أبداً حتى يرغموهم على الخروج إليهم حيث اختاروا الميدان. وأقام المسلمون بالقادسية واطمأنوا وقد وطنوا أنفسهم على الصبر والمطاولة فكانوا يغيرون على السواد فانتسفوا ما حولهم فحووه وهم مقيمون حتى يفتح الله. كان ذلك فى يونيو ويوليو وأغسطس (حزيران وتموز وآب) وهو موسم يجدون فيه القمح والحبوب الصيفية بعد جنيها وكذلك التمور.

ولم يكن عهد المسلمين أن يمكثوا فى ميدان قتال دون قتال، فقال بعضهم لسعد: «لقد ضاق بنا المكان فأقدم».

ولا شك أن صاحب هذا القول لم يكن يدرك خطة قيادته، وهذا يدلنا على أن الخطة كانت سراً لدى القيادة لم تفصح عنها لعامة الجيش.

وزجر سعد من كلَّمه بذلك قائلاً:

«إذا كُفيتم الرأى فلا تَكَلَّفُوا، فإنا لن نقدم إلا على رأى ذوى الرأى، فاسكتوا ما سكتنا عنكم[1]».

من المبادئ المسلم بها اليوم وتأخذ به الدول كقاعدة من قواعد الأمن مبدأ يقول: «المعرفة على قدر الحاجة» يقوم على اعتبارين:

١- خطأ تكليف الفرد بعمل مع إحاطته بقدر أقل مما يلزمه لأدائه.

٢- خطورة حصول الفرد على معلومات تزيد عن حاجته لأداء العمل المنوط به.

فالمعرفة على قدر الحاجة يعنى قدرة الفرد على تأدية العمل المكلف به بأقل قدر ممكن من

---

(١) الطبرى ٣ / ٥١٠ س ش س عن محمد بن قيس عن موسى بن طريف.

المعلومات، وذلك خوفاً من تسرب المعلومات والخطط إلى العدو، وأن الفرد غير المسئول عن معلومات معينة مسئولية مباشرة لا يشعر بنفس المسئولية التى يشعر بها نحو المعلومات التى هو مسئول عنها مباشرة بحكم تكليفه. ولقد كان الجندى المسلم مثالياً فى جنديته ولم يكن معنى هذا إهدار القواعد السليمة بل كان الصواب فى إعمالها دائماً. وإن اقتناع كل فرد بمبدأ المعرفة على قدر الحاجة يمثل نضج الفرد وأحد الدعامات الهامة لقطع السبل على العدو نحو ما يفيده من معلومات. وإن قدراً كبيراً من المعلومات - التى تسمى بالمعلومات العارضة - يتسقطه الأعداء كيفما اتفق من سقطات الألسنة والثرثرة التى لا داعى لها. ولا شك أن خير أمان لذلك هو الكتمان وألا يعرف الفرد أكثر مما يلزمه، فالمعرفة على قدر الحاجة.

بذلك أخذ سعد.

زحف السلاحف

وتوقف رستم فترة أخرى وهو بالنجف وجدد تعبئة قواته[١].

فكان هو بالنجف.

وهرمزان على ميمنته.

ومهران على ميسرته.

وجالنوس على المقدمة بين النجف والسيلحين.

وبهمن جاذويه بين رستم وجالنوس.

وبيرزان على المؤخرة.

وزاذ بن بهيش صاحب فرات سريا على المشاة.

وكنارى على المجردة (الخيل).

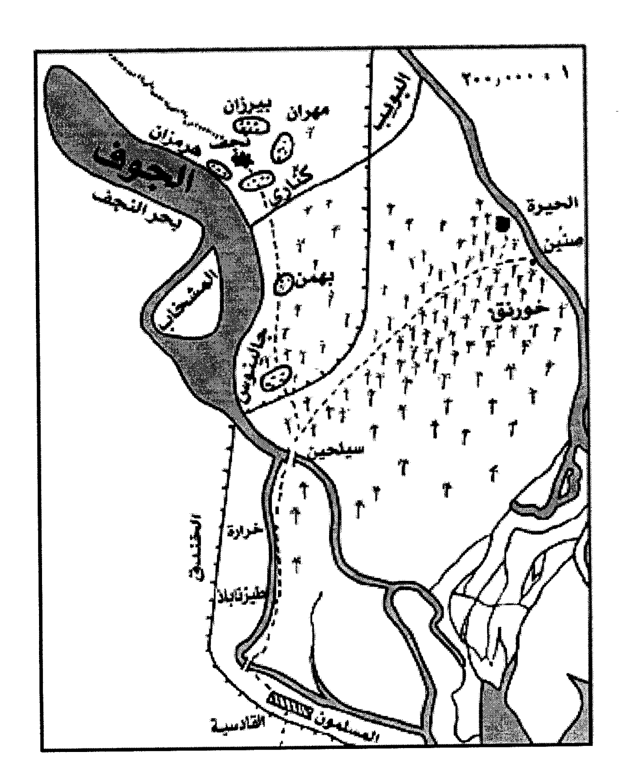
وكان الجند حينذاك مائة وعشرين ألفاً، فيهم ستون ألف متبوع ومن الستين ألفاً خمسة عشر ألف شريف من أشرافهم.

هرمزان - قائد الميمنة - كان صاحب تستر[٢]. وسيأتى له ذكر كثير.

---

(١) الطبرى ٣ / ٥١٠ س ش س عن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم.

(٢) الكامل للمبرد ١ / ٩٨.



خريطة رقم (٥) مواقع الجيشين قبل المواجهة

ومهران – قائد الميسرة – بن بهرام جوبين صاحب الثورة المشهورة الذى ثار على هرمز الرابع وأسقطه عام ٥٩٠م. وقد كان بهرام من قواد الفرس المشهود لهم على مر التاريخ الفارسى غير أنه لم ينجح فى حربه ضد بيزنطة فانتزع هرمز القيادة منه بشكل فيه إهانة له فثار بهرام حتى سقط هرمز وقتل ودخل بهرام المدائن وتوّج نفسه غير أن الأمر لم يستقر له

ففر إلى الدولة البيزنطية حيث قتل. ومهران هو ابن ذلك القائد الثائر. وقد مرّ بنا ذكر مهران فى حملة خالد بن الوليد إذ كان قائد الحامية الفارسية فى عين التمر حين هاجمها خالد ثم انسحب منها دون قتال لما هزم خالد عقة. ويفهم من صفته بأنه مهران بن بهرام الرازى من أهل الرى جنوب بحيرة قزوين.

وجالنوس قائد المقدمة مرّ ذكره فى حملة أبى عبيد. فهو الذى أرسله رستم مدداً لجابان ونرسى فانهزما قبل أن يدركهما ولجأت فلولهما إليه فى باقسياثا، ثم التقى بهم أبو عبيد وهزمهم وفرّ جالنوس. وقد غضب منه رستم غضباً شديداً وأعاده على مقدمة بهمن جاذويه فى موقعة الجسر. والآن يعود رستم ويجعله على مقدمته.

أما زاذ بن بهيش قائد مشاة الفرس فى القادسية فهو الذى سبق أن صالح خالد بن الوليد على الجزية وكتب خالد له معاهدة بذلك فى ربيع الأول عام ١٢هـ بعد سقوط الحيرة. نقض عهده وخرج مع رستم يحارب المسلمين. وحين يبرز لنا اسم «زاذ بن بهيش صاحب فرات سريا» فإنما يعنى الرجل وإقليمه. ونظن أن قيادته للمشاة قد جاءته نتيجة أن إقليم فرات سرياً قد ساهم بنصيب وافر فى المجندين المشاة من الفلاحين الذين هم شعب فرات سريا فيما بين دجلة والفرات.

وتقدم رستم مرحلة أخرى فارتحل من النجف ونزل مكان بهمن جاذويه بينما ارتحل هذا فنزل مكان جالنوس وارتحل جالنوس إلى طَيْزَناباذ فنزل بها وقدّم خيله أمام مكانه هذا نحو القادسية.

غارة تموينية

والفرس[١] فى مواقفهم تلك بعث سعد سواد بن مالك التميمى قائد الطلائع وحميضة بن النعمان البارقى - الذى وفد على عمر فأمَّره على قبائل السراة وأنفذه مع سعد - بعثهما سعد فى مائة[٢] ومائة فأغاروا على النهرين[٣]. وكان سعد قد نهاهما إذ بعثهما أن يمعنا ويبتعدا كثيراً.

---

(١) الطبرى ٣ / ٥١١ س ش س عن محمد بن قيس عن موسى بن طريف.
(٢) فى الأصل مائة مائة (يعنى عشرة آلاف) والمعقول أن يكون صوابها كما أثبتنا.
(٣) من بهقباذ الأعلى، وهذه هى الغارة الثانية على النهرين.

وأسرعت عيون رستم تنقل إليه أخبارهم فأرسل إليهم خيلاً. وبالمثل بلغ سعداً أن خيله أوغلت وبعدت، فدعا عاصم بن عمرو التميمى وجابر بن أبى سبرة الأسدى فأرسلهما فى آثارهم يقتصانهم فسلكا نفس طريقهما، وقال سعد لعاصم:

«إن جمعكم قتال فأنت عليهم».

فلقيهم عاصم وجابر بين النهرين وأصطيميا[1] وقد أحاطت بهم خيل رستم تريد استخلاص ما بين أيديهم من غنيمة.

قال سواد لحميضة:

«اختر إما أن تقيم لهم وأستاق الغنيمة، أو أقيم لهم وتستاق الغنيمة».

قال حميضة:

«أقم (أنت) لهم ونهنهم عنى وأنا أبلغ لك الغنيمة».

فأقام لهم سواد وانفلت حميضة بالغنائم (لم تذكر المصادر طبيعتها ونحسبها كانت مواشى). فلقيه عاصم بن عمرو فظن حميضة حين رآها على بعد أنها خيل أخرى من خيول الفرس فانحرف عن طريقها، ولكنهما ما لبثا أن تعارفا، فساق حميضة غنيمته نحو القادسية ومضى عاصم إلى سواد. وكان الفرس فى أثناء ذلك قد استطاعوا استنقاذ بعض الغنيمة ومازال سواد ملتحماً بهم. ولم يهدهم تفكيرهم إلى مثل ما هدى سواداً تفكيره، فلو ذهب بعضهم بما استنقذوا وثبت بقيتهم للقتال لفازوا بها، ولكنهم ظلوا جميعاً فى التحام والغنيمة معهم حتى بلغهم عاصم وجابر فى خيلهما، فما إن رآهم المجوس حتى ولوا الأدبار تاركين ما كانوا قد استرجعوا فاستردها منهم المسلمون وعادوا إلى سعد بنصرهم على عدوهم وبالغنائم وبالسلامة لم يفقد منهم أحد.

وغارة استكشافية

وبعث سعد طليحة[2] بن خويلد الأسدى وعمرو[3] بن معدى كرب الزبيدى بعثهما

---

(١) لم نهتد إلى موضعها.

(٢) انظر ترجمة طليحة بن خويلد فى آخر الكتاب تحت عنوان «ترجمة مشاهير قادة الفتح». وكتاب «طليحة بن خويلد» للمؤلف.

(٣) عمرو بن معدى كرب قدمنا تعريفاً به فى وفد سعد إلى يزدجرد.

سعد فى غير قوة من خيل كالطليعة فى «دورية» استكشافية، فكان طليحة وحده مكلفاً بعسكر رستم وكان عمرو فى خمسة من أصحابه مكلفاً بعسكر جالنوس. وأمرهم أن يصيبوا له رجلاً منهم ليستخبره.

كان ذلك صبيحة اليوم الذى أمر رستم فيه جالنوس وبهمن جاذويه بالتقدم نحو القادسية، والمسلمون يعلمون أن جيوش المجوس بالنجف لا يشعرون بخروجهم[1] منها. فلما تجاوز طليحة وعمرو قنطرة القادسية لم يسيرا إلا فرسخاً وبعض فرسخ (حوالى ٧ كم) حتى رأوا خيلاً عظيمة وقوات المجوس تتحرك بسلاحها قد ملأوا الطفوف[2].

قال بعضهم: «ارجعوا إلى أميركم فإنه سرحكم وهو يرى أن القوم بالنجف فأخبروه الخبر».

وقال بعضهم: «أرجعوا لا ينذر[3] بكم عدوكم».

فقال عمرو: «صدقتم».

وقال طليحة: «كذبتم، ما بعثتم لتخبروا عن السرح (سرح جنود المجوس) وما بعثتم إلا للخبر».

قالوا: «فما تريد»؟

قال: «أريد أن أخاطر القوم أو أهلك».

قالوا: «أنت رجل فى نفسك غدر ولن تفلح بعد قتل عُكّاشة بن محصن فارجع بنا».

فأبى وفارقهم. وبلغ سعداً وهو بالقادسية خبر رحيلهم فبعث فى آثارهم قيس بن هبيرة الأسدى وأمّره على مائة وقال له: «إن لقيت قتالاً فأنت عليهم».

وخرج قيس حتى لقى عمراً وقد فارقه طليحة ومضى وحده لما يريد. وسأل قيس عن طليحة فقال عمرو: «لا علم لى به». وساروا جميعاً حتى أشرفوا على النجف من جهة الجوف.

قال عمرو: «أريد أن أغير على أدنى عسكرهم».

قال قيس: «فى هؤلاء»؟

---

(١) الطبرى ٣ / ٥١١ س ش س عن محمد بن قيس عن موسى بن طريف.
الطبرى ٣ / ٥١٢ س ش س عن أبى عمرو عن أبى عثمان النهدى.

(٢) الطف ما أشرف من الأرض على ريف العراق، وجمعها طفوف. (أسد الغابة ٢٥٨ عن مراصد الاطلاع).

(٥) نذر الجيش فلاناً جعله نذيراً. نذر به علمه فحذره واستعد له، يقال نذروا بالعدو.

قال : نعم.

قال قيس: «لا أدعك والله وذاك، أتعرض المسلمين لما لا يطيقون»؟!

قال عمرو : وما أنت وذاك؟

قال قيس : إنى أمّرت عليك، ولو لم أكن أميراً لم أدعك وذاك.

وشهد الأسود[1] بن يزيد فى نفر معه.

«إن سعداً قد استعمله عليك وعلى طليحة إذا اجتمعتم».

قال عمرو: «والله يا قيس إن زماناً تكون علىّ فيه أميراً لزمان سوء[2]. لئن عاد صاحبك الذى بعثك لمثلها لنفارقنه».

قال قيس: «ذاك إليك بعد مرتك هذه».

رجعا إلى سعد بخبر زحف المجوس إليهم وببعض الأسرى منهم وبأفراس غنموها، وشكا كل واحد منهما صاحبه. أما قيس فشكا عصيان عمرو وأما عمرو فشكا غلظة قيس.

قال سعد: «يا عمرو الخير والسلام أحب إلىّ من مصاب مائة (من المسلمين) بقتل ألف (من العجم). أتعمد إلى حلبة فارس. فتصادمهم بمائة؟ إن كنت لأراك أعلم بالحرب مما أرى»!

قال عمرو: «إن الأمر لكما قلت».

أما طليحة فقد ترك أصحابه ومضى وحده يعارض[3] المياه على الطفوف حتى بلغ معسكر رستم فتسلل إلى داخله ليلاً وبات فيه يجوسه وينظر ويتوسم، فلما كان آخر الليل أتى أفضل من توسم فى ناحية المعسكر وفيها فرس لم ير فى خيلهم مثله، وفسطاط أبيض لم ير مثله، فسل سيفه وقطع به مقود الفرس (لجامه) وربطه بمقود فرسه ثم مشى بفرسه وخرج يعدو

(١) انظر ترجمة الأسود بن يزيد فى آخر الكتاب تحت عنوان «ترجمة مشاهير قادة الفتح».

(٢) فى الرواية أن عمراً قال لقيس: «لأن أرجع عن دينكم هذا إلى دينى الذى كنت عليه وأقاتل عليه حتى أموت أحب إلى من أن تتأمر على ثانية»، أسقطنا هذه العبارة من النص لمخالفتها المعقول، إذ أن عمراً كان ممن سبقت لهم ردة وتابوا عنها ورجع إلى الإسلام، وبسبب ردته حرم من الجهاد فى عهد أبى بكر. ثم حسن إسلامه وبهذه الصفة سمح له ولغيره من أصحاب الردة أن يجاهدوا فى عهد عمر. فلم يكن من المقبول عقلاً أن يصدر عنه مثل هذا القول، ولو قاله لكان لسعد معه شأن، ولو تجاوز سعد لما تجاوز عمر. هذه العلة تدعونا إلى إسقاط العبارة من النص لمخالفتها للمعلوم بالاستفاضة وإجماع الرواة.

(٣) يعارض يجانب - عارض سار حياله - عارض الرجل أخذ فى عروض من الطريق أى ناحية.

به. وأحس الفرس بما حدث فتنادوا وركبوا الصعبة والذلول وتعجل بعضهم فلم يسرج فرسه وخرجوا يجدون في أثره.

ولحقه فارس منهم مع الصباح فلما أدركه وصوب إليه رمحه ليطعنه عدل طليحة فرسه ومال به عن تصويب الفارسي فانصب الفارسي بين يديه وصار أمامه، فكر عليه طليحة وطعنه برمحه فقصم ظهره، وانطلق يعدو بفرسه فلحق به أعجمي آخر ففعل به مثل ما فعل بالأول وانطلق يعدو، فلحق به ثالث وقد رأى مصرع صاحبيه وهما ابنا عمه فازداد حنقاً، فلما لحق بطليحة وبوأ له الرمح ليطعنه عدل طليحة فرسه فانصب المجوسي أمامه وكر عليه طليحة وقد شرع رمحه ودعاه إلى الأسر، وأدرك المجوسي أنه مقتول فاستسلم. وكانا قد اقتربا من معسكر المسلمين، فأمره طليحة أن يركض بين يديه وهو يسوقه من خلفه برمحه وهو على فرسه فامتثل للأمر.

وأقبل جمع آخر من العجم يجدون في آثارهما فرأوا فارسيهم وقد قتلا وشاهدوا الثالث يركض مستسلماً أمام طليحة وقد أوشكا على دخول معسكر المسلمين فأحجموا ونكصوا ثم عادوا من حيث أتوا.

لما علم المسلمون بزحف المجوس إليهم تعبأوا للقتال. وجاء طليحة على فرسه يسحب وراءه الفرس التي غنم وأسيره يعدو بين يديه ودخل عسكر المسلمين ففزعوا منه ثم أجازوه حين عرفوه، فدخل على سعد.

قال له سعد: «ويحك ما وراءك؟»

قال طليحة: «دخلت عساكرهم وجستها منذ الليلة وقد أخذت أفضلهم توسماً وما أدرى أصبت أم أخطأت وها هوذا فاستخبره».

مسلم الفارسي

وأقيم الترجمان بين سعد والأسير.

فقال الأسير: «أتؤمنني على دمي إن صدقتك؟»

قال: «نعم الصدق في الحرب أحب إلينا من الكذب».

قال: «أخبركم عن صاحبكم هذا قبل أن أخبركم عمن قبلي. باشرت الحروب وغشيتها

وسمعت بالأبطال ولقيتها منذ أنا غلام إلى أن بلغت ما ترى، ولم أر ولم أسمع بمثل هذا. إن رجلاً قطع عسكرين لا يجترئ عليهما الأبطال إلى عسكر فيه سبعون ألفاً يخدم الرجل منهم الخمسة والعشرة إلى ما هو دون، فلم يرض أن يخرج كما دخل حتى سلب فارس الجند وهتك أطناب بيته فأنذره، فأنذرنا به فطلبناه، فأدركه الأول وهو فارس الناس يعدل ألف فارس فقتله، فأدركه الثانى وهو نظيره فقتله، ثم أدركته ولا أظن أننى خلفت بعدى من يعدلنى وأنا الثائر بالقتيلين وهما ابنا عمى، فرأيت الموت فاستأسرت».

ثم أخبره عن جيش فارس بأن الجند مائة وعشرون ألفاً وأن الاتباع مثلهم خدام لهم. يعنى أنهم كانوا جميعاً ٢٤٠٠٠٠ مائتين وأربعين ألفاً.

وأسلم الأسير فسماه سعد «مسلماً»، وشهد مع المسلمين القادسية وكان من أهل البلاء. وعاد مسلم إلى طليحة فقال له:

«لا والله لا تهزمون ما دمتم على ما أرى من الوفاء والصدق والإصلاح والمؤاساة. لا حاجة لى فى صحبة فارس».

غارة أخرى

قال[1] سعد لقيس بن هبيرة الأسدى: «اخرج يا عاقل، فإنه ليس وراءك من الدنيا شيء تحنو عليه حتى تأتينى بعلم القوم».

فخرج قيس ثم سرح سعد فى أثره عمرو بن معدى كرب وطليحة بن خويلد فلحقا به وقد حاذى قنطرة القادسية فانضما إليه، وانتهوا إلى خيل كثيرة بإزاء القنطرة تأتى من جهة عسكرهم قدمها أمامه جالنوس.

وصاح قيس بن هبيرة: «قاتلوا عدوكم يا معشر المسلمين».

وأنشب القتال فظلوا يتبارزون ساعة ثم حمل عليهم فأصاب منهم اثنى عشر قتيلاً وثلاثة أسرى وأصاب منهم بعض الغنائم وعادوا بذلك إلى سعد فقال: «هذه بشرى إن شاء الله إذا لقيتم جمعهم الأعظم وحدهم فلهم أمثالها».

أراد سعد بإشراك عمرو وطليحة مع قيس بن هبيرة الأسدى فى سريته تلك أن يعفّى على

---

(١) الطبرى ٣ / ٥١٤ س ش س عن محمد بن قيس عن موسى بن طريف.

آثار ما كان فى السرية السابقة. ودعاهما سعد بعد رجوع السرية.

فقال لهما: «كيف رأيتما قيساً؟»

قال طليحة: «رأيناه أكمانا».

وقال عمرو: «الأمير أعلم بالرجال منا».

قال سعد: «إن الله تعالى أحياناً بالإسلام وأحيا به قلوباً كانت ميتة وأمات به قلوباً كانت حية. وإني أحذركما أن تؤثرا أمر الجاهلية على الإسلام فتموت قلوبكما وأنتما حيّان. إلزما السمع والطاعة والاعتراف بالحقوق، فما رأى الناس كأقوام أعزهم الله بالإسلام».

الباب الخامس

وجهاً لوجه

آخر الطريق

نزل رستم السيلحين وبات بها فلما أصبح من غده قدّم جالنوس[1] فنزل تجاه القنطرة فى مواجهة زهرة بن الحوية والقنطرة بينهما . وبذلك وقف جيش رستم بن فرخزاذ وجيش سعد بن أبى وقاص وجهاً لوجه .

ونزل بهمن جاذويه منزل جالنوس بطيزناباذ .

ونزل رستم بمن معه من ميمنة وميسرة ومؤخرة منزل ذى الحاجب بهمن جاذويه بالخرارة .

ثم قدم بهمن جاذويه حتى إذا بلغ العتيق تياسر ، فلما كان تجاه قديس (الحصن الذى على خندق القادسية وهو الذى اتخذه سعد مقراً له) خندق خندقاً غير أنه لم ينزل فيه وإنما ارتحل جالنوس فنزل عليه حتى يظل فى المقدمة .

وبقيت للفرس خيل تجاه القنطرة خلف العتيق ، بينما زهرة والمقدمة على الجانب الآخر من القنطرة أمام العتيق .

وصلت السلحفاة

وأقبل رستم فى قواته فوقف بهم أمام عسكر سعد من وراء العتيق ، ولابد أن سعداً حينذاك كان ينظر إليهم من أعلى قديس يرقبهم ويقدرهم ويفحصهم فيرى أعداداً من الجند والخيل والأفيال لم تجتمع من قبل قط فى حرب العراق .

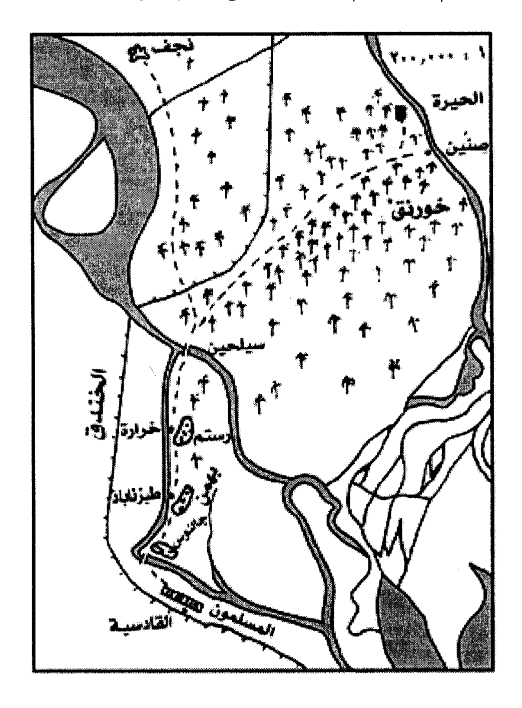
وأنزل رستم جنوده فمازالوا يتلاحقون وهو ينزلهم منازلهم ويحدد لهم أماكنهم حتى أعتموا ودخل الليل من كثرتهم .

وبات رستم وعسكره تلك الليلة من وراء العتيق والمسلمون ممسكون عنهم لا يحركون[2] ساكناً . لا شك أن العجم المجوس حال وصولهم إلى نهر العتيق لم يكونوا على التعبئة والمصاف

(١) الطبرى ٣ / ٥١٥ س ش س عن محمد وطلحة وعمرو وزياد وشاركهم المجالد وسعيد ابن المرزبان .

(٢) الطبرى ٣ / ٥١٥ س ش س عن محمد وطلحة وعمرو وزياد وشاركهم المجالد وسعيد ابن المرزبان .

الذى يمكنهم من الالتحام بالمسلمين فيما لو هاجموهم حينذاك، ولكن هل كان من الصواب أن يشن المسلمون هجومهم عليهم وهم يصلون تباعاً؟ إنه إغراء ولو فعلوه لكان ذلك خروجاً عن الخطة المرسومة ولا يجمل بقائد فى الميدان أن يخرج عن خطته المدروسة المرسومة لاستهواء إغراء عرضى غير مدروس. ولو حدث ذلك فدارت الدائرة على المسلمين - وهو احتمال فى الحرب جائز - لساء موقفهم أيما سوء إذ يكون العتيق وراء ظهورهم ومستنقعات الماء عن أيمانهم وعن شمائلهم، ولأعاد يوم الجسر نفسه على مقياس أكبر.



خريطة رقم (٦) مواقع ما قبل المعركة

وأصبحوا من ليلتهم تلك وهم بشاطئ العتيق، فغدا منجم رستم على رستم بحلم رآه من الليل!

قال: «رأيت الدلو في السماء دلواً أفرغ ماؤه، ورأيت السمكة في ضحضاح من الماء (الضحضاح من الماء: قريب القعر - الضحل) تضطرب، ورأيت النعائم والزهرة تزدهر».

قال: «ويحك هل أخبرت بها أحداً؟»

قال: «لا».

قال: «فاكتمها!»

أف لهؤلاء المجوس. كانوا يتبعون الأحلام والتنجيم يؤمنون به حتى في أشد حالات الجد، حتى لقد كان رستم يبكي مما يرى وما يراه منجموه[1].

بين رستم وزهرة

في هذا اليوم أصبح رستم راكباً في خيله، فنظر إلى المسلمين[2]، ثم سار جنوباً بشرق محاذياً العتيق نحو خفان يستعرض المسلمين وينظر إليهم حتى بلغ إلى آخر عسكرهم، فرجع وسار حتى بلغ القنطرة وهو يتأملهم، وصعد على شيء مرتفع يشرف منه عليهم. ثم نزل واتجه نحو القنطرة فوقف عليها وراسل زهرة فخرج إليه حتى وقف معه، فحدثه رستم حديثاً يريد به الصلح على أن يرجع المسلمون عنهم مقابل جُعل يجعله لهم. قال فيما قال:

«أنتم جيراننا وقد كانت طائفة منكم في سلطاننا، فكنا نحسن جوارهم ونكف الأذى عنهم ونوليهم المرافق الكثيرة ونحفظهم في أهل باديتهم فنرعيهم مراعينا ونميرهم من بلادنا ولا نمنعهم من التجارة في شيء من أرضنا، وقد كان لهم في ذلك معاش»...

وظل يعرّض لزهرة بالصلح تلميحاً لا تصريحاً.

قال زهرة: «صدقت. قد كان ما تذكر، وليس أمرنا أمر أولئك ولا طلبتنا طلبتهم. إنا لم نأتكم لطلب الدنيا وإنما طلبتنا وهمتنا الآخرة.

(١) الطبري ٣/٥١٦ س ش س عن الشعبي.

(٢) الطبري ٣/٥١٧ س ش س عن النضر عن ابن الرفيل عن أبيه.

كنا كما ذكرت يدين لكم من ورد عليكم منا ويضرع إليكم يطلب ما فى أيديكم، ثم بعث الله تبارك وتعالى إلينا رسولاً فدعانا إلى ربه فأجبناه. فقال لنبيه ﷺ إنى قد سلطت هذه الطائفة على من لم يدن بدينى، فأنا منتقم بهم منهم وأجعل لهم الغلبة ماداموا مقرين به. وهو دين الحق لا يرغب عنه أحد إلا ذل ولا يعتصم به أحد إلا عز».

قال رستم: «وما هو؟»

قال زهرة: «أماعموده الذى لا يصلح منه شىء إلا به فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والإقرار بما جاء من عند الله تعالى».

قال: «ما أحسن هذا، وأى شىء أيضاً؟».

قال: «وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله تعالى».

قال: «حسن، وأى شىء أيضاً؟»

قال: «والناس بنو آدم وحواء إخوة لأب وأم».

قال رستم: «ما أحسن هذا. أرأيت لو أنى رضيت بهذا الأمر وأجبتكم إليه ومعى قومى، كيف يكون أمركم أترجعون؟»

قال: «إى والله ثم لا نقرب بلادكم أبداً إلا فى تجارة أو حاجة».

قال: «صدقتنى. والله أما أن أهل فارس منذ ولى أردشير لم يدعوا أحداً يخرج من عمله من السفلة، كانوا يقولون إذا خرجوا من أعمالهم تعدوا طورهم وعادَوْا أشرافهم».

فقال زهرة: «نحن خير الناس للناس، فلا نستطيع أن نكون كما تقولون. نطيع الله فى السفلة ولا يضرنا من عصى الله فينا».

انصرف رستم فدعا حاشيته وتدارسوا هذا الحديث فسخنوا[1] منه وأنفوا. قال رستم: «أبعدكم الله وأسحقكم. أخزى الله أخرعنا[2] وأجبننا». وكان الرفيل الذى تقدم ذكره ورغب فى الإسلام حاضراً ذلك الاجتماع مع هؤلاء القوم الذين ذاكرهم رستم. يقول الرفيل هنا:

«فلما انصرف رستم ملتُ إلى زهرة فكان إسلامى وكنت له عديداً (أى معدوداً معه) وفرض لى فرائض أهل القادسية».

---

(١) فى الأصل «فحموا منه» بنفس المعنى.

(٢) الخرع: الرخاوة فى الشىء، وقد خرع الرجل أى ضعف فهو خرع - مختار الصحاح.

رسل إلى رستم

وأرسل رستم رجلاً إلى زهرة[1] يقول له :

«إن رستم يقول لكم أرسلوا إلينا رجلاً نكلمه ويكلمنا» .

وانصرف . فأرسل زهرة إلى سعد بذلك ، وأرسل سعد إلى المغيرة بن شعبة وبسر بن أبى رهم وعرفجة بن هرثمة وحذيفة بن محصن وربعى بن عامر وقرفة[2] ابن زاهر التيمى الواثلى ومذعور بن عدى العجلى والمضارب بن يزيد العجلى ومعبد بن مرة العجلى وكان من دهاة العرب ، فجاؤوا إليه وكانوا جميعاً ممن يثق سعد بدينهم ورأيهم .

قال : «إنى مرسلكم إلى هؤلاء القوم فما عندكم ؟»

قالوا جميعاً : «نتبع ما تأمرنا به وننتهى إليه . فإذا جاء أمر لم يكن منك فيه شىء نظرنا أمثل ما ينبغى وأنفعه للناس فكلمناهم به» .

قال سعد : «هذا فعل الحزمة . اذهبوا فتهيأوا» .

قال ربعى بن عامر : «إن الأعاجم لهم آراء وآداب ، ومتى نأتيهم جميعاً يروا أنا قد احتفلنا بهم ، فلا تزدهم على رجل» .

فمالأوه جميعاً على ذلك .

فقال ربعى : «فسر حونى» .

فبعثه سعد إلى هذه الوفادة .

---

(١) الطبرى ٣ / ٥١٨ س ش س عن محمد وطلحة وعمرو وزياد بإسنادهم .
الطبرى ٣ / ٥٢١ س ش س عن أبى عثمان النهدى .
الطبرى ٣ / ٥٢٤ س ش س عن محمد عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر .
و ٣ / ٥١٧ و ٥٢٤ س ش س عن النضر عن ابن الرفيل عن أبيه .
الطبرى ٣ / ٥٢٤ س ش س عن مجالد عن الشعبى وسعيد بن المرزبان .
الطبرى ٣ / ٥٢٥ س ش س عن عبيدة عن شقيق وقد شهد القادسية غلاماً بعدما احتلم .
الطبرى ٣ / ٥٢٦ س ش س عن عمارة بن القعقاع الضبى عن رجل من يربوع شهدها .
الطبرى ٣ / ٥٧٤ عن ابن حميد عن سلمة عن ابن إسحق عن وهب بن كيسان عن عبدالله ابن الزبير .
الإصابة ٧٢٨٤ - ٨٤٤١ .

(٢) ذكره ابن حجر باسم قرقرة بن زاهر التيمى - الإصابة ٧٢٨٤ .

خرج ربعي ليدخل على رستم عسكره فاحتجزه الذين على القنطرة وأرسلوا إلى رستم بمجيئه، فاستشار عظماء قومه. قال:

«ما ترون، أنباهى أم نتهاون؟»

فأجمعوا على التباهي[1]، فأظهروا الزبرْج وبسطوا البسط والنمارق[2] ولم يتركوا شيئاً، ووضع لرستم سرير الذهب وألبس زينته ووضعت الأنماط[3] والوسائد المنسوجة بالذهب. وأقبل ربعي على فرس له زبَّاء[4] قصيرة ومعه سيف مجلو مصقول وغمده لفافة ثوب بال ورمحه تثلم حده بسير من جلد غير مدبوغ ومعه حجفة (ترس) من جلود البقر ليس فيه خشب ولا عقب على وجهها أديم (جلد) أحمر مستدير مثل الرغيف، ومعه قوسه ونبله. فلما انتهى إلى رستم ووصل إلى أول البسط قيل له انزل فتجاهل ذلك وحمل فرسه على البساط فلما وقفت عليه نزل عنها وربطها بوسادتين فشقهما ثم أدخل الحبل فيهما فلم يستطيعوا أن ينهوه وإنما أروه التهاون. وأدرك ربعي ما أرادوا فأراد استحراجهم.

كان على ربعي درع له كأنها إضاة[5]، ورداؤه عباءة بعيره قد شقها وتدرع بها فشدها على وسطه بشيء مما غنمه من الفرس في معاركه السابقة، وقد شد رأسه بعمامته وكان أكثر العرب شعراً، وعمامته نسعة[6] بعيره ولرأسه أربع ضفائر قد قمن قياماً كأنهن قرون الوعول.

قالوا له: «ضع سلاحك».

قال: «إني لم آتكم فأضع سلاحي بأمركم. أنتم دعوتموني فإن أبيتم أن آتيكم إلا كما أريد وإلا رجعت».

---

(١) في الأصل: التهادن، ونعتقد الصواب التباهي فهو الذى فعلوه.

(٢) النمارق: وسائد صغيرة للاتكاء.

(٣) الأنماط: نوع من البسط.

(٤) الأزب: كثير شعر الوجه والأذنين، والأنثى زباء. وداهية زباء: أى عظيمة.

(٥) الاضاة: الغدير. ووجه الشبه فى تموجها وسهولة حركتها مع حركة الجسم ولا يكون ذلك إلا فى دروع الحلق المسرود.

(٦) النسعة: سير أو حبل عريض طويل تشد به الرحال.

فأخبروا رستم فقال: «ائذنوا له، هل هو إلا رجل واحد».

وأقبل ربعي يتوكأ على رمحه - ومكان زجه نصل - يقارب الخطو ويزج النمارق والبسط بزج رمحه فما ترك لهم نمرقة ولا بساطاً إلا أفسده، وتركه منتهكاً مخرقاً. فلما دنا من رستم تعلق به الحرس فجلس على الأرض وركز رمحه بالبسط.

قالوا: «ما حملك على هذا؟»

قال: «إنا لا نستحب القعود على زينتكم هذه».

قال رستم: «ما جاء بكم؟»

قال ربعي: «الله ابتعثنا والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه يليها دوننا. ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضي إلى موعود الله».

قال رستم: «وما موعود الله؟»

قال: «الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي».

فقال رستم: «قد سمعت مقالتكم فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا؟»

قال: «نعم، كم أحب إليكم؟ أيوماً أو يومين؟»

قال: «لا بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا».

وأراد مقاربته ومدافعته.

قال ربعي: «إن مما سن لنا رسول الله ﷺ وعمل به أئمتنا أن لا نمكن الأعداء من آذاننا، ولا نؤجلهم عند اللقاء أكثر من ثلاث، فنحن مترددون عنكم ثلاثاً فانظر في أمرك وأمرهم، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل»

اختر الإسلام وندعك وأرضك.

أو الجزاء (الجزية) فنقبل ونكف عنك، وإن كنت عن نصرنا غنياً تركناك منه وإن كنت إليه محتاجاً منعناك.

أو المنابذة (الحرب) فى اليوم الرابع.

ولسنا نبدؤك فيما بيننا وبين اليوم الرابع إلا أن تبدأنا، أنا كفيل لك بذلك على أصحابى وعلى جميع من ترى».

قال: «أسيدهم أنت؟»

قال: «لا ولكن المسلمين كالجسد بعضهم من بعض يجير أدناهم على أعلاهم».

وانفرد رستم برؤساء أهل فارس.

فقال: «ما ترون؟ هل رأيتم كلاماً قط أوضح ولا أعز من كلام هذا الرجل؟»

قالوا: «معاذ الله لك أن تميل إلى شىء من هذا وتدع دينك لهذا الكلب أما ترى إلى ثيابه؟»

قال: «ويحكم لا تنظروا إلى الثياب ولكن أنظروا إلى الرأى والكلام والسيرة. إن العرب تستخف باللباس والمأكل ويصونون الأحساب. ليسوا مثلكم فى اللباس ولا يرون فيه ما ترون».

وأقبلوا إليه يتناولون سلاحه ويعاينونه ويزهدونه فيه.

فقال لهم: «هل لكم إلى أن تُرُونى فأريكم؟»

فأخرج سيفه من خِرَقه كأنه شعلة نار. فقالوا له: «اغمده» فغمده.

ثم وضعوا له تُرْساً ووضع لهم حجفته فرمى ترسهم بسهم فخرقه ورموا حجفته بسهم فسلمت.

فقال لهم: «يا أهل فارس إنكم عظمتم الطعام واللباس والشراب وإنا صغرناهن».

ثم تركهم ورجع إلى معسكره إلى أن ينظروا إلى الأجل الذى منحه لهم وهو ثلاثة أيام.

حذيفة بن محصن

فلما كان من الغد بعث الفرس: «أن ابعث إلينا ذلك الرجل».

فبعث سعد إليهم حذيفة بن محصن وهو من الأزد وله تاريخ معروف. كان من قواد أبى بكر لقتال المرتدين وقد وجهه أبو بكر ومعه عكرمة بن أبى جهل لقتال مرتدى الأزد فى

عمان، فدعاهم حذيفة إلى الإسلام فأسلموا كلهم إلا أهل دبا فولاه أبو بكر عليهم، ومات أبو بكر وحذيفة أميرهم. وكان من أصحاب الأيام بالعراق فكان مع المثنى بن حارثة وقد شهد معه البويب ثم كان على المقدمة فى غارات المثنى على أسواق الشمال وأغار مع المثنى على تكريت.

وأقبل حذيفة على رستم فى زى يشبه زى ربعى الذى ذهب به بالأمس حتى إذا كان على أدنى البساط قالوا له: «انزل».

قال: «ذلك لو جئتكم فى حاجتى، فقولوا لملككم أله الحاجة أم لى؟ فإن قال لى فقد كذب ورجعت وتركتكم، فإن قال له لم آتكم إلا على ما أحب».

فقال رستم: «دعوه».

فدخل حذيفة بفرسه حتى بلغ رستم وهو على سريره.

فقال له رستم: «انزل».

قال: «لا أفعل». وأبى.

قال رستم: «ما بالك جئت ولم يجيء صاحبنا بالأمس؟».

قال: «إن أميرنا يحب أن يعدل بيننا فى الشدة والرخاء فهذه نوبتى».

قال: «ما جاء بكم؟»

قال: «إن الله عز وجل منّ علينا بدينه وأرانا آياته حتى عرفناه وكنا له منكرين.

ثم أمرنا بدعاء الناس إلى واحد من ثلاث فأيها أجابوا إليها قبلناها:

الإسلام وننصرف عنكم.

أو الجزاء ونمنعكم إن احتجتم إلى ذلك.

أو المنابذة».

فقال رستم: «أو الموادعة إلى يوم ما».

قال حذيفة: «نعم. ثلاثاً من أمس».

ولم يجد رستم عنده إلا ذلك فردّه وأقبل على أصحابه فقال:

«ويحكم، ألا ترون ما أرى؟ جاءنا الأول فغلبنا على أرضنا وحقر ما نعظّم وأقام فرسه على

زبْرِجنا وربطه به فهو فى يمن الطائر ذهب بأرضنا وما فيها اليهم مع فضل عقله. وجاءنا هذا اليوم فوقف علينا فهو فى يمن الطائر يقوم على أرضنا دوننا».

وظل رستم يحدثهم بمثل هذا حتى أغضبهم وأغضبوه.

المغيرة بن شعبة

فلما كان الغد أرسل رستم إلى سعد أن يبعث إليه رجلاً فبعث إليه المغيرة بن شعبة. وجاء المغيرة إلى القنطرة فأجازه زهرة إلى جالنوس فأبلغه إلى رستم فحجزوه حتى استأذنوا له، ولم يغيروا شيئاً من شاراتهم وزيهم الذى كانوا عليه، وعليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب وبسطهم على غلوة[1]. ودعا رستم ترجمانه وكان عربياً من أهل الحيرة اسمه عبود، وأقبل المغيرة يمشى وله أربع ضفائر، وفرق رأسه أربع فرق من بين يديه إلى قفاه وفرق ما بين أذنيه[2]، وجاء حتى جلس مع رستم على سريره ووسادته، فنخر أخو رستم! ووثب الفرس فترتروه وأنزلوه ومعَّثوه[3].

قال المغيرة لأخى رستم: «لا تنخر، فما زادنى هذا شرفاً ولا نقص أخاك. كانت تبلغنا عنكم الأحلام ولا أرى قوماً أسفه منكم. إنا معشر العرب سواء لا يستعبد بعضنا بعضاً إلا أن يكون محارباً لصاحبه فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى، وكان أحسن من الذى صنعتم أن تخبرونى أن بعضكم أرباب بعض وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلم نصنعه، ولم آتكم ولكن دعوتمونى. اليوم علمت أن أمركم مضمحل وأنكم مغلوبون وأن ملكاً لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول».

وإذا كان المغيرة يعرف الفارسية حينذاك فهو لم يظهر معرفته بها فكان الترجمان يترجم مقالته. قال له المغيرة:

«ويحك يا عبود. أنت رجل عربى فأبلغه عنى إذا أنا تكلمت كما تبلغنى عنه».

بينما قالت السفلة من المجوس: «صدق والله العربى».

وقالت الدهاقين: «والله لقد رمى بكلام لايزال عبيدنا ينزعون إليه، قاتل الله أولينا، ما

---

(١) الغلوة: عشر ميل، حوالى ١٨٥ متراً.

(٢) الطبرى ٣ / ٥٧٤ من حديث ابن إسحق.

(٣) مغثوه: زغدوه، ومغث الرجل: ضربه ضرباً غير مبرح. ترتر الشىء: حركه وزعزعه.

كان أحمقهم حين كانوا يصغرون أمر هذه الأمة».

من الطبيعي حين تفقد أمة حرية التعبير أن تميل إلى سماع ما يذيعه أعداؤها لاسيما إذا كان حقاً. وأراد رستم أن يمحو آثار ما حدث فقال وهو يمازحه:

«يا عربي إن الحاشية قد تصنع ما لا يوافق الملك فيتراخى عنها مخافة أن يكسرها عما ينبغي من ذلك فالأمر على ما تحب من الوفاء وقبول الحق».

ثم أشار إلى السهام التي معه وقال:

«ما هذه المغازل التي معك؟ لا تروا أن هذه المغازل تغني عنكم شيئاً».

قال: «ما ضر الجمرة ألا تكون طويلة[1]».

ثم راماهم كما فعل ربعي في أمسه الأول.

قال رستم: «ما بال سيفك رثاً».

قال: «رث الكسوة حديد المضربة».

ثم أعطاه سيفه ليراه.

قال رستم: «تكلم أم أتكلم؟»

قال المغيرة: «أنت الذي بعثت إلينا فتكلم».

وتكلم رستم فحمد قومه وعظم أمرهم وطوّله وقال:

«لم نزل متمكنين في البلاد ظاهرين على الأعداء أشرافاً في الأمم، فليس لأحد من الملوك مثل عزنا وشرفنا وسلطاننا، نُنصر على الناس ولا يُنصرون علينا إلا اليوم واليومين أو الشهر والشهرين للذنوب، فإذا انتقم الله فرضيَ رَدَّ إلينا عزنا وجَمَعْنا لعدونا شر يوم هو آت عليهم. ثم لم يكن في الناس أمة أصغر عندنا أمراً منكم. كنتم أهل قشف ومعيشة سيئة وشقاء وجهد. لا نراكم شيئاً ولا نعدكم، وكنتم تأتوننا من بين تاجر وأجير ووافد، وكنتم إذا قحطت أرضكم وأصابتكم السنة استغثتم بناحية أرضنا فنأمر لكم بالشيء من التمر والشعير ثم نردكم.

فأكلتم من طعامنا وشربتم من شرابنا واستظللتم من ظلالنا، فذهبتم فدعوتم أصحابكم ثم

---

(١) من المعروف أن سهام الفرس كانت طويلة وكانوا يسمونها نشاباً.

أتيتمونا بهم، وإنما مثلكم مثل رجل كان له حائط (بستان) من عنب فرأى فيه ثعلباً واحداً فقال: ما ثعلب واحد، فانطلق الثعلب فدعا الثعالب إلى الحائط فلما اجتمعن فيه جاء الرجل فسد الجحر الذى دخلن منه ثم قتلهن جميعاً.

وقد علمت أنه لم يحملكم على ما صنعتم إلا ما أصابكم من الجهد فى بلادكم، فارجعوا عنا عامكم هذا فإنكم قد شغلتمونا عن عمارة بلادنا وعن عدونا ونحن نوقر لكم ركائبكم[1] قمحاً وتمراً، فأنا آمر لأميركم بكسوة وبغل وألف درهم وآمر لكل رجل منكم بوقر تمر وبثوبين وتنصرفون عنا فإنى لست أشتهى أن أقتلكم ولا آسركم، فارجعوا عنا عافاكم الله!»

وتكلم المغيرة بن شعبة فحمد الله وأثنى عليه وقال:

«إن الله خالق كل شيء ورازقه، فمن صنع شيئاً فإنما هو يصنعه والذى له. وأما الذى ذكرت به نفسك وأهل بلادكم من الظهور على الأعداء والتمكن فى البلاد وعظم السلطان فى الدنيا فنحن نعرفه ولسنا ننكره، فالله صنعه بكم ووضعه فيكم وهو له دونكم.

وأما الذى ذكرت فينا من سوء الحال وضيق المعيشة واختلاف القلوب فنحن نعرفه ولسنا ننكره، كنا فى مثله أو أشد منه، أفضلنا فى أنفسنا عيشاً الذى يقتل ابن عمه ويأخذ ماله فيأكله، نأكل الميتة والدم والعظام، والله ابتلانا بذلك وصيرنا إليه والدنيا دول، ولم يزل أهل شدائدها يتوقعون الرخاء حتى يصيروا إليه، ولم يزل أهل رخائها يتوقعون الشدائد حتى تنزل بهم ويصيروا إليها.

ولو كنتم فيما آتاكم الله ذوى شكر كان شكركم يقصر عما أوتيتم وأسلمكم ضعف الشكر إلى تغير الحال. ولو كنا فيما ابتلينا به أهل كفر كان عظيم ما تتابع علينا مستجلباً من الله رحمة يُرفه بها عنا. ولكن الشأن غير ما تذهبون إليه أو كنتم تعرفوننا به.

إن الله تبارك وتعالى بعث فينا رسولاً وأنزل عليه الكتاب، فدعانا إلى الله وإلى ما بعثه به فصدقه منا مصدق وكذب منا آخر، فقاتل من صدقه من كذبه حتى دخلنا فى دينه من بين موقن به وبين مقهور حتى استبان لنا أنه صادق وأنه رسول من عند الله. فأمرنا أن نقاتل من خالفنا...».

حتى قال: «... فكان مما رزقنا الله على يديه حبة تنبت فى أرضكم هذه، فلما أذقناها عيالنا قالوا لا صبر لنا عنها فجئنا لنطعمهم أو نموت».

(١) أى نحمل لكم ركائبكم. والوقر: الحمل الثقيل.

فقال رستم: «إذن تموتون أو تقتلون».

قال المغيرة: «إذن يدخل من قُتل منا الجنة ويدخل من قتلنا منكم النار ويظفر من بقى منا بمن بقى منكم. فنحن نخيرك بين إحدى ثلاث خلال، إلى الإسلام ولكم فيه ما لنا وعليكم فيه ما علينا، ليس فيه تفاضل بيننا، أو الجزية عن يد وأنتم صاغرون..».

فلم يفهمها رستم فسأل: «ما صاغرون؟»

قال المغيرة: «أن يقوم الرجل منكم على رأس أحدنا بالجزية يحمده أن يقبلها منه، وإن احتجت إلينا نمنعك. فكن لنا عبداً تؤدى الجزية عن يد وأنت صاغر وإلا السيف إن أبيت. والإسلام أحب إلينا منهما».

فاستشاط رستم غضباً وقال: «ما كنت أظن أنى أعيش حتى أسمع منكم هذا معشر العرب». وخرج عن ما ينبغى أن يكون من أخلاقيات سادة الدول وما يجوز من مستوى التفاوض بين الأمم فهبط إلى مستوى السوقة والدهماء ونخر نخرة، ثم نسى أحلامه وتنجيمه فحلف بالشمس.

«لا يرتفع لكم الصبح غداً حتى أفرغ منكم وأقتلكم أجمعين. لا صلح بيننا وبينكم».

وخرج المغيرة من مجلس رستم، فلما صاروا وحدهم قال لهم رستم:

«أين هؤلاء منكم؟ ما بعد هذا؟ ألم يأتكم الأولان فحسراكم واستحرجاكم، ثم جاءكم هذا فلم يختلفوا وسلكوا طريقاً واحداً ولزموا أمراً واحداً. هؤلاء والله الرجال صادقين كانوا أم كاذبين. والله لئن كان بلغ من إربهم وصونهم لسرهم أن لا يختلفوا فما قوم أبلغ فيما أرادوا منهم. لئن كانوا صادقين ما يقوم لهؤلاء شيء».

فلجوا وجادلوا، قال: «والله إنى لأعلم أنكم تصغون إلى ما أقول لكم وإن هذا منكم رثاءً».

فازدادوا الجاجة.

وأرسل[1] رستم مع المغيرة رجلاً وقال له إذا قطع القنطرة ووصل إلى أصحابه فناده: «إن الملك كان منجماً قد حسب لك ونظر فى أمرك فقال إنك غداً تفقأ عينك» فقال له الرجل ذلك.

فقال المغيرة: «بشرتنى بخير وأجر ولولا أن أجاهد بعد اليوم أشباهكم من المشركين لتمنيت أن الأخرى ذهبت أيضاً».

---

(١) الطبرى ٣ / ٥٢٤ س ش س عن النضر بن الرفيل عن أبيه.

فرآهم يضحكون من مقالته ويتعجبون من بصيرته. ورجع الرجل إلى رستم بذلك.

فقال رستم: «أطيعونى يا أهل فارس وإنى لأرى لله فيكم نقمة لا تستطيعون ردها عن أنفسكم».

وكانت خيول الفرس تتحرش بخيول المسلمين، تلتقى على القنطرة لا تلتقى إلا عليها، الفرس يبدءون والمسلمون ممسكون عنهم الأيام الثلاثة لا يبدءونهم ولكن يصدونهم ويردعونهم.

سائر الوفد

ثم بعث سعد إلى رستم[1] بقية ذوى الرأى فيما عدا ربعى وحذيفة والمغيرة فكانوا ستة، خرجوا حتى جاءوه.

فقالوا له: «إن أميرنا يقول لك إن الجوار يحفظ الولاة، وإنى أدعوك إلى ما هو خير لنا ولك، العافية أن تقبل ما دعاك الله إليه ونرجع إلى أرضنا وترجع إلى أرضك وبعضنا من بعض إلا أن داركم لكم وأمركم فيكم، وما أصبتم مما وراءكم كان زيادة لكم دوننا وكنا لكم عوناً على أحد إن أرادكم أو قوى عليكم.

واتق الله يا رستم ولا يكونن هلاك قومك على يديك فإنه ليس بينك وبين أن تغبط به إلا أن تدخل فيه وتطرد به الشيطان عنك».

قال رستم: «إنى قد كلمت منكم نفراً ولو أنهم فهموا عنى رجوت أن تكونوا قد فهمتم. وإن الأمثال أوضح من كثير من الكلام، وسأضرب لكم مثلكم تبصروا..

إنكم كنتم أهل جهد فى المعيشة وقَشفٍ فى الهيئة، لا تمتنعون ولا تنتصفون فلم نسىء جواركم ولم ندع مواساتكم، تقحمون المرة بعد المرة فنميركم (نمونكم) ثم نردكم، وتأتونا أجراء وتجاراً فنحسن إليكم.

وقد أصاب أناس كثير منكم من أرضنا ما أرادوا ثم كان مصيرهم القتل[2] والهرب، ومن سن هذا لكم (يقصد الفرس) خير منكم وأقوى. وقد رأيتم أنتم كلما أصابوا شيئاً أصيب بعضهم ونجا بعضهم وخرج مما كان أصاب (يقصد الزحوف السابقة ثم انسحابها).

فلما تطاعمتم بطعامنا وشربتم شرابنا وأظلكم ظلنا وصفتم لقومكم فدعوتموهم ثم أتيتمونا بهم. وإنما مثلكم فى ذلك ومثلنا كمثل رجل كان له كرم فرأى فيه ثعلباً فقال وما

---

(١) الطبرى ٣ / ٥٢٥ س ش س عن محمد وطلحة وزياد.

(٢) يقصد يوم الجسر. الطبرى ٣ / ٥٢٦ س ش س عن عمارة بن القعقاع الضبى عن رجل من يربوع شهدها.

ثعلب ! فانطلق الثعلب فدعا الثعالب إلى ذلك الكرم فلما اجتمعن عليه سد عليهن صاحب الكرم الجحر الذى كن يدخلن منه فقتلهن. إنما مثلكم مثل ثعلب دخل جحراً وهو مهزول ضعيف إلى كرم فكان فيه يأكل ما شاء الله فرآه صاحب الكرم ورأى ما به فرحمه، فلما طال مكثه فى الكرم وسمن وصلحت حاله وذهب ما كان به من الهزال أشِر فجعل يعبث بالكرم ويفسد أكثر مما يأكل. فاشتد على صاحب الكرم فقال لا أصبر على هذا من أمر هذا، فأخذ له خشبة واستعان عليه غلمانه فطلبوه وجعل يراوغهم فى الكرم فلما رأى أنهم غير مقلعين عنه ذهب ليخرج من الجحر الذى دخل منه فنشب، اتسع عليه وهو مهزول وضاق عليه وهو سمين. فجاءه وهو على تلك الحال صاحب الكرم فلم يزل يضربه حتى قتله. وقد جئتم وأنتم مهازيل وقد سمنتم شيئاً فانظروا كيف تخرجون !

ومن أمثالكم فيما تصنعون مثل جرذان ألفت جرة فيها حب وفى الجرة ثقب، فدخل الأول فأقام فيها وجعل الآخر ينقلن منها ويرجعن ويكلمنه فى الرجوع فيأبى. فانتهى سمن الذى فى الجرة (أى بلغ نهاية السمن) فاشتاق إلى أهله ليريهم حسن حاله فضاق عليه الجحر ولم يطق الخروج فشكا القلق إلى أصحابه وسألهم المخرج. فقلن له ما أنت بخارج منها حتى تعود كما كنت قبل أن تدخل، فكفّ وجوّع نفسه وبقى فى الخوف حتى إذا عاد كما كان قبل أن يدخلها أتى عليه صاحب الجرة فقتله. فاخرجوا ولا يكونن هذا لكم مثلاً.

إن رجلاً وضع سلاً وجعل طعامه فيه فأتى الجرذان فخرقوا سله فدخلوا فيه فأراد سده فقيل له لا تفعل إذن يخرقنه، ولكن انقب بحياله ثم اجعل فيه قصبة مجوفة فإذا جاءت الجرذان دخلن من القصبة وخرجن منها فكلما طلع عليكم جُرذ قتلتموه. وقد سددت عليكم فإياكم أن تقتحموا القصبة فلا يخرج منها أحد إلا قتل.

وما دعاكم إلى ما صنعتم ولا أرى عدداً ولا عدة !؟

لم يخلق الله خلقاً أولع من ذباب ولا أضر أما خلاكم يا معشر العرب، ترون الهلاك ويدليكم فيه الطمع. وسأضرب لكم مثلكم. إن الذباب إذا رأى العسل طار وقال من يوصلنى إليه وله درهمان حتى يدخله لا ينهنهه أحد إلا عصاه، فإذا دخله غرق ونشب وقال من يخرجنى وله أربعة دراهم.

وقد علمت أن الذى حملكم على هذا الحرص والطمع والجهد فارجعوا عنا عامكم هذا وامتاروا حاجتكم ولكم العود كلما احتجتم، فإنى لا أشتهى أن أقتلكم».

فرغ رستم من ثرثرته العقيمة وأجابه[1] الوفد فقال قائلهم :

«أما ما ذكرتم من سوء حالنا فيما مضى وانتشار أمرنا (عدم اجتماعه) فلما تبلغ كنهه. يموت الميت منا إلى النار ويبقى الباقى منا فى بؤس، فبينما نحن فى أسوأ ذلك بعث الله فينا رسولاً من أنفسنا إلى الإنس والجن، رحمة رحم بها من أراد رحمته، ونقمة ينتقم بها ممن رد كرامته. فبدأ بنا قبيلة قبيلة فلم يكن أحد أشد عليه ولا أشد إنكاراً لما جاء به ولا أجهد على قتله ورد الذى جاء به من قومه ثم الذين يلونهم، حتى طابقناه على ذلك كلنا، فنصبنا له جميعاً وهو وحده فرد ليس معه إلا الله تعالى فأعطى الظفر علينا، فدخل بعضنا طوعاً وبعضنا كرهاً ثم عرفنا جميعاً الحق والصدق لما أتانا به من الآيات المعجزة، وكان مما أتانا به من عند ربنا جهاد الأدنى فالأدنى فسرنا بذلك فيما بيننا نرى أن الذى قال لنا ووعدنا لا يُخرم عنه ولا يُنقض حتى اجتمعت العرب على هذا، وكانوا من اختلاف الرأى فيما لا يطيق الخلائق تأليفهم.

ثم أتيناكم بأمر ربنا نجاهد فى سبيله وننفذ لأمره ونتنجز موعوده وندعوكم إلى الإسلام وحكمه، فإن أجبتمونا تركناكم ورجعنا وخلفنا فيكم كتاب الله، وإن أبيتم لم يحل لنا إلا أن نعاطيكم القتال أو تفتدوا بالجزى (الجزية). فإن فعلتم وإلا فإن الله قد أورثنا أرضكم وأبناءكم وأموالكم، فاقبلوا نصيحتنا، فوالله لإسلامكم أحب إلينا من غنائمكم، ولقتالكم بعد أحب إلينا من صلحكم.

وأما ما ذكرت من رثاثتنا وقلتنا فإن أداتنا الطاعة وقتالنا الصبر. وأما ما ضربتم لنا الأمثال، فإنكم ضربتم للرجال والأمور الجسام وللجد الهزل. ولكنا سنضرب مثلكم. إنما مثلكم مثل رجل غرس أرضاً واختار لها الشجر والحب وأجرى إليها الأنهار وزينها بالقصور، وأقام فيها فلاحين يسكنون قصورها ويقومون على جناتها، فخلا الفلاحون فى القصور على ما لا يحب وفى الجنان بمثل ذلك، فأطال نظرتهم فلما لم يستحيوا من تلقاء أنفسهم استعتبهم فكابروه، فدعا إليها غيرهم وأخرجهم منها، فإن ذهبوا عنها تخطفهم الناس وإن أقاموا فيها صاروا خولاً لهؤلاء يملكونهم ولا يملكون عليهم، فيسومونهم الخسف أبداً.

والله إن لو لم يكن ما نقول لك حقاً، ولم يكن إلا الدنيا لما كان عما ضرينا به من لذيذ عيشكم ورأينا من زِبْرِجكم من صبر ولقارعناكم حتى نغلبكم عليه».

---

(١) الطبرى ٣ / ٥٢٨ س ش س عن محمد وطلحة بإسنادهما وزياد معهما.

نهاية المفاوضات

إلى هنا وقد جاءت هذه المفاوضات إلى نهايتها. وفى الواقع أنه لم يكن لأى مراقب أن يتوقع لها منذ البداية غير هذه النهاية.

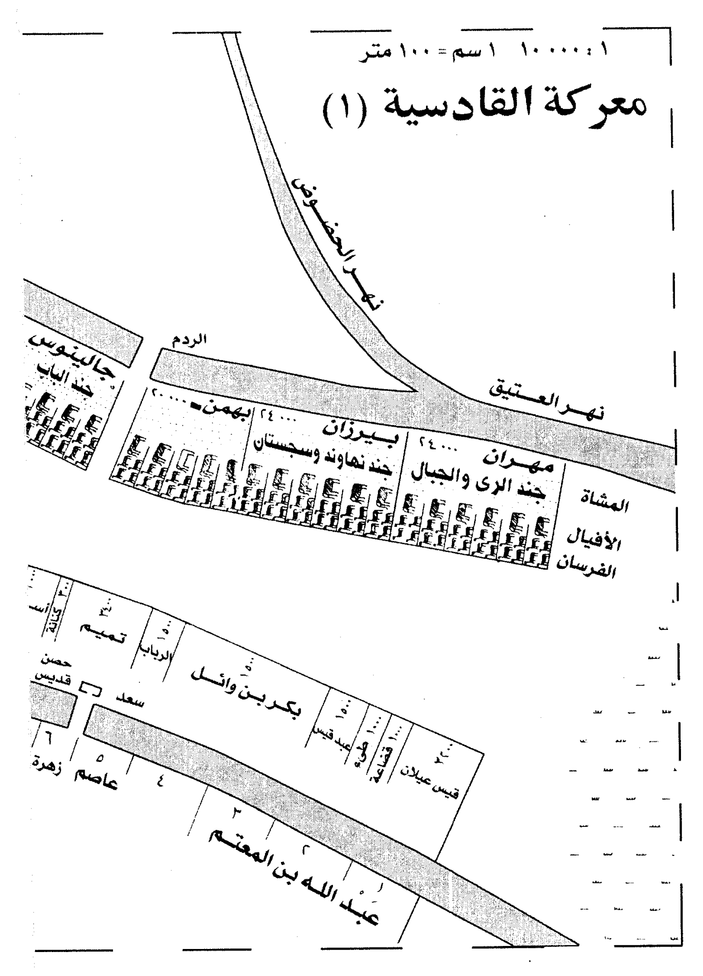
قال رستم: «أتعبرون إلينا أم نعبر إليكم؟»

قالوا: «بل اعبروا إلينا».

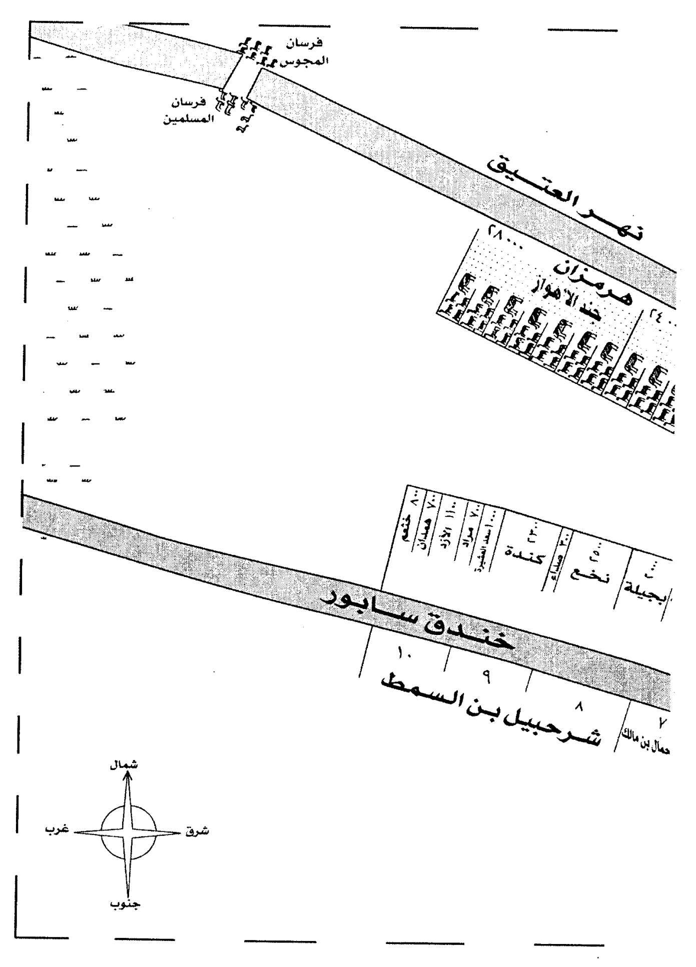
وخرجوا من عنده عشياً، فأرسل سعد إلى وحدات المسلمين أن يقفوا مواقفهم. وأرسل إلى رستم يسمح له بالعبور ويقول له:

«شأنكم والعبور».

وبدأت جموع الفرس تتجه نحو القنطرة ليعبروها، وكان سعد فى مقامه الطويل بموقع القادسية قد اعتزم أن يحتفظ فى يده بهذه القنطرة لأهميتها البالغة. فهى مخرج سهل للمجوس حين تدور عليهم الدائرة لم يشأ أن يتركها لهم حتى لا يتاح لهذا الجيش الضخم أن ينسحب إلى مواقع أخرى فيصمد فى معارك تالية. المطلوب إبادة هذا الجيش - أو إبادة أكثر ما يمكن منه - لا مجرد دفعه إلى الوراء. الهدف تحطيم القوة العسكرية لفارس لا اكتساب قطعة من الأرض، فإذا أبيد هذا الجيش انفتحت الأرض من ورائه، أما اكتساب الأرض مع بقاء الجيش سليماً فإنه يكر فى هجمات مضادة مرة بعد مرة ما دام متماسكاً سليماً كذلك رسم عمر خطته، ولقد مر بنا فيما كتب إلى سعد «... ثم الزم مكانك فلا تبرحه فإنهم إذا أحسوك أنغضتهم بجمعهم الذى يأتى على خيلهم ورجلهم وحدهم وجدهم فإن أنتم صبرتم لعدوكم واحتسبتم لقتاله ونويتم الأمانة رجوت أن تنصروا عليهم ثم لا يجتمع لكم مثلهم أبداً إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم...» وفى رسالة أخرى «... فإن منحك الله أدبارهم فلا تنزع عنهم حتى تقتحم عليهم المدائن فإنه خرابها إن شاء الله». هذه عبقرية الحرب للخليفة ومن واجب قائد الميدان «الفيلد مارشال». أن ينفذ هذا ويحققه، وإذا فلن يترك لهم القنطرة وقد استحوذ عليها.



خريطة رقم (٧) معركة القادسية



خريطة رقم (٧) معركة القادسية

الباب السادس

أرماث

الخميس ١٣ شعبان ١٥ هـ - ١٩ سبتمبر (أيلول) ٦٣٦م

نام رستم وراح الأتباع من جيشه يردمون العتيق. ومع أصوات المعاول أغفى رستم فعاودته أحلامه ورأى ذلك الحلم المتكرر. رأى ملكاً ينزل من السماء فيأخذ قسي أصحابه فيختم عليها ثم يصعد بها إلى السماء. فاستيقظ مهموماً محزوناً، ودعا خاصته فقص عليهم ما رأى، ثم انفعل فقال:

«إن الله ليعظنا لو أن فارس تركوني أتعظ! أما ترون النصر قد رفع عنا وترون الريح مع عدونا، وأنا لا نقوم لهم في فعل ولا منطق، ثم هم يريدون مغالبة بالجبرية (بالإرغام)».

ثم شرعوا يعبرون العتيق بأثقالهم حسب تعبئتهم فرقة وراء فرقة، كلما عبرت فرقة أخذت[1] مواقعها وصفت صفوفها.

وألقى رستم جانباً هواجسه وتشاؤمه وعمل بالواجب عليه من الظهور بما يليق بقائد شجاع يستعرض لياقته وفروسيته، فأمر بفرسه فأسرج وأتى به إليه فوثب فوقه فإذا هو عليه لم يمسه ولم يضع رجله في الركاب.

ثم قال: «غداً ندقهم».

قال له رجل: «إن شاء الله».

قال رستم بكل كفره: «وإن لم يشأ[2]! إنما ضغا الثعلب حين مات الأسد - يذكرهم بموت كسرى برويز - قد خشيت أن تكون هذه سنة القرود».

ونصب لرستم سرير أمام العتيق وضرب عليه طيارة (نظنها سرادقاً مفتوحاً أو مظلة تصفق الريح أطرافها) وجلس رستم على هذا السرير يباشر إشرافه على تعبئة جيشه ووضع فرقه في أماكنها وصف صفوفها. ونصبت إلى جوار رستم على يمين سريره راية فارس الكبرى «درفش كابيان» على خُشب موصولة طوال[3]. كان مع رستم في هذا الحشد ثلاثة وثلاثون فيلاً جعل في القلب ثمانية عشر فيلاً منها، عليها الصناديق الخشبية فيها الرجال. وجعل في

---

(١) الطبرى ٣ / ٥٢٩ س ش س عن محمد وطلحة وزياد وعمرو بإسنادهم.

(٢) الطبرى ٣ / ٥٢٩ س ش س عن الأعمش.

(٣) ذكرناها بإفاضة فى الجزء الأول من «الطريق إلى المدائن، فصل الأعلام والرايات من باب عدة الحرب».

الميمنة ثمانية أفيال وفى الميسرة سبعة وكلها عليها الصناديق فيها الرجال . كان الميدان محدوداً بحدود تحصره وليس فيه مجال لمقدمة ومؤخرة . كان هرمزان على ميمنة رستم فوضع قوات المقدمة وعليها جالنوس بينهما . وكان مهران على ميسرته فوضع رستم بيرزان وقواته من الطلائع بينهما . وخشى رستم أن يترك للمسلمين فرصة الالتفاف من وراء العتيق فوضع خيلاً من وراء القنطرة حيث كانت خيل المسلمين أمامها فبقيت القنطرة بين خيلين من خيول المسلمين والمجوس كل منها تغلقها على الطرف الآخر .

سلاح الإشارة

أما عن الاتصال بالمدائن فقد وضع له يزدجرد نظاماً جديداً مستحدثاً بدلاً من نظام البريد التقليدى ، وقد بدأ ذلك من يوم بُعث رستم من المدائن ، فقد وضع رجلاً على باب إيوانه وأمره بلزوم مكانه ذاك فلا يبرحه ، ووضع رجلاً آخر من الدار حيث يسمعه الرجل الأول الذى على باب الإيوان ، وثالثاً خارج الدار حيث يسمعه الرجل الثانى وهكذا على كل «دعوة» (وهى مسافة السمع) . فلما نزل رستم بساباط قال الذى بها «قد نزل» فأعادها الذى يليه ليبلغ بها الذى بعده وهكذا حتى قالها الذى على باب الإيوان . وهكذا كان كلما نزل رستم أو ارتحل أو حدث أمر صاح به الذى عنده ثم الذى يليه حتى تبلغ من بباب الإيوان ، فنظم ما بين العتيق والمدائن رجالاً وترك نظام البريد . هذه الطريقة التى كان عليها أن تغطى مسافة تبلغ حوالى ٢٢٠ كيلو متراً بين القادسية والمدائن تقديرنا أنها كانت تحتاج إلى حوالى ٢٠٠٠ (ألفين) من الرجال ذوى السمع الحاد والعقائر العالية ، ونقدر أن الجملة المكونة من أربع كلمات كانت تصل من القادسية إلى المدائن فى حوالى أربع ساعات فى حين كان يصل البريد فى حوالى ثلاثة أيام .

هذا فى حين كان سعد يعتمد فى اتصاله بعمر على أن يبعث إليه كل يوم بريداً . وكان الناس فى كافة شبه الجزيرة فيما بين العذيب إلى عدن وفيما بين الأبلة وأيلة (العقبة) يتابعون باهتمام بالغ ما يكون من أمر القادسية حتى أن كان الرجل ليريد الأمر فيقول لا أنظر فيه حتى أنظر ما يكون من أمر القادسية[١] . وكان عمر يخرج كل يوم حين يصبح حتى ينتصف النهار يستخبر الركبان عن أهل القادسية[٢] .

---

(١) الطبرى ٣ / ٥٨٣ س ش س عن محمد والمهلب وطلحة .
(٢) الطبرى ٣ / ٥٨٣ س ش س ،عن مجالد بن سعيد .

مصاف

وأخذ المسلمون مصافهم فأدخل سعد المقدمة وعليها زهرة بن حوية التميمى، وكذلك المؤخرة وعليها عاصم بن عمرو التميمى فى الوسط بين ميمنة عبدالله بن المعتم وبين ميسرة شرحبيل بن السمط. ووكل الطراد (المبارزة) إلى صاحب الطلائع سواد بن مالك الأسدى، وشغل المسافات والفجوات فخلط بين الجند فى القلب والمجنبات. ونادى منادى سعد فى جيشه:

«ألا إن الحسد لا يحل إلا على الجهاد فى أمر الله يا أيها الناس، فتحاسدوا وتغايروا على الجهاد».

سعد مريض

رأينا فيما سبق أهمية القائد العام فى المعركة، ولقد اعتاد المسلمون دائماً أن يجدوه بينهم على صهوة جواده كواحد منهم. كذلك كان خالد وكذلك كان المثنى والقعقاع وعاصم والأقرع وغيرهم. أما اليوم فقد تحالفت الأمراض والأدواء على سعد فأصابته بعرق النسا[1] وبحبوب ودمامل منعته من الركوب بل حتى من الجلوس فلم يستطع أن يركب ولا أن يجلس فاعتلى القصر وأكب من فوقه على وسادة فى صدره يشرف على الناس، وأسفل منه فى الميدان خليفته خالد بن عرفطة يرمى إليه من أعلى بالرقاع فيها أمره ونهيه. وكان آخر صفوف المسلمين إلى جانب القصر[2].

شغب

والفرس فى مصافهم، والمسلمون فى صفوفهم، ومن الجائز أن تبدأ المعركة فى أى لحظة

---

(١) عرق النسا مرض يطلق على إصابة عصب الطرف السفلى الأسفل Siatic nerve وهو يتكون من الأعصاب القطنية والعجزية التى تبدأ فى أسفل العمود الفقرى وتتجمع وتكون العصب الذى يمتد لبعض الوقت على جانب العمود الفقرى فى أعلى الحوض ثم يتجه خلف عظمة الحوض ويأخذ مجراه خلف الفخذ وخلف بطن الرجل ثم إلى أصابع القدم. فإذا التهب هذا العصب فإن المريض به يحس بألم شديد يبدأ من أسفل العمود الفقرى فى الظهر إلى خلف الفخذ والساق إلى أصابع القدم. ويزداد هذا الألم بالحركة والمشى ويقل عند النوم على الظهر دون حركة (العربى ١٣٥ - فبراير ١٩٧٠).

(٢) الطبرى ٣ / ٥٣٠ س ش س عن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم.
٣ / ٥٣١ س ش س عن القاسم بن الوليد الهمدانى عن أبيه عن أبى نمران.
٣ / ٥٧٣ عن ابن حميد عن سلمة عن ابن اسحق عن وهب بن كيسان عن عبدالله بن الزبير.

بأمر يصدره قائد أى من الفريقين اختلف الناس على خالد بن عرفطة وكان ممن شغب عليه واعترض قوم من وجوه الناس.

ورأى سعد أن الأمر لا يحتمل هذا وأنه يحتاج إلى حزم.

فقال: «احملونى وأشرفوا بى على الناس».

فارتقوا به فأكب على وجهه مطلعاً عليهم وصفهم أسفل حائط قُديس.

فخطبهم وقال: «.. أم والله لولا أن عدوكم بحضرتكم لجعلتكم نكالاً لغيركم».

ثم أمر بالمشاغبين فحبسوا، وكان ممن حبس أبو محجن الثقفى، حبسهم سعد وقيدهم فى القصر.

فقال جرير بن عبدالله البجلى يؤازر سعداً: «أما إنى بايعت رسول الله ﷺ على أن أسمع وأطيع لمن ولاه الله الأمر وإن كان عبداً حبشياً».

وقال سعد: «والله لا يعود أحد بعدها يحبس المسلمين عن عدوهم ويشاغلهم وهم بإزائهم إلا سننت سنّة يؤخذ بها من بعدى».

سكن الناس بعد ذلك ولزموا الطاعة فخطبهم سعد. حمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«إن الله هو الحق لا شريك له فى الملك وليس لقوله خلف.

قال جل ثناؤه، ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾.

إن هذا ميراثكم وموعود ربكم وقد أباحها لكم منذ ثلاث حجج، فأنتم تطعمون منها وتأكلون منها وتقتلون أهلها وتجبونهم وتسبونهم إلى هذا اليوم بما نال منهم أصحاب الأيام منكم.

وقد جاءكم منهم هذا الجمع، وأنتم وجوه العرب وأعيانهم وخيار كل قبيلة وعز من وراءكم، فإن تزهدوا فى الدنيا وترغبوا فى الآخرة جمع الله لكم الدنيا والآخرة ولا يقرّب ذلك أحداً إلى أجله، وإن تفشلوا وتهنوا وتضعفوا تذهب ريحكم وتوبقوا[1] آخرتكم».

وكتب سعد إلى الرايات:

«إنى قد استخلفت عليكم خالد بن عُرفطة. وليس يمنعنى أن أكون مكانه إلا وجعى الذى

---

(١) الطبرى ٣ / ٥٣١ السرى عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم.

يعودني وما بي من الحبون . (الحبوب والدمامل) . فإني مكب على وجهي وشخصي لكم باد فاسمعوا وأطيعوا فإنه إنما يأمركم بأمري ويعمل برأيي» .

وقرئ هذا المنشور على المسلمين فزادهم خيراً وانتهوا إلى رأيه وقبلوا منه وتحاثوا على السمع والطاعة وأجمعوا على عذر سعد والرضا بما صنع .

الحماس للمعركة

ورجع أمير كل جند إلى موقفه من أصحابه وخطب أمير كل قوم أصحابه وتحاضوا على الطاعة والصبر وتواصوا[(١)] .

قام عاصم بن عمرو[(٢)] في المجردة فقال : «إن هذه بلاد قد أحل الله لكم أهلها وأنتم تنالون منهم منذ ثلاث سنين ما لا ينالون منكم وأنتم الأعلون والله معكم إن صبرتم وصدقتموهم الضرب والطعن فلكم أموالهم ونساؤهم وأبناؤهم وبلادهم .

وإن خُرْتم وفشلتم والله لكم من ذلك جار وحافظ لم يبق هذا الجمع منكم باقية مخافة أن تعودوا عليهم بعائدة هلاك .

الله الله .. اذكروا الأيام وما منحكم الله فيها .

أوَلا ترون أن الأرض وراءكم بسابس قفار ليس فيها خَمْر (غطاء) ولا وَزَر يُعقل إليه ولا يمتنع به ؟ اجعلوا الآخرة همكم» .

عبر المجوس نهر العتيق وعبر رستم ثم سار فنزل بين الحصن والعتيق وقد وافقهم ومؤذن سعد يؤذن لصلاة الغداة . وقد كان رستم حين نزل النجف بعث عيناً منهم إلى معسكر المسلمين بالقادسية فانغمس فيهم كواحد منهم - ولابد أن ذلك العين كان من عرب العراق ، ولم يكن من الفرس - فرآهم يستاكون عند كل صلاة ثم يصلون فيفترقون إلى مواقفهم ، فرجع إليه فأخبره بخبرهم وما رأى من سيرتهم حتى سأله ما طعامهم ، فقال : «مكثت فيهم ليلة ، لا والله ما رأيت أحداً منهم يأكل شيئاً إلا أن يمصوا عيداناً لهم حين يمسون وحين ينامون وقبيل أن يصبحوا» .

فلما أذن مؤذن الغداة رآهم رستم يستاكون فنادى في المجوس أن يركبوا .

---

(١) الطبري ٣ / ٥٣٥ السري عن شعيب عن سيف عن حلام عن مسعود .

(٢) الطبري ٣ / ٥٣٥ السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم .

فقيل له: «ولمَ؟»

قال: «أما ترون إلى عدوكم قد نودى فيه فتحشحشوا (تحركوا) لكم».

قال عينه ذلك: «إنما تحشحشهم هذا للصلاة».

فقال رستم: «باد شهان مر اندر (ومعناها أتانى صوت بالغداة - يقصد الأذان) أكل عمر كبدى أحرق الله كبده. وإنما هو عمر الذى يكلم الكلاب فيعلمهم العقل، علم هؤلاء حتى[1] علموا».

وأرسل سعد إلى الذين تنتهى إليهم آراء الناس مثل النفر الذين أتوا رستم: المغيرة بن شعبة وحذيفة بن محصن وبسر بن أبى رهم وعرفجة بن هرثمة وربعى بن عامر وقرفة بن زاهر ومذعور بن عدى والمضارب بن يزيد ومعبد بن مرة، وإلى أصحاب النجدة مثل طليحة بن خويلد الأسدى وقيس بن هبيرة الأسدى وغالب ابن عبدالله الليثى وعمرو بن معدى كرب الزبيدى وأمثالهم، وإلى الشعراء مثل الشماخ بن ضرار والحطيئة وأوس بن مغراء وعبدة بن الطبيب، وإلى ذوى الفضل منهم من سائر الأصناف فأرسلهم إلى المسلمين فى مواقفهم وقال لهم:

«انطلقوا فقوموا فى الناس بما يحق عليكم ويحق عليهم عند مواطن البأس فإنكم من العرب المكان الذى أنتم به، وأنتم شعراء العرب وخطباؤهم وذوو رأيهم ونجدتهم وسادتهم فسيروا فى الناس فذكروهم وحرضوهم على القتال».

فساروا فى المسلمين بما كلفوا به.

قال قيس بن هبيرة الأسدى: «أيها الناس احمدوا الله على ما هداكم له وأبلاكم يَزِدْكم، واذكروا آلاء الله وارغبوا إليه فى عاداته فإن الجنة أو الغنيمة أمامكم، وإنه ليس وراء هذا القصر إلا العراء والأرض القفر والظراب[2] الخُش والفلوات التى لا يقطعها الأدلة».

وقال غالب بن عبدالله: «أيها الناس احمدوا الله على ما أبلاكم وسلوه يزدكم وادعوه يجبكم، يا معاشر معَدّ ما علّتُكم اليوم وأنتم فى حصونكم (يعنى الخيل) ومعكم من لا يعصيكم (يعنى السيوف)، واذكروا حديث الناس فى غد فإنه بكم غداً يُبدأ عنده، وبمن بعدكم يُثنى».

---

(١) الطبرى ٣ / ٥٣٢ س ش س عن حلام عن مسعود.
الطبرى ٣ / ٥٣٢ س ش س عن النضر بن الرفيل.
(٢) ظراب جمع ظرب وهى الرابية الصغيرة. والخش التل.

وقال ابن الهُذَيل الأسدى: «يا معاشر معد اجعلوا حصونكم السيوف وكونوا عليها كأسود الأجم وتربدوا لهم تربدُ النمور، وادرعوا العجاج[1]. وثقوا بالله، وغضوا الأبصار، فإذا كلت السيوف فإنها مأمورة، فأرسلوا عليهم الجنادل (الحجارة) فإنها يؤذن لها فيما لا يؤذن للحديد فيه».

وقال بسر بن أبى رهم الجهنى: «احمدوا الله وصدقوا قولكم بفعل فقد حمدتم الله على ما هداكم له ووحدتموه ولا إله غيره، وكبرتموه وآمنتم بنبيه ورسله فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون، ولا يكونن شىء بأهون عليكم من الدنيا فإنها تأتى من تهاون بها ولا تميلوا إليها فتهرب منكم لتميل بكم وانصروا الله ينصركم».

وقال عاصم: «يا معاشر العرب انكم أعيان العرب وقد صمدتم الأعيان من العجم، وإنما تخاطرون بالجنة ويخاطرون[2] بالدنيا، فلا يكونن على دنياهم أحوط منكم على آخرتكم. لا تحدثوا اليوم أمراً تكونون به شيناً على العرب غداً.

وقال ربيع بن البلاد السعدى: «يا معاشر العرب قاتلوا للدين والدنيا وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين. وإن عظم الشيطان عليكم الأمر فاذكروا الأخبار عنكم بالمواسم ما دام للأخبار أهل».

وقال ربعى بن عامر: «إن الله قد هداكم للإسلام وجمعكم به وأراكم الزيادة وفى الصبر الراحة، فعودوا أنفسكم الصبر تعتادوه ولا تعودوها الجزع فتعتادوه».

وقام كلهم بمثل هذا الكلام وتواثق المسلمون وتعاهدوا واهتاجوا لكل ما كان ينبغى لهم. وفعل أهل فارس فيما بينهم مثل ذلك وتعاهدوا وتواصوا واقترنوا بالسلاسل. وكان المقترنون فى صفوف الفرس ثلاثين ألفاً.

أوضاع الجيشين

وقد نظم رستم جيشه فى الميدان كالآتى:

١٢٠٠٠٠ مقاتل (بصرف النظر عن التبع) معهم ٣٠ فيلاً (بصرف النظر عن ثلاثة

(١) العجاج الغبار، والدخان أيضاً، والعجاج كل ذى صوت من قوس وريح ونحوهما (مختار الصحاح).
(٢) الخطر السبق الذى يتراهن عليه – مختار الصحاح. يعنى تسابقون على الجنة ويسابقون على الدنيا. وصمدتم: قصدتم.

أفيال للملوك لا تقاتل)، مع كل فيل ٤٠٠٠ مقاتل[١] من المشاة والفرسان. ذهبنا فيما سبق إلى أن نصفهم كان فرساناً. وكان آخر صفهم على حافة العتيق، المشاة في الخلف والأفيال أمامها وأمام الأفيال الفرسان. ثم كانت تعبئتهم كما أوضحنا في الخريطة (ص ١١٤ - ١١٥)، وهي كالآتي:

هرمزان على الميمنة ٧ أفيال، ١٤٠٠٠ فرسان، ١٤٠٠٠ مشاة - جند الأهواز.

جالنوس على يساره- ٦ أفيال، ١٢٠٠٠ فرسان، ١٢٠٠٠ مشاة - جند الباب.

بهمن في الوسط ٥ أفيال، ١٠٠٠٠ فرسان، ١٠٠٠٠ مشاة جند همدان.

بيرزان على يساره ٦ أفيال، ١٢٠٠٠ فرسان، ١٢٠٠٠ مشاة جند نهاوند وسجستان.

مهران على الميسرة - ٦ أفيال، ١٢٠٠٠ فرسان، ١٢٠٠٠ مشاة، جند الرى والجبال.

وكان سرير رستم وطيارته وإلى يمينه راية فارس الكبرى (درفش كابيان) يقع في قطاع بهمن جاذويه.

وكان صف المسلمين مع حائط قُديس، والخندق[٢] من ورائهم، وكانت تعبئتهم كما أوضحناها في الخريطة (ص ١١٤ ، ص١١٥)[٣]. وكان عامة ما يتقون به البراذع - براذع الرحال - وقد أعرضوا فيها الجريد يترسون بها عن أنفسهم، وعصب من لم يكن له وقاية رؤوسهم[٤] بالأنساع (الجلد) أنساع الرحال، يطوى الرجل نِسع رحله على رأسه يتقى به، والفرس عليهم دروع الحديد واليلامق (اليلمق: ثوب محشو).

أربع تكبيرات

وأرسل سعد أمراً إلى جيشه «إلزموا مواقفكم. لا تحركوا شيئاً حتى تصلوا الظهر، فإذا صليتم الظهر فإني مكبر تكبيرة فكبروا وشدوا شسوع نعالكم واستعدوا واعلموا أن التكبير لم يعطه أحد قبلكم واعلموا أنما أعطيتموه تأييداً لكم.

---

(١) الطبرى ٣ / ٦٣٥ س ش س عن مجالد عن الشعبى.
فتوح البلدان ٦٣٤.

(٢) الطبرى ٣ / ٥٣٥ س ش س عن حلام عن مسعود بن خراش.

(٣) هذه الخريطة (ص١١٤ - ١١٥) سنوضح في الباب الأخير أسس رسمها.

(٤) الطبرى ٣ / ٥٥٣ س ش س عن عمرو بن الريان عن إسماعيل بن محمد.
٣ / ٥٧٥ عن ابن حميد عن سلمة عن محمد بن اسحق عن عبدالله بن أبى بكر.

فإذا كبرت الثانية فكبروا وتهيئوا ولتستتم عدتكم.

فإذا كبرت الثالثة فكبروا ولينشط فرسانكم الناس ليبرزوا وليطاردوا.

فإذا كبرت الرابعة فشدوا النواجذ على الأضراس واحملوا فازحفوا جميعاً حتى تخالطوا عدوكم وقولوا لا حول ولا قوة إلا بالله»[1].

وكان عمر قد ألزم سعداً غلاماً وكان من القراء. فلما صلوا الظهر أمر سعد الغلام أن يقرأ سورة الجهاد - وهي سورة الأنفال - وكان المسلمون يتعلمونها كلهم. فقرأ على أقرب الكتائب إليه فقرئت في كل كتيبة. فهشت قلوب الناس وعيونهم وعرفوا السكينة مع قراءتها[2].

الطراد «المبارزة»

فلما فرغ القراء كبر سعد من فوق القصر فكبر الأقربون إليه الذين يلونه وكبر الناس بتكبير بعض فتحشحش الناس (تحركوا حماساً).

ثم كبر الثانية فاستتم الناس ووقفوا مستعدين.

ثم كبر الثالثة فبرز أهل النجدة من الفرسان فأنشبوا القتال، وخرج لهم فرسان من المجوس فتبادلوا الطعنات والضربات. وكان أول من قتل أعجمياً يوم القادسية ربيعة[3] بن عثمان بن ربيعة أحد بني نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن ابن منصور (يعني كان في الميمنة).

وخرج أمام صفوف بني أسد، غالب بن عبدالله الأسدي وهو ينشد:

قد علمت واردة المسالح ذات اللبان والبنان الواضح

أني سمام البطل المشايح وفارج الأمر المهم الفادح[4]

فخرج إليه هرمز وكان من ملوك الباب على رأسه تاج، فأسره غالب أسراً فجاء به سعداً فأدخله عليه وانصرف إلى مبارزة جديدة.

(١) الطبري ٣ / ٥٣٥ س ش س عن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم.
س ش س عن عمرو بن الريان عن مصعب بن سعد.
س ش س عن زكرياء عن أبي اسحق.

(٢) الطبري ٣ / ٥٣٦ السري عن شعيب عن سيف عن حلام عن مسعود بن خراش.
السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم.

(٣) فتوح البلدان ٦٤٦.

(٤) المسالح: مواقع السلاح. اللبان: الصدر. البنان: استعارة لقوائم الخيل. سمام: الذي آتي بالسموم.

وخرج عاصم بن عمرو أمام مواقع بنى تميم وهو يقول:

قد عَلِمَت بيضاء صفراء اللَّبب   مثل اللجَيْن إذ تغشاه الذهب
أنى امرؤ لا من يعينه السبب   مثلى على مثلك يغريه العتب[1]

فطارد رجلاً من العجم فهرب منه وتبعه عاصم حتى خالط صفهم فالتقى بفارس معه بغل فترك الفارس البغل واعتصم بأصحابه فاحتمى بهم، واستاق عاصم البغل والرحل حتى بلغ صف المسلمين فكشف عن الغنيمة فإذا ذلك الرجل كان طباخ رستم وإذا ذلك الذى كان معه طعامه من الأخبصة والعسل المعقود فأتى به سعداً ورجع إلى موقفه، فلما نظر فيه سعد قال انطلقوا به إلى أهل موقفه.

وقال: «إن الأمير قد نفلكم هذا فكلوه».

وأعطاه لهم، فتغدى عاصم ومن معه يومها بغداء رستم.

وهذه المبارزات دائرة بين الفرسان على طريقة الكر والفر، وصفوف المشاة متكتبة فى انتظار التكبيرة الرابعة من سعد، قام قائد مشاة بنى نهد من قضاعة وكان اسمه قيس بن حذيم بن جرثومة يخطب فيمن معه.

قال: «يا بنى نهد انهدوا، إنما سميتم نهداً لتفعلوا».

هذا أمر منه لجنده بالتحرك قبل أن يأمر القائد العام بذلك فبعث إليه خالد ابن عُرفطة (خليفة سعد) يقول:

«والله لتكُفَّنَّ أو لأُولِّيَنَ عملك غيرك».

فكف الرجل.

وخرج فارس من الفرس يصيح «مرد ومرد» يعنى رجل لرجل يطلب المبارزة. وكان ذلك أمام القطاع الذى تشغله[2] بجيلة وكندة، وكان عمرو بن معدى كرب الزبيدى يسير بفرسه بين الصفين يحرض المسلمين ويحمسهم ويقول:

---

(١) بيضاء صفراء اللبب يقصد بها فرسه، السبب: الوسيلة كناية عن ثقته بنفسه أنه يدخل بدون وسيلة القتال، كلما عتبوا على فى شدتى عليك يغرينى ذلك بك.

(٢) نفس المصدر، الطبرى ٣ / ٥٣٧ س ش س عن إسماعيل بن أبى خالد عن قيس بن أبى حازم (البجلى) قال مر بنا عمرو بن معدى كرب وهو يحضض الناس بين الصفين... إلخ.

«يا معشر المهاجرين (المجاهدين) كونوا أسوداً فإنما الأسد من أغنى شأنه. إن الرجل من هذه الأعاجم إذا ألقى مزراقه (فقد قوسه) فإنما هو تيس»..

ووقف ذلك العجمى بين الصفين وكان من أساورتهم لا يكاد تسقط له نشابة، فرمى عمراً بنشابة فأصابت سية قوسه وهو متنكبها (معلقها فى منكبه وراء ظهره) فالتفت إليه عمرو ثم حمل عليه فبارزه ثم اعتنقه وأمسكه من حزامه وسحبه من فوق فرسه فحمله ووضعه بين يديه على فرسه هو ثم عاد به إلى صفوف المسلمين فلما اقترب منهم كسر عنقه ورماه على الأرض ونزل إليه فذبحه من حلقه بالسيف وأخذ سلبه سوارين من ذهب ومنطقة من ذهب ويلمقاً من ديباج وعاد يقول للمسلمين:

«هكذا فاصنعوا بهم».

قالوا: «يا أبا ثور من يستطع أن يصنع كما تصنع!»

التحام

ثم وقع حادث مؤسف فريد من نوعه، فقد خرج من صفوف المسلمين رجل من ثقيف ارتد ولحق بالمجوس، فأخذوا رأيه عمن يوجهون إليه هجومهم فأحالهم على بجيلة وأخبرهم أن بأس المسلمين فى الجانب الذى به بجيلة[1].

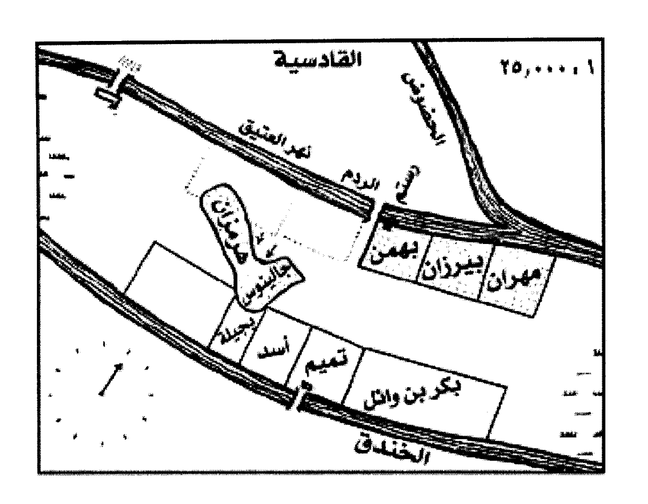
فوجه الفرس إلى الوجه الذى فيه بجيلة ثلاثة عشر فيلاً هى كل جناحهم الأيمن بقيادة هرمزان وجالنوس (يعنى ٥٢٠٠٠ مقاتل). وألقت هذه القوة الكبيرة بثقلها على بجيلة، وألقوا تحت أرجل خيولها حسك الحديد ورشقوهم بالنشاب فكأنه المطر عليهم. وربط العجم خيلهم بعضها إلى بعض لئلا يفروا، هذا وسائر المسلمين والفرس على مواقفهم.

وفرقت الأفيال ما بين الكتائب فنفرت خيول المسلمين وثبت مشاتهم بغير اعتماد على الخيل حتى كاد المجوس أن يطحنوا بجيلة ومن كان معهم فى مواقفهم من النخع وصداء وكندة. وأرسل سعد إلى بنى أسد وهم ثلاثة آلاف على ميمنة بجيلة يقول لهم:

«ذَبِّبُوا عن بجيلة ومن لافّها من الناس».

---

(١) الطبرى ٣ / ٥٧٦ عن ابن حميد عن سلمة بن محمد بن اسحق بن إسماعيل بن أبى خالد مولى بجيلة عن قيس بن أبى حازم البجلى وكان ممن شهد القادسية مع المسلمين.



خريطة رقم (٨) القادسية (٢)

فقام[1] طليحة بن خويلد (الذى كان صاحب ردة بنى أسد ثم عاد إلى الإسلام وحسن إسلامه وبلاؤه)، قام فى قومه من بنى أسد فقال:

«يا عشيرتاه، إن المنوه باسمه (يقصد أسداً - هو) الموثوق به.

وإن هذا لو علم أن أحداً أحق بإغاثة هؤلاء منكم استغاثهم.

ابتدئوهم الشدة وأقدموا عليهم إقدام الليوث الحَرِبَة، فإنما سميتم أسداً لتفعلوا فعله.

شدوا ولا تصدوا (يعنى اهجموا ولا تقفوا مدافعين) وكروا ولا تفروا.

لله در ربيعة، أى فرى يفرون وأى قرن يغنون، هل يوصل إلى مواقفهم!

فأغنوا غناء مواقفكم أعانكم الله.

شدوا عليهم باسم الله».

وخرج حمَّال بن مالك الأسدى والربيل بن عمرو وغالب بن عبدالله الليثى (ليث من كنانة وكنانة إخوة أسد وكانوا ثلاثمائة أخذوا مواقفهم مع أسد) كل خرج من كتيبته نحو الفيلة. قال المعرور بن سويد وشقيق بن سلمة الأسديان:

«فشدوا والله عليهم فما زالوا يطعنونهم ويضربونهم حتى حبسنا الفيلة عنهم فأخرت (وفى أثناء ذلك) خرج لطليحة عظيم منهم فبارزه فما لَبَّثَه طليحة أن قتله».

والتقى طليحة بجالنوس وجهاً لوجه فضربه طليحة ضربة على رأسه فشقت مغفره طولاً[2] ولم تنفذ إلى رأسه. وقال:

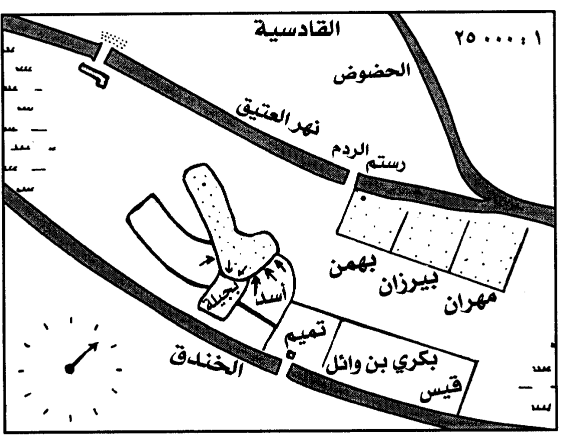
أنا ضربت الجالنوسَ ضَرْبَه   حين جيادُ الخيلِ وَسْط الكَبَّه[3]

---

(1) الطبرى ٣ / ٥٣٨ س ش س عن محمد وطلحة وزياد.
س ش س عن محمد بن قيس عن موسى بن طريف.

(2) فتوح البلدان ٦٤٢ و٦٤٧.

(3) الكبة: الكوكبة، وهى الحاشية.



خريطة رقم (٩) القادسية (٣)

يقول الرواة: «وإن على كل فيل عشرين رجلاً». ونرى فى هذا الرقم مبالغة فما نظن فيلاً يتسع لحمل عشرين رجلاً.

وكانت بطولة بنى أسد فى هذا الهجوم مثار إعجاب المسلمين وهم ينظرون إليهم، وكانوا يتسابقون إلى البطولة والفداء فقام الأشعث بن قيس الكندى (زوج أم فروة أخت أبى بكر الصديق) فى قومه من كندة فقال:

«يا معشر كندة لله دَرُّ بنى أسد أى فَرِىّ يَفْرُون وأىَّ هَذٍّ يهذّون عن موقفهم!

منذ اليوم أغنى كل قوم ما يليهم وأنتم تنتظرون من يكفيكم البأس.

أشهد ما أحسنتم إسوة قومكم العرب منذ اليوم وإنهم ليُقتلون ويقاتلون وأنتم جُثاة على الرُكَب تنظرون».

وكانت المبارزة جثواً على الركب من الأساليب الدفاعية فى القتال (ارجع إلى فصل السيف من باب أسلحة العرب من كتابنا الطريق إلى المدائن). فوثب إليه عشرة منهم فقالوا: «عثّر الله جدك، إنك لتُؤَبِّسُنا جاهداً ونحن أحسن الناس موقفاً، فمن أين خذلنا قومنا العرب وأسأنا إسوتهم، فها نحن معك».

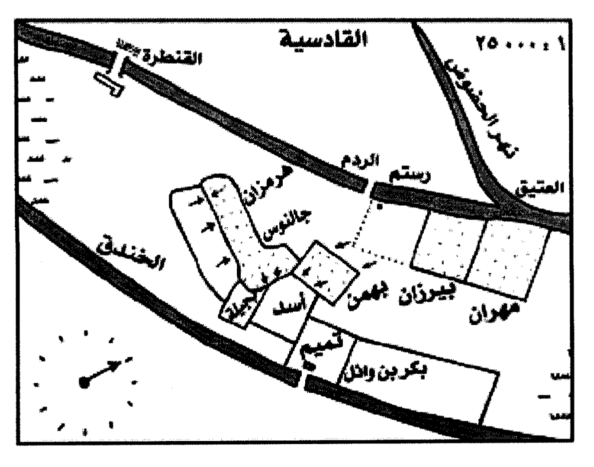
فتحول موقف كندة من الدفاع إلى الهجوم فأزالوا من أمامهم من المجوس وردوهم إلى الوراء[1].

ولما رأى العجم ما يصنع بنو أسد بالأفيال وجهوا إليهم جالنوس وبهمن جاذويه (٤٤٠٠٠ مقاتل نصفهم من الفرسان و ١١ فيلاً) . كذلك جمع كنارى قائد المجردة (الخيل) فرسانه وألقى بهم ضد أسد . كان هرمزان ملتحماً بميسرة المسلمين ، أما سائر المسلمين في القلب والميمنة (كل من عن يمين أسد) فكانوا ينتظرون التكبيرة الرابعة من سعد ، وبنو أسد تدور عليهم رحى الحرب ثابتون للمجوس ، فكبّر سعد التكبيرة الرابعة فزحف جميع المسلمين ونشطت فيول المجوس على طول خط القتال فحملت في الميمنة والميسرة على خيول المسلمين فكانت الخيل تخاف منها فتحجم عنها وتحيد عن طريقها ، وكان فرسانها يلحون على المشاة أن يمنعوا ظهور الخيل ويردوها إلى الأمام .

وأرسل سعد إلى عاصم بن عمرو من يقول له :

« يا معشر بني تميم ، ألستم أصحاب الإبل والخيل ! أما عندكم لهذه الفيلة من حيلة ؟ »

قالوا : « بلى والله » .



خريطة رقم (١٠) القادسية (٤)

---

(١) الطبرى ٣ / ٥٣٨ س ش س عن محمد بن قيس عن موسى بن طريف .

ثم نادى فى قومه فجمع أفضل من فى بنى تميم من الرماة وآخرين لهم مهارة وخفة حركة في القتال، ووضع خطته على أساس مشاغلة ركبان الفيلة ثم مهاجمتها من الخلف فى غفلة منهم. قال لهم:

«يا معشر الرماة ذُبُّوا ركبان الفيلة عنهم بالنبل».

وقال: «يا معشر أهل الثقافة استدبروا الفيلة فقطعوا وُضُنَها[1]».

وخرج معهم يحميهم ويقودهم فشقوا طريقهم نحو الأفيال التى تهاجم بنى أسد والرحى تدور عليهم.

---

(١) الوضن: الأحزمة التى تثبت توابيتها على ظهورها.

وامثنياه

كان سعد يرقب ذلك من فوق القصر لا يطيق الجلوس مما به إلا مستوفزاً أو منبطحاً على بطنه، فكان يتململ ويتقلب لا يصبر على ما يرى. وكانت امرأته سلمى بنت خصفة أرملة المثنى تنظر معه من فوق القصر وترى ما يرى، فلما شاهدت ما يصنع جند الباب يقودهم جالنوس وجند همدان يقودهم بهمن بقبيلة أسد قالت:

«وامثنياه ولا مثنى للخيل اليوم».

وكان سعد قد أضجره ما كان في نفسه وما يرى في أصحابه على مسافة ثلاثمائة إلى أربعمائة متر منه، فلطم وجهها من الغيظ وقال:

«أين المثنى من هذه الكتيبة التي تدور عليها الرحى (يعني أسداً) وعاصماً وخيله؟»

وأثارت هذه العبارة ذكريات المثنى الزوج الراحل العظيم.

لو كان المثنى حياً لكان له هنا مع الأعاجم شأن كشأنه يوم الجسر بالمروحة ويوم البويب ويوم بغداد، ويوم كل يوم لقي المجوس فيه. ولئن لطمها سعد بيده فلتلطمه بلسانها وهو الذى تستطيع.

قالت: «أغيرة وجبناً!؟»

تعيره انبطاحه فوق القصر وعدم ركوبه مع جيشه.

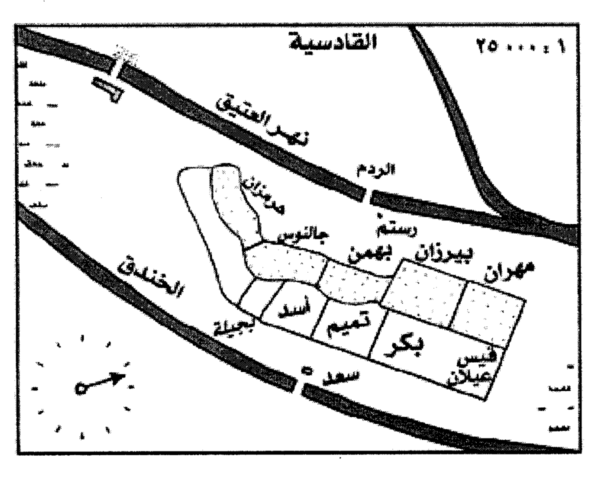
قال: «والله لا يعذرني اليوم أحد إذا أنت لم تعذريني وأنت ترين ما بي والناس أحق ألا يعذروني»[1].

نتيجة يوم ارماث

وأمطر رماة تميم الذين كلفهم عاصم ركبان الأفيال بوابل من سهامهم والتحموا معهم في

(١) الطبرى ٣ / ٥٤٢ عن السرى عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة.
٣ / ٥٧٥ عن ابن حميد عن سلمة عن ابن اسحق عن عبدالله بن أبي بكر.

معركة تراشق، وفيما هم مشغولون بذلك تمكن الآخرون من بلوغ مواقع خلف كل فيل فأخذوا بأذنابها وأربطة توابيتها فقطعوها وارتفع عواء الأفيال فما بقى للمجوس يومئذ فيل إلا أعرى. وكان كلما سقط صندوق بمن فيه هجم عليهم المسلمون فقتلوهم.



خريطة رقم (١١) القادسية (٥)

فتنفست أسد، وردت تميم عنها هجوم العجم إلى مواقفهم الأولى، ثم اقتتلوا حتى غربت الشمس ودخل بعض من الليل. وكان يوماً مجهداً فرجع المسلمون ورجع المجوس كل إلى مواقعه الأولى وقد قتل من بنى أسد يوم أرماث خمسمائة رجل من الآلاف الثلاثة، فحملت بنو أسد عبء ذلك اليوم عن الناس وكان عاصم بن عمرو حامى الناس الذى رد عادية المجوس عنهم.

وقال عمرو بن شأس الأسدى:

لقــــد عَلمتْ بنو أســــد بأنَّا أولو الأحلام إن ذكروا الحُلوما[1]

وأنَّا النازلون بكل ثغـــــر ولو لـم نُلفه[2] إلا هشيما

ترى فينا الجياد مُسوَّمات مع الأبطال يعْلُكن[3] الشكيما

ترى فينا الجياد مُجلَّحات تُنَهْنه عن فوارسها الخصوما[4]

بجمع مثل سَلم مُكْفَهر تشبُّهُم إذا اجتمعوا قروما[5]

بمثلهمُ تلاقى يوم هيج إذا لاقيت بأساً أو خصوما

نفينا فارساً عما أرادت وكانت لا تحاول أن تَريما[6]

لماذا ارماث

حملت أيام القادسية أسماء أرماث وأغواث وعماس. ولم نجد أحداً من الرواة أو المؤرخين القدماء ولا من الكتاب المحدثين حاول أن يفسر هذه الألفاظ أو يقوم لها معنى، وقد ذكر الدكتور محمد حسين هيكل أنه لم يجد لهذه الأسماء أى تعليل. والكلمات الثلاث ليست أسماء أماكن. وفي اللغة رمث الشيء بالشيء خلطه - وأرمث الحالب في الضرع أبقى فيه شيئاً - وأرمث واسترمث في حاله أبقى وترك - وحبلٌ أرماث ورماث خَلِق. هكذا في المنجد، ونستطيع أن نلمح هذه المعاني في ذلك اليوم، فقد اختلطت فيه شدته على المسلمين وعلى المجوس، ولم تنته المعركة إلى نتيجة حاسمة شأن كل ما سبق من المعارك التي كانت تنتهي في يوم، بل بقى منها شيء للأيام التالية. هذا ما نذهب إليه في تعليل تلك التسمية والله أعلم.

---

(١) أولو الأحلام: أصحاب العقول، والحلوم: العقول.

(٢) نلفه: نجده أو نتركه، فهي من الأضداد.

(٣) يعلكن: يمضغن، والشكيمة حديدة اللجام التي توضع في فم الحصان.

(٤) مجلحات: هاجمات، جلح الفرس على القوم حمل عليهم وهجم، تنهنه تكف وتمنع.

(٥) سلم مكفهر: سلم ساخن، كناية عن الاستعداد للمعركة، القروم: اللحم المكوم كناية عن الكثرة.

(٦) يريم من المكان: يتركه.

ليلة الهدأة

توقف القتال بعد العشاء، وباتت الجبهة فى هدوء، تحاجز هؤلاء عن هؤلاء ولذلك سميت ليلة الهدأة. وقد أتاحت هذه الهدأة لبعضهم أن ينفلت أثناء الليل إلى العذيب للقاء أهله ونقل الأخبار إليهم.

وفى مضارب نساء المسلمين بالعذيب جلست الخنساء بنت عمرو شاعرة بنى سليم المخضرمة ومعها بنوها أربعة رجال تعظهم وتحرضهم على القتال.

قالت[1]: «إنكم أسلمتم طائعين وهاجرتم (جاهدتم) مختارين. وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل فى حرب الكافرين. واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية. يقول الله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون».

فإن أصبحتم غداً إن شاء الله سالمين فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين وبالله على أعدائه مستنصرين. فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها واضطرمت لظى على سياقها وحللت (تفجرت) ناراً على أرواقها (جوانبها)، فتيمموا وطيسها (وسطها) وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها (جيشها) تظفروا بالغنم والكرامة فى دار الخلد والمقامة!»

فخرج بنوها قابلين لنصحها عازمين على قولها فلما أضاء الصبح باكروا مراكزهم.

وكانت امرأة من النخع لها بنون أربعة شهدوا القتال ذلك اليوم، فلما بدأ الصباح ينبلج قالت لهم:

---

(١) الاستيعاب ٢٨٧ نساء - الإصابة ٣٥٥ نساء - وفى النص أنها قالت: «ووالله الذى لا إله إلا هو إنكم لبنو رجل واحد كما أنكم بنو امرأة واحدة، ما خنت أباكم ولا فضحت خالكم ولا هجنت حسبكم ولا غيرت نسبكم...» ولكن من المعلوم أن أولاد الخنساء لم يكونوا أبناء رجل واحد فقد تزوجت مرتين، الأول عبدالعزى بن رواحة وأنجبت منه أبا شجرة، والثانى مرداس بن أبى عامر وأنجبت منه زيد (وقيل يزيد) ومعاوية وعمراً (الخنساء شاعرة بنى سليم - د. محمد جابر الحينى ٧٦). وقد ذهبت الدكتورة بنت الشاطئ إلى أن الرواية موضوعة، وحسبنا إسقاط هذه الفقرة منها، ولعل هذه الفقرة فى النص أن تكون تسللت إلى قصة الخنساء من قصة المرأة النخعية بعدها.

«إنكم أسلمتم فلم تبدلوا، وهاجرتم فلم تُثَرِّبوا[1]، ولم تَنْبُ[2] بكم البلاد تُقْحِمْكم السَّنَة[3]. ثم جئتم بأمكم عجوز كبيرة فوضعتموها بين أيدى أهل فارس، والله إنكم لبنو رجل واحد كما أنكم بنو امرأة واحدة. ما خنت أباكم ولا فضحت خالكم. انطلقوا فاشهدوا أول القتال وآخره».

فانصرفوا عنها مسرعين يشتدون. فلما غابوا عنها رفعت يديها إلى السماء وهى تقول: «اللهم ادفع عن بنَّى».

فرجعوا إليها بعد ذلك وقد أحسنوا القتال ما جرح منهم رجل جرحاً[4].

تلك أمهات لم تتضع حتى فقدت عواطف الأمومة، ولكنها ارتفعت بإيمانها إلى مصاف فوق مستوى ما نعهد من الأمهات. كانت كل منهن تعلم أن الموت حق وأن أحداً لن يموت حتى يستوفى أجله فكانت تضن ببنيها أن يعتد على أحد منهم بجبن أو خور عند الزحف وحين البأس. إذا كان ذلك هو حال النساء الأمهات العجائز فكيف إذن كان حال الرجال! لنعود إليهم فى اليوم الثانى.

---

(١) تعنى لم تكن هجرتكم إلى يثرب.

(٢) لم تنب بكم البلاد: لم تلفظكم.

(٣) السنة: القحط والجوع.

(٤) الطبرى ٣ / ٥٤٤ س ش س عن مجالد عن الشعبى، ويقول: «فرأيتهم بعد ذلك يأخذون ألفين ألفين من العطاء ثم يأتون أمهم فيلقونه فى حجرها فترده عليهم وتقسمه فيهم على ما يصلحهم ويرضيهم». وكان عطاء أهل القادسية ألفين حين أنشأ عمر الديوان.



الباب السابع

أغواث

الجمعة ١٤ شعبان ١٥ هـ - ٢٠ سبتمبر (أيلول) ٦٣٦م

صباح جديد

نحن الآن فى اليوم الثانى - أغواث - من أيام معركة القادسية. أصبح الصباح والجيشان على تعبئة وقد حمل المسلمون شهداءهم وجرحاهم من أرض المعركة، بينما ترك المجوس جثث قتلاهم ملقاة كما هى حيث قتلت. وقد وكل سعد رجالاً ينقلون الجرحى إلى مضارب المسلمين بالعذيب حيث النساء يقمن عليهم يمرضنهم إلى قضاء الله عز وجل عليهم. كذلك وكل رجالاً ينقلون الشهداء إلى مُشَرِّق وهو واد بين العذيب وبين عين الشمس فدفنوا فى جانبيه القريب من العذيب والبعيد عنها وكان النساء يحفرن القبور. سبحان الله.. عجباً لامرأة تحفر قبراً لا تدرى يدفن فيه بعد قليل زوج أو أخ أو ابن أو أب أو غريب، إنه شهيد من المسلمين وكفى فكلهم الآن سواء. كان المسئول عن شئون الشهداء والجرحى[1] حاجب بن زيد الأنصارى من الأوس وكان ممن شهد أحداً. ووقف المسلمون فى الميدان ينتظرون حمل الشهداء والجرحى، فما أن خرجت[2] بهم الإبل وتوجهت نحو العذيب حتى طلعت نواصى الخيل الآتية من الشام.

جيش خالد يعود

لقد خرج خالد من العراق فى صفر ١٣هـ. بنصف جيش العراق حينذاك إلى الشام، فأدرك عمليات الشام. ومن حيث كانت الحالة راكدة فى العراق فى انتظار القادسية والإعداد لها بينما كانت المعارك دائرة فى الشام فقد ترك عمر ذلك الجيش فى الشام يخوض معاركها الواحدة تلو الأخرى مع أبى عبيدة بن الجراح. فلما أن لاحت بوادر القادسية وكان المسلمون قد تم لهم فتح دمشق كتب عمر إلى أبى عبيدة بصرف جيش العراق، أصحاب خالد، إلى العراق - ولم يذكر خالداً - حينئذ كان أبو عبيدة فى خيار بين أن يبعثه مع جيشه أو أن يتمسك به، فضن به لنفسه حيث كان يعتمد عليه أكبر الاعتماد فبعث الجيش بدونه إلى

---

(١) الطبرى ٣ / ٥٥٠ س ش س عن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم.
الإصابة ١٣٥٩ وقال حاجب بن زيد بن تيم بن أمية بن خفاف بن بياضة.
(٢) الطبرى ٣ / ٥٤٢ س ش س عن محمد وطلحة.

العراق. ذلك الجيش كان تسعة آلاف يوم خرج مع خالد ولكن الروايات[1] تذكر أن العائدين إلى العراق كانوا ستة آلاف منهم خمسة آلاف عدنانيين من ربيعة ومضر وألف قحطانيين من أفناء أهل حجاز اليمن من مراد وهمدان وغيرهم. وأمّر عليهم هاشم بن عتبة بن أبى وقاص وهو ابن أخ سعد ابن أبى وقاص. وكانت مقدمتهم ألفاً عليها القعقاع بن عمرو وقد قدمه هاشم أمامه. وكان على الميمنة قيس بن مكشوح المرادى، ولم يكن قيس المرادى ممن شهد فتوح العراق مع خالد وإنما أتاهم وهم باليرموك ثم انضم إلى هذا الجيش المنتقل من الشام إلى العراق. وكان على الميسرة الهزهاز بن عمرو[2] العجلى وعلى المؤخرة (الساقة) أنس بن عباس السلمى[3]. ويبدو لنا أن هذا الجيش كان هو جيش خالد فى جملته لا فى تفصيله، فكما رأينا لقد ذهب الجيش تسعة آلاف وعاد ستة آلاف كذلك كان يحتوى على عناصر لم تكن منه حين غادر العراق مع خالد.

القعقاع فى المعركة

وأسرع القعقاع بالمقدمة فسبق أصحابه وطوى المسافة فبلغ القادسية صبيحة يوم أغواث[4]. وقبل دخولهم إلى القادسية قسم القعقاع أصحابه إلى عشرات - مائة عشرة - كلما بلغ عشرة منهم مدى البصر سرحوا فى آثارهم عشرة أخرى، وكان القعقاع فى أول دفعة فأتى الناس وسلم عليهم وبشرهم بالجنود وقال:

«يا أيها الناس إنى قد جئتكم فى قوم والله إن لو كانوا بمكانكم ثم أحسوكم حسدوكم حظوتها وحاولوا أن يطيروا بها دونكم. أيها الناس اصنعوا كما أصنع».

مصرع بهمن جاذويه

وتقدم القعقاع بين الصفين فى القطاع الذى يشغله قومه من بنى تميم وهو قلب الجيش أمام القصر ثم نادى: «من يبارز؟»

---

(١) الطبرى ٣ / ٥٤٣ س ش س عن محمد وطلحة.
(٢) الطبرى والإصابة ٨٩٥٩.
(٣) الطبرى والإصابة ٢٧١، وكان أنس صحابياً قدم على رسول الله فى سبعمائة على بنى سليم عام الفتح فأسلموا.
(٤) كان فيهم قيس بن أبى حازم وهو ابن تسع عشرة سنة.
الطبرى ٣ / ٥٤٣ س ش س عن محمد وطلحة.

أى لياقة بدنية تلك التى تتيح لصاحبها أن يأتى من سفر بعيد مثل هذا ثم يلتحم لحظة وصوله! واطمأن المسلمون كثيراً لتواجد القعقاع معهم ونزلت عليهم السكينة وقالوا فيه بقول أبى بكر:

«لا يهزم جيش فيهم مثل هذا».

صدق أبو بكر وصدق أيضاً حين قال: «لصوت القعقاع فى الجيش خير من ألف رجل».

وخرج ذو الحاجب لنداء القعقاع ولم يكن القعقاع قد التقى به من قبل ولا عرفه إلا سماعاً، فقال له القعقاع: «من أنت؟»

قال: «أنا بهمن جاذويه».

ففار الدم فى عروق القعقاع وكأنما وجد شيئاً كان يبحث عنه فصاح: «يا لثأرات أبى عبيد وسليط وأصحاب يوم الجسر».

ثم تبارزا بالسيوف فقتله القعقاع، فكان بهمن جاذويه قائد قلب المجوس فى القادسية وقائدهم يوم جسر المروحة أول القتلى يوم أغواث.

الطراد والمبارزة

ثم انضم إلى القعقاع ثلاثة نفر لمؤازرته وهم:

نُعيم بن عمرو بن عتاب.

وعتاب بن نعيم بن عتاب بن الحارث بن عمرو بن همام.

وعمرو بن شبيب بن زنباع بن الحارث بن ربيعة، أحد بنى زيد.

وكلهم رياحيين من بنى يربوع بن حنظلة من تميم.

وكان القعقاع يرمى ببصره نحو الطريق وصارت خيله تطلع قطعاً كلما طلعت قطعة كبّر القعقاع وكبّر المسلمون ثم يحمل على المجوس للمبارزة ويحمل معه اليربوعيون الثلاثة. وظلت الخيل تطلع وترد دفعات حتى الليل فينشط المسلمون لذلك ويدب فيهم الأمل وكأن لم يكن بالأمس مصيبة. فبدأ يوم أغواث بمبشرات خففت عنهم وشدت من أزرهم كثيراً... تواجدالقعقاع.. ووصول المدد.. ومصرع بهمن جاذويه.. واختفاء الفيلة جميعاً فقد تكسرت توابيتها بالأمس وبدأوا إصلاحها حين أصبحوا واستغرق إصلاحها منهم طوال يوم

أغواث فلم تظهر مرة أخرى حتى كان الغد ولم يقاتل العجم يوم أغواث على فيل. وفتّ ذلك كله فى عضدهم.

وخرج القعقاع بين الصفين مرة أخرى ونادى: «من يبارز؟»

وأراد قادة المجوس أن يستردوا معنوياتهم وأن يثأروا لبهمن جاذويه الذى كانت جثته ملقاة بين الصفين ينظرون إليها، فخرج إليه رجلان أحدهما بيرزان قائد مؤخرتهم (٢٤٠٠٠ اتخذوا مواقفهم بين رستم وبين ميسرته التى عليها مهران) والآخر بنْدوان. فانضم إلى القعقاع الحارث بن ظبيان (أحد بنى تيم اللات من الرباب وكانت صفوفهم إلى جوار تميم عن يمينها)، فبارز القعقاع بيرزان فسدد إليه القعقاع ضربة سيف قوية فوق عنقه أذرت برأسه. وبارز ابن ظبيان بندوان فضربه ضربة أطاحت برأسه أيضاً. ثم برزت فرسان المسلمين للمبارزة فكان القعقاع يقول لهم:

«يا معاشر المسلمين باشروهم بالسيوف فإنما يحصد الناس بها».

وتواصى الناس وتشايعوا[1] فاجتلدوا بها حتى المساء.

وبرز رجل من المجوس أمام صفوف بكر بن وائل فنادى: «من يبارز؟» فخرج له علباء بن جحش العجلى فنفحه[2] علباء فأصابه فى صدره وشق رئته ونفحه الآخر فأصابه فى بطنه وانتثرت أمعاؤه وسقطا معاً إلى الأرض. أما المجوسى فمات من ساعته وأما علباء فلم يستطع القيام وحاول أن يعيد أمعاءه إلى مكانها فلم يتأت له ومر به رجل من المسلمين فقال له علباء: «يا هذا أعنى على بطنى». فأدخل له أمعاءه فأخذ بصفاقيه ثم زحف نحو صف العجم دون أن يلتفت إلى المسلمين وراءه فأدركه الموت على ثلاثين ذراعاً من مصرعه وهو يقول:

أرجو بها من ربنا ثوابا قد كنت ممن أحسن الضرابا

وفاضت نفسه[3].

وخرج رجل آخر من العجم فنادى: «من يبارز؟»

فبرز له الأعرف بن الأعلم العقيلى من عامر بن صعصعة من قيس عيلان بأقصى الميمنة فقتله، فخرج له مجوسى آخر فقتله فخرج إليه بعض فرسانهم وأحاطوا به فأوقعوه وسقط

(١) كل قوم أمرهم واحد يتبع بعضهم رأى بعض فهم شيع، (مختار الصحاح).
(٢) النفح الضرب إلى خارج اليمين.
(٣) الطبرى ٣ / ٥٤٦ س ش س عن الغصن عن العلاء بن زياد والقاسم بن سليم عن أبيه.

سلاحه من يده فأخذوه فغبّر فى وجوههم بالتراب حتى رجع إلى أصحابه وهو يقول :

وإن يأخذوا بزّى فإنى مُجرَّبٌ ... خَرُوجٌ من الغمَّاء مُحْتضر النصر
وإنى لحامٍ من وراء عشيرتى ... ركوب لآثار الهوى مُحفل الأمرِ

وكانت بنو سليم أيضاً من قيس عيلان فى الميمنة فخرج منها أبناء الخنساء الأربعة للقتال . قال أولهم :

يا إخوتى إن العجوز الناصحة ... قد نصحتنا إذ دعتنا البارحة
مقالة ذات بيان واضحة ... فباكروا الحرب الضروس الكالحة
وإنما تلقون عند الصائحة ... من آل ساسان الكلاب النابحة
قد أيقنوا منكم بوقع الجائحة ... وأنتم بين حياة صالحة

أو ميتة تورث غنماً رابحة

وتقدم فقاتل حتى قتل ، فحمل الثانى وهو يقول :

إن العجوز ذات حزم وجلد ... والنظر الأوفق والرأى السَّدَد
قد أمرتنا بالسداد والرَّشد ... نصيحة منها وبراً بالولد
فباكروا الحرب حماة فى العدد ... إما لفوز بارد على الكبد
أو ميتة تورثكم عز الأبد ... فى جنة الفردوس والعيش الرغد

وقاتل حتى استشهد . وحمل الثالث وهو يقول :

والله لا نعصى العجوز حرفا ... قد أمرتنا حدباً وعطفا
نصحاً وبراً صادقاً ولطفا ... فبادروا الحرب الضروس زحفا
حتى تلفوا آل كسرى لفا ... أو يكشفوكم عن حماكم كشفا
إنا نرى التقصير عنكم ضعفا ... والقتل فيكم نجدة وزُلْفى

وقاتل حتى استشهد . وحمل الرابع وهو يقول :

لست لخنساء ولا للأخْرَمِ ... ولا لعمرو ذى السناء الأقدم
إن لم أرِدْ فى الجيش جيش الأعجم ... ماض على الهول خِضَمٍّ خضرم
إما لفوز عاجل ومغنم ... أو لوفاة فى السبيل الأكرم

فقاتل حتى استشهد[1]. وبلغ الخنساء خبر بنيها الأربعة - وهى التى عاشت حياتها تبكى أخاها صخراً الذى قتل فى الجاهلية - فقالت :

«الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم، وأرجو من ربى أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته».

وحمل القعقاع ثلاثين[2] حملة على طريقة الكر والفر قتل فيها ثلاثين فارساً، كلما طلعت قطعة كبّر وهجم فقتل وكان يرتجز ويقول :

أزعجهم عمداً بها إزعاجا أطعَنُ طعناً صائباً ثَجَّاجا
أرجو به من جنة أفواجا

وكان آخر من قتل القعقاع يوم أغواث بُزُرْجُمهر الهمذانى وفيه قال القعقاع :

حبوته جياشة بالنفس هدَّارة مثل شعاع الشمس[3]
فى يوم أغواث فَلَيْل الفُرس أنخُسُ بالقوم أشدَّ النَّخس
حتى تفيضَ مَعْشرى ونفسى

وبارز الأعور بن قطبة شَهْرَبَرَاز سِجْستان فقتل كل واحد منهما صاحبه، وحمل الأعور إلى العذيب حيث أسلم الروح فقال أخوه الأسود بن قطبة فى ذلك :

لم أر يوماً كان أحلى وأمَرْ من يوم أغواث إذ افترَّ الثَّغْر
من غير ضحك كان أسوَى وأبر

قعقاعية جديدة

وغلب على يوم أغواث ابتكار قعقاعى طريف وجديد يدل على ما لذلك العبقرى من ألمعية وابتكار. فقد قص عليه المسلمون ما كان من الأفيال يوم أرماث وكيف خافتها خيول المسلمين. وكما استوحى خالد فكرة كمين الولجة من العجم، كذلك فعل القعقاع يوم

---

(١) الاستيعاب ٢٧٨، والإصابة ٣٥٥ نساء. وكان عمر بن الخطاب يعطيها أرزاق أولادها الأربعة لكل واحد منهم مائتى درهم (معاشاً) حتى قتل.

(٢) الطبرى ٣ / ٥٤٦ س ش س عن الغصن عن العلاء والقاسم عن أبيه.
الطبرى ٣ / ٥٤٧ س ش س عن محمد وطلحة وزياد.

(٣) حبوته جياشة بالنفس : منحته طعنة قاتلة تذهب بنفسه، هدارة بالهدير : وهو الحركة مع الصوت، معشرى : عشيرتى.

أغواث. أراد أن يرهب خيل الفرس، ولكن أنى له ذلك وليس للمسلمين أفيال؟ عمد إلى بنى عمه من المشاة فجعلهم عشرات كل عشرة مجموعة فحملهم على إبل قد ألبسوها وجللوها[1] وبرقعوها ببراقع، وجعل لها خيلاً أطافت بها لتحميها وأمرهم أن يحملوا على خيل المجوس يتشبهون بالفيلة ففعلت هذه الإبل يوم أغواث بخيل العجم كما فعل العجم بخيل المسلمين يوم أرماث، فكانت تلك الإبل لا تطلع على قليل ولا كثير من فرسان المجوس إلا نفرت بهم خيلهم وركبهم فرسان المسلمين يطعنونهم.

ويبدو أن من القبائل الأخرى غير تميم من قلد القعقاع فيما فعل، فكان مما ذكر سعد لعمر أن وصف الحارث بن قموم البهزى من بنى سليم (من قيس عيلان فى الميمنة) بالشجاعة وقال:

«لم أر راكباً مثل الحارث بن قموم، إنه جلل بعيره وبرقعه ثم ركب الفراديس (ربما كان الصواب الكراديس) ففرق بينها فإذا بصر بفارس انحط عليه فعانقه ثم قتله ثم وثب على بعيره من قيام»[2].

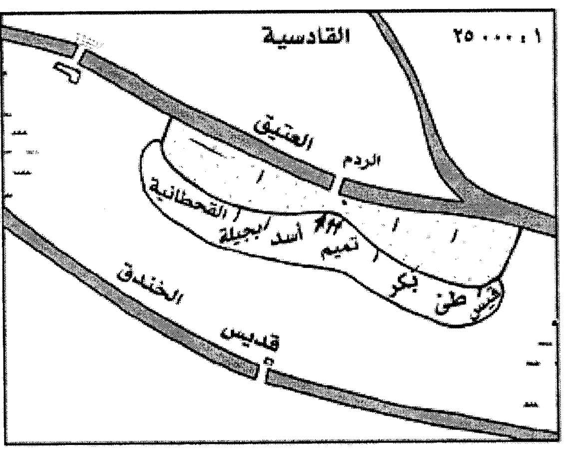
وكذلك وصف له يعفور بن حسان الذهلى فقال:

«لم أر رجلاً مثل يعفور، إنه قد جاء فى يوم بخمسة فوارس يختل الرجل منهم حتى يرميه ثم يغلبه على عنايته حتى يأتى به مسلماً»[3].

الزحف

واستمرت المبارزة والطراد بين الفرسان منذ أصبحوا إلى انتصاف النهار. فلما صلوا الظهر تزاحف الناس فاقتتلوا بها حثيثاً اثنتى عشرة ساعة حتى انتصف الليل، فكانت هذه الليلة تسمى ليلة السواد (والسواد هو النصف الأول من الليل). وجالت الخيل فى القلب وشدد المسلمون ضغطهم عليه واستخدموا فى ذلك الإبل المبرقعة فزالت خيل المجوس فيه غير أن مشاتهم ثبتت واستمر المسلمون يضغطون على القلب حتى كادوا أن يصلوا إلى رستم لولا أن خيل المجوس كرت فاستعادت مواقعها. وقتل فى ذلك رجل من بنى تميم اسمه سواد كان ممن يحمى العشرة من حماة الإبل جعل يطلب الشهادة ويتعرض لها وظل يحمل وتبطئ عليه الشهادة حتى تعرض لسرير رستم يريده فأصيب دونه[4].

(١) الجلال: ما يشد على بطن الدابة من صوف.
(٢) الإصابة، ١٩٢٥.
(٣) الإصابة، ٩٤٢٧.
(٤) الطبرى ٣ / ٥٤٥ س ش س عن القاسم بن سليم بن عبدالرحمن السعدى عن أبيه.



خريطة رقم (١٢) القادسية (٦)

جوائز من عمر

وقدم رسول لعمر على سعد يحمل أربعة أسياف ومعه أربعة أفراس هدية - أو مكافأة - من أمير المؤمنين يقسمها فيمن انتهى إليه البلاء إن كان لقى قتالاً. فدعا سعدُ حمَّالَ بن مالك والربيل بن عمرو بن ربيعة الوالبيين وطليحة ابن خويلد الفقعسى - وكلهم من بنى أسد - وعاصم بن عمرو التميمى فأعطاهم الأسياف. ودعا القعقاع بن عمرو واليربوعيين نُعَيمْ وعتاب وعمرو بن شبيب فحملهم على الخيل. فأصاب ثلاثة من بنى أسد ثلاثة أرباع الأسياف وأصاب ثلاثة من بنى يربوع من تميم ثلاثة أرباع الأفراس. وفى ذلك قال الربيل بن عمرو الأسدى:

لقد عَلِمَ الأقوامُ أنَّا أحقُّهم	إذا حصلوا بالمُرهَفات البواتر
وما فتئت خيلى عشية أرمَثوا	يذودون رَهْواً عن جموع العشائر
لدُنْ غُدوةً حتى أتى الليل دونهم	وقد أفلحَتْ أخرى الليالى الغوابرِ[1]

(١) رهواً: على مهل. الغدوة: من بعد الفجر إلى طلوع الشمس.

وقال القعقاع في شأن الخيل:

لم تعرف الخيل العراب سواءنا ... عشية أغواث بجنب القوادس
عشية رحنا بالرماح كأنها ... على القوم ألوان الطيور الرسارس[1]

---

(١) الخيل العراب: العربية الأصيلة. الرسارس: النشيطة.

ليلة السواد

قتال في الليل

وسحب الليل رداءه على الميدان والفريقان مازالا ملتحمين يتقاتلان، فكان المسلمون ينتمون يعني ينتمي كل منهم إلى وحدته فيصيح الأسدى يا بنى أسد فيجاوبونه ويقول التميمي واتميماه وهكذا حتى لا تختلط صفوفهم ويضيعوا فى الظلام.

أبو محجن[1] في المعركة

وعلا صليل السيوف وأصوات المعركة فبلغت مسامع الذين حبسهم سعد فى القصر مقيدين لاعتراضهم على خالد بن عرفطة. فصعد أبو محجن الثقفى بعد أن دخل الليل إلى سعد وهو مشرف من فوق القصر يستعفيه ويسترضيه ويستميحه أن يفك قيده ويسمح له بالقتال، فزجره سعد ورده إلى محبسه فنزل إليه. ثم جاء إلى امرأة[2] سعد فقال لها:

«يا سلمى يا بنت آل خصفة، هل لك إلى خير؟»

قالت: وما ذاك؟

قال: «تُخلين عنى وتعيرينى البلقاء! فلله على إن سلمنى الله أن أرجع إليك حتى أضع رجلى فى قيدى».

فقالت: «وما أنا وذاك».

فرجع إلى مكانه يرسف فى قيوده ويقول:

---

(١) انظر ترجمة أبى محجن فى آخر الكتاب تحت عنوان: «ترجمة مشاهير قادة الفتح».

(٢) الطبرى ٣ / ٥٤٧ س ش س عن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم وشاركهم ابن مخراق عن رجل من طىء. وذكر الطبرى رواية عن ابن اسحق أن صاحبة هذه الواقعة هى زبراء أم ولد سعد (وليست سلمى).

كفى حَزَناً أن ترتدى الخيل بالقنا وأترك مشدوداً عليّ وثاقيا
إذا قمت عَنَّانى الحديدُ وغُلِّقت مصارع دونى قد تُصمُّ المناديا
وقد كنت ذا مال كثير وإخوة فقد تركونى واحداً لا أخا ليا
وقد شف جسمى أننى كل شارق أعالج كبلاً مصمتاً قد برانيا
فلله درى يوم أُترك مُوثقاً ويذهل عنى أثرتى ورجاليا
حبسنا عن الحرب العوان وقد بدت وأعمال غيرى يوم ذاك العواليا
فلله عهد لا أخيس بعهده لئن فرجت أن لا أزور الحوانيا

فراجعت سلمى نفسها وقالت :

«إنى استخرت الله ورضيت بعهدك».

فأطلقته وقالت : «أما الفرس فلا أعيرها».

ورجعت إلى بيتها، فاقتاد أبو محجن الفرس فأخرجها من الباب الخلفى للقصر المواجه للخندق وكانت يقال لها البلقاء، فركبها ثم دب عليها واتجه إلى الميمنة حيث قومه من بنى ثقيف فكبّر وحمل على ميسرة الفرس يلعب برمحه وسيفه بين الصفين (قال بعضهم إن البلقاء كانت بسرجها وقال آخرون بل كانت عُريا). ثم رجع من خلف المسلمين واتجه إلى الميسرة فكبّر وحمل على ميمنة المجوس يلعب بين الصفين برمحه وسلاحه. ثم رجع من خلف المسلمين إلى القلب فبرز أمام الناس فحمل على العجم يلعب بين الصفين برمحه وسلاحه فكان يقصف المجوس ليلتئذ قصفاً منكراً ولا يحمل على رجل إلا قتله ودق صلبه، والناس منه فى أشد العجب وهم لا يعرفونه، ويغلب على ظننا أنه كان ملثماً إذ لو كان حاسر الوجه لعرفوه ولم يكن أحد قد رآه بالنهار، فقال بعضهم لعله أوائل أصحاب هاشم بن عتبة أو لعله هاشم نفسه. وظل أبو محجن يحمل على العجم فلا يقف بين يديه أحد. لقد كان فارساً شديداً مغواراً ولعل حبسه يوم أرماث ويوم أغواث قد حال دون إجهاده فكان جم النشاط موفور القوة والناس متعبون.

وكان سعد من أحد الناس بصراً فجعل ينظر إليه فى ظلام الليل وهو مشرف مكب من فوق القصر ويقول :

«من ذلك الفارس؟ الضبر[1] ضَبْر البلقاء والطعن طعن أبى محجن وأبو محجن فى القيد.

---

(١) إذا جمع الفرس يديه فوثب فوقع مجموعة يداه فذلك الضبر - بلوغ الأرب ٢ / ٩٤.

والله لولا محبس أبى محجن لقلت هذا أبو محجن وهذه البلقاء».

وقال بعضهم لولا أن الملائكة لا تباشر القتال لقلنا ملك يثبتنا. ولا يذكر الناس أبا محجن ولا يأبهون له لعلمهم أنه بات فى محبسه.

سعد ينام فى المعركة

ولم يكن سعد يتوقع تطورات جديدة فنام وقال لبعض من عنده:

«إن تم الناس على الانتماء (ظلوا عليه) فلا توقظنى فإنهم أقوياء على عدوهم، وإن سكتوا ولم ينتم الآخرون فلا توقظنى فإنهم على السواء، فإن سمعتهم ينتمون فأيقظنى فإن انتماءهم من السوء».

لا شك أن نوم سعد يدل على منتهى ما يجب أن يتحلى به القائد من هدوء الأعصاب... أن ينام والمعركة على قيد أمتار منه. ولكن هذا المسلك من سعد صواب هو أم خطأ؟

لقد رأينا من كبار القادة فى تاريخ العالم من سار على هذا النهج يقلده. فهذا نابليون بونابرت فى القرن التاسع عشر الميلادى كان ينام فى معاركه. نام فى معركة اوسترليتز بالنمسا من أكبر وأشهر معاركه ونام فى غيرها وكان يقول إنه يتفاءل من ذلك وأن أحسن أخبار معاركه ما كان يأتيه وهو نائم يوقظوه[1] به. مثال آخر، الفيلد مارشال مونتجومرى الذى قاد الجيش الثامن البريطانى فى صحراء مصر الغربية فى الحرب العالمية الثانية، وقاد الجيوش البريطانية فى غزو أوروبا، والذى يُعد من أعظم قادة هذه الحرب، كتب فى مذكراته يقول فى معرض وصفه لليوم الأول من معركة هى من أكبر معارك الحرب العالمية الثانية وأشدها حسماً، تلك هى معركة العلمين الذى هجمت فيه قواته على القوات الألمانية والإيطالية يقودها القائد الألمانى الشهير رومل:

فى صباح[2] ٢٣ أكتوبر (تشرين الأول) (١٩٤٢) تصفحت جرائد اليوم. وبعد الظهر ذهبت قدماً إلى مركز قيادتى بالميدان الذى أقيم بالقرب من مركز قيادة الفرقة الثلاثين. وفى المساء قرأت كتاباً ثم توجهت إلى فراشى مبكراً. وفى العاشرة إلا ثلثاً مساء فتحت فوهات ما يزيد عن ألف مدفع غلالة من النيران وتحرك الجيش الثامن للهجوم بنحو من ١٢٠٠ دبابة. فى

---

(١) نابليون، اميل لودفيج.

(٢) The Memoirs Field Marshal Viscount Montgomery. p. 128 - 23. 10.42.

هذه اللحظة كنت أغط فى نومى فى عربة النوم الخاصة بى، لم يكن هناك ما أستطيع أن أفعل وكنت أعلم أن الأمر سيحتاج إلىَ بعد ذلك. فى كل معركة دائماً ما تكون هناك أزمة حينما يتأرجح مصيرها فى الميزان، وكان فى تقديرى أن أحصل على ما أستطيع من الراحة حين يتسنى لى ذلك. لقد أصبت عين الصواب إذ فعلت ذلك فقد كان تدخلى مطلوباً بأسرع مما كنت أتوقع.

وانتصف الليل فتحاجز العجم وتراجع المسلمون وأسرع أبو محجن فأقبل حتى دخل من حيث خرج ووضع عن نفسه وعن دابته وأعاد رجليه فى قيده وأنشد وهو مغتبط سعيد:

لقد علمت ثقيف غيرَ فخرٍ	بأنا نحن أكرمهم سيوفا
واكثرهمْ دروعا سابغات	واصبرهم إذا كرهوا الوقوفا
وأنا وفدُهم فى كل يوم	فإن عميوا فسَلْ بهمُ عريفا
وليلة قادس لم يشعروا بى	ولم أشعر بمخرجى الزُحوفا
فإن أحبس فذلكمُ بلائى	وإن أترك أذيقُهُم الحتوفا

لماذا أغواث

عرفنا لماذا أطلق على الأمس اسم أرماث. ونظن أن علة اسم معركة اليوم - أغواث - قد بات الآن مقبولاً، فهو اليوم الذى بلغ الغوث فيه المسلمين بوصول القعقاع وطلائع جيش خالد واشتراكهما فى المعركة وبظهور أثرهم وفاعليتهم فيها، وأيضاً بغياب الأفيال ذلك السلاح الجبار من الجبهة المجوسية، كل أولئك كان غياثاً للمسلمين استحق به اليوم اسم أغواث.

الباب الثامن

عماس

السبت ١٥ شعبان ١٥ هـ - ٢١ سبتمبر (أيلول) ٦٣٦م

اليوم الثالث

هذا هو اليوم الثالث على التوالى من أيام القادسية. أصبح المسلمون على مواقفهم وأصبح المجوس على مواقفهم. وكان ما بين المسلمين والعجم بطول ميل فى عرض ما بين الصفين مثل الرِّجْلة الحمراء مما خالطه من دماء[1].

وكانت سلمى مازالت مغاضبة لسعد منذ لطمها يوم أرماث، وفى هذا الصباح أتته فصالحته وأخبرته خبرها وخبر أبى محجن فسامحه سعد ودعا به فأطلقه[2].

نخلة على طريق العذيب

جمع المسلمون شهداءهم وجرحاهم الذين أصيبوا يوم أغواث فكانوا جميعاً ألفين، جمعوهم من الميدان فأحرزوهم خلف صفوفهم وقال لهم سعد:

«من شاء غسل الشهداء ومن شاء فليدفنهم بدمائهم».

كذلك حكم الشرع. وأقبل رجال حاجب بن زيد الأنصارى يحملون الشهداء والجرحى إلى العذيب. وسار حاجب ومن معه بذلك الموكب المحمل على الإبل فمروا بنخلة بين القادسية والعذيب ليس بينهما يومئذ نخلة سواها فبدت فى أعين الجرحى وكأنها واحة غناء فى تلك الصحراء. فكانوا إذا بلغوها وبالجرحى أحد يعقل ويدرك ما حوله سألهم أن يقفوا به تحتها يستروح إلى ظلها، فإذا وقفوا جرت ألسنتهم بما درجت عليه طبيعتهم العربية من تسجيل تلك المواقف تسجيلاً شعرياً.

قال رجل يدعى بجيراً وهو مستظل بظلها:

ألا يا اسلمى يا نخلةً بين قـادسٍ ... وبين العـذيب لا يجـاورك النخلُ

---

(١) الطبرى ٣ / ٥٥٠ السرى عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم.

(٢) فى رواية الطبرى عن ابن اسحق أن قصة أبى محجن كانت مع الزبراء، وتذهب إلى أن سعداً نزل من رأس الحصن فرأى فرسه تعرق فعرف أنها قد ركبت فسأل زبراء (أم ولده) عن ذلك فأخبرته خبر أبى محجن فخلى سبيله. (الطبرى ٤-١٣٩).

وقال جريح من بنى ضبة (من الرباب) أو من بنى ثور يدعى غيلان :

ألا يا اسلمى يا نخلةً بين جَـرْعَـةٍ   يجـاورك الجُـمـانُ دونك والرَّغْلُ

فجاوبهما ربعى - جريح من بنى تيم الله :

أيا نخلة الجرعاء يا جرعة العدى   سقتك الغوادى[1] والغُيوثُ الهواطل

فقال الأعور بن قطبة - الذى قتل شهر برازسجستان وأصابه هذا :

أيا نخلة الرُكبان لازُلْت فانفُرى   ولازال فى أكناف[2] جرعائك النخل

وقال عوف بن مالك التميمى - ويقال التيمى تيم الرباب :

أيا نخلةً دون العـذيب بتَلْعَـةٍ   سقيت الغوادى المدجنات من النخل[3]

الشهداء والقتلى

وفى العذيب كان نساء المسلمين وصبيانهم يحفرون القبور فى اليومين يوم أرماث ويوم أغواث بجانبى وادى مُشَرِّق، فدفنوا بها ألفين وخمسمائة من أهل القادسية ومنهم من شهد الأيام قبلها فى فتوح العراق.

أما قتلى المجوس فقد بلغوا عشرة آلاف قد أضيعوا فتركت جثثهم ملقاة حيث قتلت وكانوا لا يعرضون لموتاهم ولا يهتمون بحملهم فكان مكانهم مما صنع الله للمسلمين يشد بها أزرهم ويفت فى معنويات الفرس. ولقد مر بنا حين أفردنا فصلاً خاصاً عن المجوسية فى الطريق إلى المدائن أن ذلك الدين كان يحرم دفن الموتى!! وإنما كانوا يتركون جثثهم لجوارح الطير تنهشها.

ثم جاء هاشم

وكانت فى يوم عماس قعقاعية جديدة إذ بات القعقاع ليلته كلها يسرّب أصحابه سراً إلى المكان الذى فارقهم فيه من الأمس وقال لهم: «إذا طلعت لكم الشمس فأقبلوا مائة مائة كلما

(١) السحاب.

(٢) الأكناف: الجوانب - الكامل للمبرد - يقال فلان فى كنف فلان يعنى فى ظله.

(٣) التلعة ما ارتفع من الأرض وما انهبط فهو من الأضداد - المدجنات ذات الغيم.

توارى عنكم مائة فليتبعها مائة، فإن جاء هاشم فذاك وإلا جددتم للناس رجاء وجداً».

ولم يشعر بهم وهم يخرجون أحد من جنود المسلمين. وأخذ المسلمون مواقفهم فى وقت مبكر قبل طلوع الشمس، ووقف القعقاع ينظر ويتطلع نحو الطريق ملقياً فى روع المسلمين أنه يتوقع هاشماً وأصحابه، فلما ذر قرن الشمس من وراء الأفق طلعت نواصى الخيل فكبر القعقاع وكبّر المسلمون وقالوا جاء المدد. وكان عاصم بن عمرو قد صنع برجاله مثل صنع القعقاع فجاءوا من جهة خفان وانتعش المسلمون لذلك فتقدم فرسانهم للطراد وتكتبت كتائبهم فتبادلوا الطعن والضرب ومددهم متتابع كلما وصلت مائة شد وصولها من أزر المسلمين، فما جاء آخر أصحاب القعقاع حتى انتهى اليهم هاشم فى سبعمائة من أصحابه، فأخبروه برأى القعقاع وما صنع فى يوميه، فعبى هاشم أصحابه سبعين سبعين لتتلاحق قطعة وراء قطعة، وخرج هاشم فى أول سبعين منهم معه فيهم قيس بن هبيرة[1] بن عبد يغوث قائد ميمنته وكان قيس قد فقد إحدى عينيه فى اليرموك. وكان فيهم أيضاً سعيد بن نمران الهمدانى[2]. ويبدو من هذا أن ميمنة هاشم كانت من أهل اليمن القحطانية. وأقبل هاشم حتى إذا خالط القلب كبّر وكبّر المسلمون وهم فى مصافهم[3].

رجوع الفيلة

فى هذا اليوم – عماس – عادت الفيلة إلى الظهور، فقد ظل الفرس نهار أغواث وباتوا فى علاج توابيتها حتى تمّ لهم إصلاحها فأصبحوا على مواقفهم وقد أخذت الفيلة أماكنها بينهم. وكان رستم يدرك أن ما حدث للفيلة يوم أرماث يمكن أن يحدث مرة أخرى ولذلك اتخذ إجراء مضاداً فجعل مع كل فيل حماة من المشاة يحمونه أن تقطع أحزمته، وجعل مع هؤلاء الحماة فرساناً يحمونهم، فكانوا إذا أرادوا الهجوم على كتيبة دلفوا لها بفيل وحوله حماته لينفروا به خيلها. غير أن الفيلة لم تكن يوم عماس كما كانت يوم أرماث، فإن الفيل إذا كان وحده ليس معه أحد كان أوحش أما إذا أطافوا به كما هو الآن كان آنس.

---

(١) فتوح البلدان ٦٣٥. ويذهب البلاذرى إلى أن قيس بن هبيرة بن مكشوح المرادى كان على سبعمائة.

(٢) الطبرى ٣ / ٥٥٢ س ش س عن المجالد عن الشعبى.
الاستيعاب ٢ / ١٤، الإصابة ٣٦٨٤.

(٣) الطبرى ٣ / ٥٥٢ س ش س عن محمد وطلحة وزياد.
الطبرى ٣ / ٥٥٣ س ش س عن عمرو بن الريان عن إسماعيل بن محمد وقال كنا نرى أنه كان فى الميمنة.
الطبرى ٣ / ٥٥٣ س ش س عن جخدب بن جرعب عن عصمة الوايلى.

وقال هاشم: «أول القتال المطاردة ثم المراماة».

وأخذ قوسه فوضع سهماً على كبدها ثم نزع فيها فرفعت فرسه رأسها فجأة - وكان لا يقاتل إلا على فرس أنثى لا يقاتل على ذكر - فقطع أذنها، فضحك وقال: «واسوأتاه من رمية رجل كل من رأى ينتظره. أين ترون سهمي كان بالغاً لو لم يصب أذن الفرس؟»

قالوا: «كان يبلغ كذا وكذا» (وفي رواية أنه قيل كان يبلغ العتيق).

فأجال فرسه ثم نزّقها وقد نزع السهم ثم ضربها حتى بلغت حيث قالوا ثم ضربها فأقبلت به تخرقهم حتى عاد إلى موقفه. ورواية أخرى تذهب إلى أنه أجال فرسه (دار بها) ثم نزل وتركه وخرج إليهم يضربهم حتى بلغ حيث[1] قالوا. ومازالت قواته تصل تباعاً.

وخرج رجل من ميسرة المجوس بين الصفين أمام بني عبدقيس فهدر وشقشق ونادى: «من يبارز؟» فلم يجبه أحد.

فقال شَبَرْ بن علقمة - وكان قصيراً دميماً: «يا معشر المسلمين قد أنصفكم الرجل فلم يجبه أحد ولم يخرج إليه أحد، أم والله لولا أن تزدروني لخرجت إليه».

فلما لم يمنعه أحد أخذ سيفه وحجفته وتقدم سائراً على رجليه. فلما رآه الأعجمي هدر وصاح ثم نزل إليه من على فرسه وقد ربط لجامها بحزامه وهجم على شبر فاحتمله فجلس على صدره ثم استل سيفه ليذبحه فتحرك الفرس فجذبه باللجام المثبت بحزامه فقلبه عن شبر واستمر الفرس يسحب صاحبه على الأرض فقام شبر مسرعاً وأقبل عليه فافترشه فصاح الفُرس به فقال لهم:

«صيحوا ما بدا لكم فوالله لا أفارقه حتى أقتله وأسلبه».

فذبحه وسلبه ثم أتى به سعداً. فقال: «إذا كان حين الظهر فأتني».

فوافاه بالسلب فحمد سعد الله وأثنى عليه ثم قال:

«إني رأيت أن أنحله إياه وكل من سلب سلباً فهو له».

---

(١) الطبري ٣ / ٥٥١ س ش س عن محمد وطلحة وزياد.

الطبري ٣ / ٥٥٣ س ش س عن عمرو بن الريان عن إسماعيل بن محمد بن سعد.

فباعه باثنى عشر ألف درهم[1]. يروى ابن حجر العسقلانى عن شبر بن علقمة العبدى قال: «بارزت رجلاً يوم القادسية فقتلته فبلغ سلبه اثنى عشر ألفاً فنفلنى الأمير سعد سلبه»[2].

كان شبر بن علقمة نموذجاً لرجل فقد بسطة الجسم وقوته ولكنه لم يفقد إيمانه ومعنويته وفتوة قلبه.

وقام قيس بن المكشوح فى الميسرة فقال:

«يا معشر العرب إن الله قد من عليكم بالإسلام وأكرمكم بمحمد ﷺ فأصبحتم بنعمة الله إخواناً، دعوتكم واحدة وأمركم واحد بعد إذ أنتم يعدو بعضكم على بعض عَدْوَ الأسد ويتخطف بعضكم بعضاً اختطاف الذئاب، فانصروا الله ينصركم وتنجزوا من الله فتح فارس، فإن إخوانكم أهل الشام قد أنجز الله لهم فتح الشام وانتثال القصور الحمر والحصون الحمر»[3].

ونظر عمرو بن معدى كرب إلى فيل كان تجاهه وقال لمن معه من بنى زبيد (فى الميسرة): «إنى حامل على الفيل ومن حوله فلا تدعونى أكثر من جزر جزور (مقدار ذبح جمل) فإن تأخرتم عنى فقدتم أبا ثور فإنى لكم مثل أبى ثور. فإن أدركتمونى وجدتمونى وفى يدى السيف».

ثم حمل عليهم فما انثنى عن عزمه حتى ضرب فيهم وستره الغبار عن أصحابه.

فقالوا: «ما تنتظرون؟ ما أنتم بخلقاء أن تدركوه وإن فقدتموه فقد المسلمون فارسهم».

فحملوا حملة فانفرج الفرس عنه وقد أوقعوه وطعنوه وطعنوا فرسه وما زال سيفه فى يده يضاربهم به. فلما رأى أصحابه وقد مر به رجل من العجم على فرس له، أخذ عمرو برجل الفرس فلما حركه راكبه اضطرب والتفت الفارس إلى عمرو فهمَّ به ولكن المسلمين حملوا عليه فنزل عن فرسه - الذى قيد عمرو أقدامه - وجرى نحو أصحابه.

قال عمرو: «أمكنونى من لجامه».

فأمكنوه[4] منه فركبه بدلاً من فرسه.

---

(١) الطبرى ٣ / ٥٥٤ س ش س عن عبدالله بن المغيرة العبدى عن الأسود بن قيس عن أشياخ لهم شهدوا القادسية.

(٢) الإصابة ٣٩٥٦.

(٣) الطبرى ٣ / ٥٥٤ س ش س عن أبى كبران الحسن بن عقبة.

(٤) الطبرى ٣ / ٥٥٤ س ش س عن المقدام الحارثى عن الشعبى.

واستعمل الفرس الأفيال فوجهوها ضد كتائب الفرسان فعادت تفرقها كيوم أرماث. فلما رأى سعد ذلك أرسل إلى الفرس الذين أسلموا وانضموا إليه، ضخم ومسلم ورافع وعَشَنَّق[1] والرُّفيل وأصحابهم فدخلوا عليه. فسألهم عن الفيلة وهل لها مقاتل؟

فقالوا: «نعم. المشافر والعيون لا ينتفع بها بعدها».

وكان أكبر الأفيال فيلان وضعهما[2] رستم فى القلب أحدهما أبيض وكان أمام بنى تميم والثانى أجرب وكان حيال بنى أسد. وكانت جميع الفيلة الأخرى آلفة لهذين الفيلين تقلدهما وتتبعهما. فأرسل سعد إلى القعقاع وعاصم ابنى عمرو:

«اكفيانى الفيل الأبيض».

وأرسل إلى حمال بن مالك - أمير المشاة - والربيل بن عمرو:

«اكفيانى الفيل الأجرب».

وأوضح لهم مقاتل الأفيال.

فأخذ القعقاع وعاصم رمحين أصمين لينين ودبا فى كتيبة من خيل ومشاة وقالا لهم: «اكتنفوه لتحيروه».

وهما معهم فأطافوا به وخالطوا حراسه والتحموا معهم. وظل الفيل متخبطاً ينظر يمنة ويسرة وهو متحير، فحمل القعقاع وعاصم على الفيل وهو متشاغل بمن حوله فوضعا رمحيهما معاً فى وقت واحد وتنسيق فى عينيه. وجلس الفيل على يديه ورجليه ونفض رأسه فألقى سائسه من فوقه ودلى خرطومه، فنقل القعقاع رمحه إلى يسراه واستل سيفه فنفح

---

(١) الطبرى ٣ / ٥٥٥ س ش س عن محمد وطلحة وزياد.
ومسلم هو الذى أسره طليحة بن خويلد فى غارته على معسكر الفرس بالنجف وجاء به إلى سعد فأسلم. والرفيل هو الذى رغب فى الإسلام بعد أن رأى رستم فى المنام وهو بالنجف أن ملكاً ختم سلاح أهل فارس ثم دفعه إلى النبى فدفعه إلى عمر، فلما بلغوا العتيق عبر القنطرة ومال إلى زهرة فأسلم. أما الآخرون ضخم ورافع وعشنق فلم نقف على قصص إسلامهم.

(٢) نفس المصدر.
الطبرى ٣ / ٥٥٦ س ش س عن المجالد عن الشعبى.
الطبرى ٣ / ٥٥٦ س ش س عن عمرو عن الشعبى.

الخرطوم فقطعه، ورمى به على الأرض، ووقع الفيل على جنبه وقد أعمى، وسقط من كان فى التابوت فوقه فقتلتهم كتيبة القعقاع وعاصم.

وفى نفس الوقت كان حمال بن مالك والربيل بن عمرو يقولان لبنى أسد: «يا معشر المسلمين أى الموت أشد؟»

قالوا: «أن يشد على هذا الفيل».

فخرجا إليه فى خيل ومشاة حتى أطافوا بالفيل الأجرب عن يمينه وشماله ليحيروه وقال حمال للربيل:

«اختر إما أن تضرب المشفر (بالسيف) وأطعن فى عينه (بالرمح) أو تطعن فى عينه وأضرب مشفره».

فاختار الربيل أن يضرب الخرطوم. وحملا مع كتيبتهما فلما تشاغل الفيل بملاحظة من أحاط به من المسلمين وانشغل سائسه أيضاً لايخاف إلا على بطانه (أحزمته) فقد كان مازال معقداً من تقطيع أحزمة الأفيال يوم أرماث، فكان مشغولاً بذلك ينظر إلى أجنابه وإلى خلفه فى ملاحظة مستمرة لأولئك الذين أحاطوا به. إذ ذاك نفذ حمال والربيل ونزّقا فرسيهما (غمزاهما) حتى إذا قاما على أطراف حوافرهما ضرباهما على الفيل وسدد حمال طعنة برمحه إلى عين الفيل، وفوجئ الفيل بالرمح فى عينه قد عوره فأقعى على إسته مفترشاً رجليه وناصباً يديه ووطىء من خلفه من العجم ثم استوى واقفاً فنفح الربيل خرطومه بسيفه فقطعه وبصر سائسه بالربيل فضربه على وجهه وجبينه بالطبرزين[1] ضربة منكرة حطم بها أنفه غير أنه أفلت بها.

وبقى الفيل الأبيض - الذى أعماه القعقاع وعاصم وقطعا خرطومه - متلدداً بين الصفين، كلما أتى صف المسلمين وخزوه وإذا أتى صف المجوس نخسوه وهو يصيح صياح الخنزير. وولى الفيل الأجرب - الذى عوره مالك والربيل - وهو يصيح أيضاً فمرق غاضباً بين صفوف الفرس يدوسهم، وأثار صياحه انتباه الأفيال الأخرى والتفتت إليه فرأته يثب فى العتيق فاتبعته كلها وخرقت صفوف الأعاجم وعبرت العتيق فى أثره وظلت منطلقة حتى بلغت المدائن فى توابيتها وقد هلك من كان فيها.

---

(١) فى المنجد، الطبر والطبرزين: الفأس من السلاح وهما من الدخيل (على العربية) أ هـ. وهو نوع من البلطة كان يتسلح بها سائسو الأفيال وظهر استعماله فى الجيوش الفارسية القديمة والتركية بعد ذلك، وراجع «الطريق إلى المدائن» فصل النظام الحربى للفرس.

الزحف بعد الظهر

تم إخراج الأفيال من المعركة قبل الظهر فلما ذهبت[1] وخلص المسلمون بالفرس ومال الظل تزاحف المسلمون وحماهم فرسانهم الذين قاتلوا أول النهار فاجتلدوا بالسيوف على حرص حتى المساء. وتكتبت كتائب الإبل المجففة المبرقعة فكانوا يضربونها على عرقوبها لتقدم وكفكفوا عنها فحموها. وفي ذلك قال القعقاع بن عمرو:

حضَّضَ قومي مَضْرَحِيُّ بن يعَمْرٍ	فلله قومي حين هَزُّوا العَواليا
وما خام عنها يوم سارت جموعنا	لأهل قُدَيْسٍ يمنعون المواليا
فإن كنت قاتلت العدو فَلَلْتُه	فإني لألقى في الحروب الدواهيا
فيولا أراها كالبيوت مُغيرةً	أُسَمِّلُ أعياناً لها ومآقيا

أمسى الناس يوم عماس وطعنوا في الليل وهم على قتال. وكان عشرة إخوة من بني كاهل بن أسد يقال لهم بنو حرب هم عفاق بن حرب وإخوته فكان أحدهم[2] يرتجز ليلتئذ ويقول:

أنا ابن حَرْبٍ ومعي مِحراقي	أضربهم بصارم رقراق
اذكره الموت أبو اسحق	وجاشت النفس على التَّراقي

صَبْراً عِفَاُق إنه الفراق

فأصيب في فخذه فقال:

صبراً عفاقُ إنها الأساوِرَهْ	صبراً ولا تَغْرُرْكُ رجْلٌ نادِرَهْ

فاستشهد من ضربته تلك.

ونما إلى علم سعد أن هناك مخاضة أسفل من العسكر (ممر ضحل في المستنقعات الواقعة إلى يمينه وفي العتيق) فخشي[3] أن يكون الفرس قد فطنوا إليها فانتقى اثنين من أشد فرسانه

---

(١) الطبري ٣ / ٥٥٦ س ش س عن محمد وطلحة وزياد.

(٢) الطبري ٣ / ٥٥٨ قال: كتب إلى السري عن شعيب عن سيف عن قدامة الكاهلي عمن حدثه.

(٣) الطبري ٣ / ٥٥٨ س ش س عن النضر عن ابن الرفيل عن أبيه عن حميد بن أبي شجار.

الطبري ٣ / ٥٥٧ س ش س عن عمرو بن محمد عن عبدالرحمن بن جيش. (ذكره ابن حجر، عبدالرحمن بن حبيش الأسدي) وكان ممن ثبت على إسلامه في بني أسد وفارق طليحة لما ارتد - الإصابة ٦٣٧٠ وكان من رواة الفتوح.

وأقواهم وهما طليحة بن خويلد الأسدى وعمرو بن معدى كرب الزبيدى، فبعثهما ليقوما عليه خشية أن يتسرب المجوس من جهتها وقال لهما :

«إن وجدتما القوم قد سبقوكما إليها فانزلا بحيالهم وإن لم تجداهم علموا بها فأقيما حتى يأتيكما أمرى».

فخرجا فى بعض من معهما وقد كانا من رؤساء أهل الردة، وكان عمر قد عهد إلى سعد أن لا يولى أحدا منهم على مائة. فلما انتهيا إلى المخاضة لم يريا فيها أحداً.

قال طليحة : «لو خضنا فأتينا الأعاجم من خلفهم».

فقال عمرو : «لا بل نعبر أسفل».

فقال طليحة : «إن الذى أقول أنفع للناس».

فقال عمرو : «وإنك تدعونى إلى ما لا أطيق».

فافترقا. فاتجه طليحة بمفرده نحو الأعاجم من وراء العتيق وقد عبره. أما عمرو فقدساير العتيق إلى أسفل من الموضع الذى عبر منه طليحة ومعه من الجند من كان معه ومع طليحة ثم أغاروا فشعر بهم الفرس. وكان الذى خشيه سعد فبعث قيس بن المكشوح المرادى[1] فى آثارهما فى سبعين رجلاً، وقال : «إن لحقتهم فأنت عليهم».

فلما بلغ المخاضة وجد الفرس يكررون عمراً وأصحابه فكفهم قيس عنهم، ثم أقبل على عمرو يلومه فتجادلا واشتدا فقال أصحاب قيس لعمرو : «إنه قد أمر عليك».

فغضب وسكت على مضض[2] وقال :

«يتأمر علىّ رجل قد قاتلته فى الجاهلية عُمر رَجُل !»

---

(١) يقول الطبرى : «وكان من أولئك الرؤساء الذين نهى عنهم أن يوليهم المائة»، ونظن ذلك خطأ فقد كان قيس بن المكشوح المرادى قائد ميمنة هاشم فى انتقاله من الشام إلى العراق، وكان من الثابتين على إسلامهم حين الردة وكان له دوره وذكره فى قمع ردة اليمن.

(٢) كانا متباغضين وكانت بينهما أمور فى الجاهلية، وفى عمرو قال قيس :

فلو لاقيتنى لاقيت قرناً ... وودعت الأحبة بالسلام

لعلك موعدى ببنى زبيد ... وما قامعت من تلك اللئام

ومثلك قد قرنت له يديه ... إلى اللحيين يمشى فى الخطام

الاستيعاد ٣ / ٢٣٥ - الإصابة ٧٣١٥ - ٧٣١٩ - ٧٢٤١.

تصرف من طليحة

أما طليحة فقد مضى حتى بلغ ردم العتيق خلف جيش الفرس، فوقف تجاهه ثم كبّر ثلاث تكبيرات ثم ذهب فطواه الظلام، فراع الفرس وتعجب المسلمون وكف بعضهم عن بعض للنظر في ذلك وأرسل الفرس في طلبه فلم يدروا أين سلك. وفرح المسلمون وسألوا عن ذلك وما يدرون ما هو. وسفل طليحة حتى خاض المخاضة ثم أقبل إلى العسكر فأتى سعداً وأخبره بما كان.

لماذا عماس

كان التفوق ظاهراً للفرس يوم أرماث. وكان التفوق ظاهراً للمسلمين يوم أغواث. أما يوم عماس فقد كان من أوله إلى اخره شديداً: المسلمون والمجوس فيه على السواء. ولا يكون شيء إلا تناقله الرجال بالأصوات حتى بلغ يزدجرد الثالث بن شهريار في إيوانه، وقد بعث إليهم بأهل النجدات ممن بقي عنده فقووا به، فلولا ما ألهم الله القعقاع في اليومين وما أتيح لهم بوصول هاشم لكسر ذلك المسلمين. وقد انتهى الطرفان يوم عماس على سواء كلهم على ما أصابه كان صابراً، وكلما بلغ المسلمون من المجوس بلغ المجوس من المسلمين[1] مثله.

عرفنا تعليلنا لمعنى اسم اليوم الأول من أيام القادسية - أرماث، وكذلك لمعنى اليوم الثاني أغواث. وقبل أن نمضي مع الأحداث نفسر معنى يوم عماس وليلة الهرير.

في اللغة يقال: عَمس اليوم وعَمُس إذا اشتد وأظلم، ويوم عَماس شديد وحرب عماس وعميس شديدة، وليل عماس شديد الظلام[2]. والعماس أيضاً الأسد الشديد. ولقد كان يوم عماس يوماً شديداً يفسر لنا اسمه على هذا الضوء.

والهرير من هرّ الكلب هريراً إذا صات دون نباح. ويقال: هرت القوس صوتت. والهار: الكلب إذا كشر عن أنيابه. ولقد كانت ليلة الهرير أصواتاً في صمت دون كلام ومن ذلك اكتسبت اسمها.

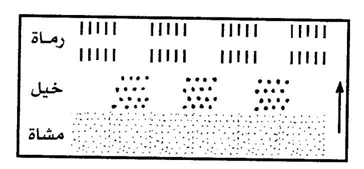
---

(١) الطبري ٣ / ٥٥٣ س ش س عن مجالد عن الشعبي.

(٢) المنجد.

ليلة الهرير

كان حادث طليحة هذا الذى أدى إلى تحاجز الطرفين مهلة لتجديد التعبئة. فكان المسلمون على تعبئتهم السابقة فى ثلاثة صفوف. الصفوف الأولى للرماة، والصفوف الثانية للخيول، والصفوف الثالثة للرجالة المشاة من حملة الرماح وأصحاب السيوف بطول الجبهة.

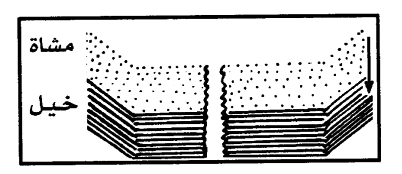


شكل رقم (١) تعبئة المسلمين

وخرج فرسان المسلمين للطراد، فخرج عبدالله بن ذى السهمين الخثعمى وخرج مسعود بن مالك الأسدى وقيس بن هبيرة الأسدى وعاصم بن عمرو التميمى وابن ذى البردين الهلالى وأمثالهم، فانبعثوا للقتال. ولكن الفرس لم يتحركوا وإذا هم لُمَّة لا يشدون ولا يريدون غير الزحف، وإذا رستم قد جدد تعبئته على أمر لم يكونوا عليه فى الأيام الثلاثة السابقة. لقد رأى فى المبارزات السابقة أن المستوى القتالى للمسلمين يفوق المستوى الفارسى وأن النتيجة كانت دائماً فى غير صالحه فقرر أن يكون قتاله الليلة زحفاً لا كراً وفراً. فقدم صفاً من الفرسان فى القلب له أذنان فى المجنبتين واتبعه آخر مثله، وآخر حتى تمت صفوفه من الخيل ثلاثة عشر صفاً.

وأقدم فرسان المسلمين يبغون الطراد والمبارزة فلم يخرج إليهم أحد، فرموهم بالنبال فلم يثنهم ذلك عن ركوبهم وهم على مواقفهم. ثم تكتبت الكتائب من مشاتهم خلف فرسانهم.

هذا الذى فعله رستم فى صف صفوفه ليلة الهرير هو الذى وصف الضابط الرومانى آمين مارسلين شبيهاً له وأثبتناه فى الجزء الأول من كتاب «الطريق إلى المدائن» فصل «النظام الحربى للفرس» من باب «فارس تحت حكم الساسانيين».



شكل رقم (٢) تعبئة الفرس

زحف بغير إذن

الفريقان وقوف كل فى انتظار أوامر قائده فيما عدا التراشق بالسهام تئز ذهاباً وإياباً فى هذا الاتجاه أو ذاك. وأتى من جهة الفرس سهم مزدلف[١] فأصاب خالد بن يعمر التميمى (من بنى عمرو من تميم). ويبدو أن القعقاع كان يتشوق للقتال وملّ الوقوف فحركته إصابة خالد فحمل على الجهة التى خرج منها ذلك السهم وقام من معه على ساق فحملوا معه وهو يقول:

سقى الله يا خَوْصَاءُ قبرَ ابن يعمر ... إذا ارتحل السُّفَّارُ لم يترحَّل
سقى الله أرضاً حلهّا قبر خالد ... ذهابَ غَوادٍ مُدْ جنات تجلجل
فأقسمت لا ينفك سيفى يحسهم ... فإن زحل الأقوام لم أتزحل[٢]

فزاحفهم القعقاع - والناس على راياتهم وقوف - بغير إذن سعد وبقى المسلمون بسائر

(١) المزدلف الذى يسقط بقرب الهدف ثم يَشْتَن فيصيب الهدف - انظر الإصابة بالسهام فى فصل القوس من باب أسلحة العرب - الجزء الأول من «الطريق إلى المدائن».

(٢) الخوصاء: الريح الحارة يكسر الانسان عينه من حرها، والظهيرة الخوصاء: أشدها حراً. يحسهم: يقتلهم. زحل: هرب.

الجبهة وقوفاً فى انتظار تكبيرات سعد إلا من خرج للطراد أو تكتب مع القعقاع.

قال سعد: «اللهم اغفرها له وانصره، قد أذنت له إذ لم يستأذنى. واتميماه سائر الليلة»[1].

وأقر سعد أمام الناس ما فعل القعقاع وقال:

«إن الأمر الذى صنع القعقاع، فإذا كبرت ثلاثاً فازحفوا».

ثم كبّر تكبيرة فتهيأ المسلمون للزحف ورحى الحرب تدور على القعقاع ومن معه.

وقام قيس بن هبيرة المرادى فقال:

«إن عدوكم أبى إلا المزاحفة، والرأى رأى أميركم وليس بأن تحمل الخيل ليس معها الرجالة (المشاة). فإن القوم إذا زحفوا وطاردهم عدوهم على الخيل لا رجال معهم عثروا بهم ولم يطيقوا أن يقدموا عليها، فتيسروا للحملة». (تهيؤوا لها).

فتهيؤوا وانتظروا تكبير سعد وهجوم المسلمين. حينذاك كانت نشاب الفرس مازالت تجوز صف المسلمين ورماة المسلمين يرمونهم[2].

وقام الأشعث بن قيس الكندى فقال:

«يا معشر العرب إنه لا ينبغى أن يكون هؤلاء القوم أجرأ على الموت ولا أسخى أنفساً عن الدنيا. تنافسوا الأزواج والأولاد ولا تجزعوا من القتل فإنه أمانى الكرام ومنايا الشهداء».

وترجل عن فرسه[3].

وقال حنظلة الكاتب (بن الربيع - من بنى عمرو من تميم)، وأمراء الأعشار «ترجلوا أيها الناس وافعلوا كما نفعل ولا تجزعوا مما لابد منه فالصبر أنجى من الفزع».

وفعل غالب بن عبدالله الليثى فى بنى كنانة وطليحة بن خويلد وحمّال بن مالك فى بنى أسد وأهل النجدات فى كل القبائل فعلوا[4] مثل ذلك. ونزل ضرار بن الخطاب القرشى. وكان كل المسلمين فى أوج حماسهم وقمة معنوياتهم فاستبطأوا تكبيرات سعد.

---

(١) الطبرى ٣ / ٥٥٩ س ش س عن النضر عن ابن الرفيل عن أبيه عن حميد بن أبى شجار
الطبرى ٣ / ٥٦١ س ش س عن الوليد بن عبدالله بن أبى طيبة عن أبيه.

(٢) الطبرى ٣ / ٥٦٠ س ش س عن عبيد الله بن الأعلى عن عمرو بن مرة.

(٣) الطبرى ٣ / ٥٦٠ س ش س عن الأجلح.

(٤) الطبرى ٣ / ٥٦٠ س ش س عن عمرو بن محمد.

فلما كبّر سعد التكبيرة الثانية لم ينتظر عاصم بن عمرو التكبيرة الثالثة فحمل وانضم إلى القعقاع. ولم تنتظر أسد أيضاً فزحفت ولحقت بالقعقاع وسعد ينظر إليهم من فوق قديس. قيل حملت أسد.

قال: «اللهم اغفرها لهم وانصرهم، وأأسداه الليلة».

وقام دريد بن كعب النخعى وكان معه لواء النخع إحدى قبائل الميسرة فقال: «إن المسلمين قد تهيأوا للمزاحفة فاسبقوا المسلمين الليلة إلى الله والجهاد، فإنه لا يسبق الليلة أحد إلا كان ثوابه على قدر سبقه. نافسوهم فى الشهادة وطيبوا بالموت نفساً فإنه أنجى من الموت إن كنتم تريدون الحياة وإلا فالآخرة ما أردتم»[1].

وحمل وحملت النخع فقيل لسعد: «حملت النخع».

قال: «اللهم اغفرها لهم وانصرهم، وانخعاه سائر الليلة».

وكان أرطاة بن كعب بن شراحيل النخعى يحمل لواء النخع الذى كان رسول الله ﷺ عقده له يوماً. تقدم به أرطاة فقتل فحمله بعده أخوه دريد (وقيل زيد) بن كعب فقتل، ثم أخوهما قيس بن كعب فقتل[2].

ثم حملت بجيلة فقال سعد: «اللهم اغفرها لهم وانصرهم، وابجيلتاه».

وكان أمام كندة قائد مجوسى يدعى تُرك الطبرى فقال الأشعث بن قيس: «يا قوم ازحفوا لهم».

فزحف لهم فى سبعمائة، فقيل: «حملت كندة».

قال سعد: «واكندتاه».

وقتل الأشعث تركاً فقال راجزهم[3]:

نحن تركنا تُركهم فى المَصْطَرَه   محتضباً من بَهَرَانِ الأَبْهَرَه

(١) الطبرى ٣ / ٥٦٠ س ش س عن المستنير بن يزيد عمن حدثه.
(٢) أسد الغابة ٦٨ - الإصابة ٧٢ - ٢٣٩٥.
(٣) الطبرى ٣ / ٥٦٣ س ش س عن مجالد عن الشعبى.
المصطرة: المصاف. محتضباً: قاطعاً. الأبهرة: عرق العنق.

وقال الحارث بن سمى الهمدانى[1] :

أقـــدم أخـــافـــهم على الأســـاورة ولا تـهـــــــالن لـرؤوس نـادرة
فـإنما قـصـرك مـوت السـاهرة ثم تعـود بعـدها فى الحـافـرة

وتتابع أكثر الناس على الزحف فعصوا سعداً ولم ينتظروا التكبيرة الثالثة إلا الرؤساء. ثم كبر سعد الثالثة فزحف الرؤساء بمن انتظرها فلحقوا بأصحابهم وخالطوا العجم المجوس، وكان ذلك بعد أن صلوا العشاء[2] فاستقبلوا الليل وقامت الحرب على ساق حتى الصباح واحتدم القتال بضراوة وعنف، واجتلدوا طوال الليل لا ينطقون، كلامهم الهرير كأنهم يضبحون مثل الخيل ولذلك سميت ليلة الهرير[3].

وكان تجاه جعفى (فى الميسرة أيضاً) كتيبة من كتائب العجم عليهم السلاح التام ودروع الحديد فزحفت جعفى إليهم والتحموا بهم فرأوا أن السيوف غير مؤثرة ولا تعمل فى الحديد فارتدعوا عنهم.

فقال لهم حميضة بن النعمان البارقى «مالكم؟»

قالوا: «لا يجوز فيهم السلاح».

قال: «كما أنتم حتى أريكم».

وحمل على رجل منهم فداوره حتى دق ظهره بالرمح ثم التفت إلى أصحابه يبشرهم ويشجعهم ويقول: «ما أراهم إلا يموتون دونكم».

فحملوا عليهم على طريقة حميضة فأزالوهم[4] إلى مواقفهم الأولى.

التحام رهيب

وقال أنس بن الحليس: «شهدت ليلة الهرير فكان صليل الحديد فيها كصوت القيون (الحدادين) ليلتهم حتى الصباح أفرغ عليهم الصبر إفراغاً وبات سعد بليلة لم يبت بمثلها

---

(١) الإصابة ١٩١٩ وقال الحارث بن سمى بن رواس بن دالان بن مصعب بن الحارث بن مرهب. وقيل: إن هذا الرجز لغيره.

(٢) الطبرى ٣ / ٥٦١ س ش س عن عمرو والنضر بن السرى.

(٣) الطبرى ٣ / ٥٦٢ س ش س عن عمرو عن الأعور، ومحمد عن عمه والنضر عن بن الرفيل.

(٤) الطبرى ٣ / ٥٦٢ س ش س عن محمد بن جرير العبدى عن عابس الجعفى عن أبيه.

ورأى العرب والعجم أمراً لم يروا مثله قط وانقطعت الأصوات والأخبار عن رستم وعن سعد. وأقبل سعد على الدعاء حتى إذا كان وجه الصبح انتمى الناس (المسلمون) فاستدل بذلك على أنهم الأعلون وأن الغلبة لهم[1]».

فى انقطاع الأخبار عن سعد كان يحملق فى الظلام يحاول أن يرى شيئاً ويصيخ السمع يحاول أن يسمع شيئاً فكان أول شيء سمعه ليلتئذ مما يستدل به على غلبة المسلمين صوت القعقاع بن عمرو فى النصف الثانى من الليل يقول[2].

نحن قـتلنـا مـعـشـراً وزائدا أربعـة وخـمـسـة وواحـدا

ونحـسب فـوق اللبـد الأسـاودا حـتى إذا مـاتوا دعـوت جـاهدا

اللـه ربـى واحتـرزت عـامدا

وبحث سعد عن أحد عنده ليبعثه، فلم يجد إلا غلاماً يدعى بجاد فأرسله إلى الصف وقال له:

«انظر ما ترى من حالهم».

فذهب ورجع فسأله سعد: «ما رأيت أى بُنى؟»

قال: «رأيتهم يلعبون».

فقال سعد مازحاً: «أو يَجِدُّون!!»[3]

(1) الطبرى ٣ / ٥٦١ س ش س عن محمد بن نويرة عن عمه أنس بن الحليس.
(2) الطبرى ٣ / ٥٦٢ س ش س عن عمرو بن محمد عن الأعور بن بيان المنقرى.
(3) الطبرى ٣ / ٥٦٢ س ش س عن عمرو بن الريان عن مصعب بن سعد.

الباب التاسع

يوم القادسية

الأحد ١٦ شعبان ١٥ هـ - ٢٢ سبتمبر (أيلول) ٦٣٦م

تنفس الصباح ومازالت الملحمة الرهيبة دائرة، تلك الملحمة التى بدأت صباح أمس لم يتخللها إلا فترة تحاجز قصيرة حين كبّر طليحة من وراء الردم الذى على العتيق. هذا الصباح يطلق عليه الرواة اسم «ليلة القادسية» ولا ندرى لماذا قالوا عن الصباح ليلة. يقول الطبرى[1]:

«وأصبحوا ليلة القادسية وهى صبيحة ليلة الهرير، وهى تسمى ليلة القادسية من بين تلك الأيام..».

أصبحوا والناس كالّون متعبون لم يغمض لهم جفن ليلتهم كلها. المسلمون والمجوس فى ذلك سواء. ودخلت المعركة يومها الرابع وقد اشتعلت خلالها ليلتين ومازالت تتأرجح فى الميزان. ومع ذلك فقد صار واضحاً أنها تقترب الآن من نهايتها وأن هذه النهاية ستكون لمن صبر، فقد بلغ الجهد من الفريقين وما هى إلا أن يخور أحدهما قبل الآخر أو يصبر أحدهما بعد الآخر.. ليس إلا هذا.

رأس حربة نحو رستم

كان القعقاع العظيم أكثر الناس إدراكاً لهذا فسار فى المسلمين يشد أزرهم ويبث الصبر فيهم ويقول لهم:

«إن الدَّبْرَة (الهزيمة) بعد ساعة لمن بدأ القوم (بالتخاذل) فاصبروا ساعة واحملوا، فإن النصر مع الصبر، فآثروا الصبر على الجزع».

وكان القعقاع مقتنعاً بما يقول فأراد أن يصنع شيئاً يشد به أزر المسلمين ويكون لهم به أسوة وقدوة ويبدأ به تحطيم جبهة الفرس فقد نضجت الطبخة بما فيه الكفاية. وصدق والله القعقاع إذ يقول عن نفسه:

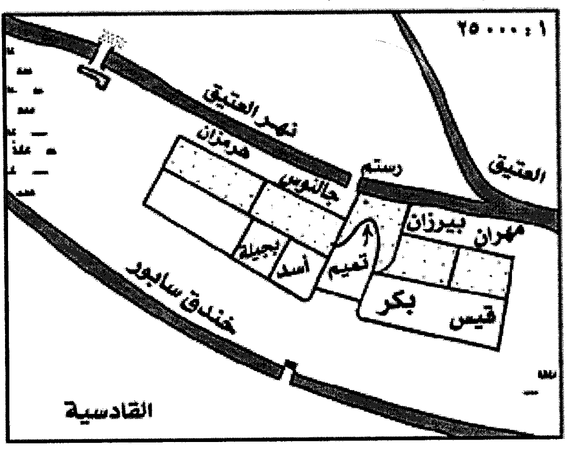
يدعون قعقاعاً لكل كريهة فيجيب قعقاع دعاء الهاتف

فاجتمع إليه جماعة من الرؤساء فكانوا رأس حربة وجعلوا هدفهم ووجهتهم «رستم»، وشدوا عزائمهم وهم يتجهون نحوه والفرس يدافعون بإعياء على قدر ما بقى من طاقتهم،

---

(١) الطبرى ٣/ ٥٦٣ س ش س عن محمد وطلحة وزياد.

حتى خالط القعقاع ومن معه حماة رستم الذين يقفون من دونه.



خريطة رقم (١٣) القادسية (٧)

كان ذلك مع الصبح. ومعنى هذا أن القعقاع ومن معه من تميم والرباب استطاعوا أن يحدثوا فدغاً في قلب الفرس وأن يدقوا إسفيناً يتقدم إلى الأمام نحو رستم. وكان على المسلمين أن يوسعوه ويتدفقوا فيه.

ورأت القبائل ذلك فقام فيها رجال. قام قيس بن عبد يغوث المرادي والأشعث[1] بن قيس الكندي وعمرو بن معدى كرب الزبيدى وعبدالله بن ذى السهمين الخثعمى (كلهم فى الميسرة) وقام ابن ذى البردين الهلالى، فقالوا: «لا يكونن هؤلاء (تميم) أجد فى أمر الله منكم، ولا يكونن هؤلاء القلف[2] (يقصد المجوس) أجرأ على الموت منكم ولا أسخى أنفساً عن الدنيا، تنافسوها».

فحمل كل من جهته حتى ضغطوا على من أمامهم. وقام رجال فى ربيعة - بكر بن وائل وعبدالقيس - فقالوا:

---

(١) نفس المصدر + فتوح البلدان ٦٤٢.

(٢) قلف الصبي: لم يختن. القلفة: جلدة عضو التناسل، والأقلف من لم يختن. أقلف القلب لا يعى خيراً - المنجد. والمقصود بهم هنا المجوس.

«أنتم أعلم الناس بفارس وأجرؤهم عليهم فيما مضى، فما يمنعكم اليوم أن تكونوا أجرأ مما كنتم بالجرأة!»

فحملوا كما حمل غيرهم.

كان هذا الالتحام محتدماً منذ حوالى ثلاثين ساعة دون توقف يُذكر، فأى جديد إذن فى قول القعقاع ومن حذا حذوه من أبطال المسلمين؟ الجديد أنه استثارة لهممهم وصلب لعودهم وبث للصبر فيهم. إنه تجديد لحيويتهم حين كَلَّ الجميع من مجوس ومسلمين. هنا وبعد هذا الإجهاد المضنى والاختبار الشاق الصعب تظهر خواص ومميزات العنصر البشرى فى المعركة. لقد عرضنا لذلك فى باب «أثر البيئة على الفرد العربى» من الجزء الأول من كتاب «الطريق إلى المدائن»، وسنعرض فى باب ختامى لعوامل نجاح الفتح الإسلامى، ذلك عن جانب المسلمين. كذلك عرضنا للعنصر البشرى للجانب الفارسى المجوسى حين تعرضنا لطبقات المجتمع الفارسى وأثر ذلك على النظام الحربى عندهم. هذا وذاك بدأت آثاره تظهر على أرض المعركة فى القادسية بعد أن طال انصهارهما فى بوتقة على نار اشتعلت حوالى خمسين ساعة فى خلال السبعين ساعة الأخيرة.

بدأت آثار هذه المواجهة الساخنة جداً بين المسلمين والمجوس تظهر. فقد كان محالاً على التصور أن يستمر هذا الالتحام إلى ما لا نهاية. كان عليه حتماً أن ينتهى وأن يسفر عن شىء. هذا الشىء لم يكن يحكمه ما يظهر للعين المجردة من أعداد ضخمة ومن أفيال تظهر وتغيب ومن فرسان ومشاة ودروع ورماح وسيوف ورايات وأعلام ومادة وعتاد، بقدر ما كان يحكمه ما رسب فى أعماق كل من الفريقين من ميزات وخصائص. فمن المؤكد أن نتيجة أى معركة تتحدد فى قلوب المتعاركين قبل أن تظهر على أرض المعركة.

الإيمان سلاح المسلمين

لقد كانت معنويات المسلمين تزداد علواً كلما احتاج الأمر إلى ذلك، وهنا نستطيع أن نقول إن النصر فى هذه المعركة كان الإيمان هو عدته وأداته. ولقد رأينا كيف كان يقف صحابة الرسول ﷺ والتابعون يقارعون التاريخ. إن الدهر اليوم ليتلفت ويصيخ بأذنيه ليسمع من وراء أربعة عشر قرناً من الزمان حديث الخنساء لأولادها ومقالة المرأة النخعية مجهولة الاسم لبنيها، وكلمات أبطال المسلمين فى مواقفهم فى الميدان.

عبدالله بن أم مكتوم القرشي صحابي رسول الله ﷺ كان كفيفاً ضريراً وهو الذى أنزل الله فيه قوله تعالى: «عبس وتولى إن جاءه الأعمى»، وشريعة الله لا تفرض الجهاد على أعمى «ليس على الأعمى حرج» عبدالله هذا شهد القادسية! يقول أنس بن مالك[1] صحابي رسول الله ﷺ : «رأيت يوم القادسية عبدالله بن أم مكتوم الأعمى وعليه درع يجر أطرافها وبيده راية سوداء، فقيل له أليس قد أنزل الله عذرك؟ قال: بلى ولكنني أُكثِّر المسلمين بنفسي!» وقال: «فكيف بسوادى فى سبيل الله!»[2].

ومر المسلمون على رجل يوم القادسية وقد قطعت يداه ورجلاه وهو يفحص ويقول: «مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً».

فقال له رجل: «من أنت يا عبدالله؟» قال: «رجل من الأنصار»[3].

وارسلنا عليهم ريحاً

وحين قام قائم الظهيرة بدأ قطاع هرمزان يتراجع أمام ضغط قبائل اليمن من بنى قحطان، كذلك تراجع قطاع بيرزان أمام ضغط بنى بكر بن وائل. هذه البادرة بعد تقدم القعقاع فى القلب كانت بداية النهاية. تراجع هذان القطاعان حتى عادا إلى حافة العتيق فثبتا مرة أخرى

(١) أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان غلاماً كاتباً، وقد كان الساقى يوم حرمت الخمر فلما سمع المنادى بتحريمها بادر فأراق ما كان عنده منها. وكان يخضب بالصفرة أو بالحنة أو بالورس على أقوال وكانت له ذؤابة. شهد بدراً وكان عمره حين قدم النبى المدينة عشر سنوات. وهو من المكثرين فى الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد دعا له بكثرة المال والولد، فولد له من صلبه ثمانون ذكراً وبنتان ومات وله من أولاده وأولادهم مائة وعشرون ولد. وكان له بستان يجمع محصوله صيفاً وشتاء وكان له خاتم عليه نقش أسد رابض كما كان يشد أسنانه بالذهب. وكان أنس أحد الرماة المصيبين فكان يأمر ولده أن يرموا بين يديه وربما رمى معهم فيغلبهم بكثرة إصابته، وكان يلبس الخز ويتعمم به. أراد الحجاج إذلاله فختم عنقه فيمن ختم من الصحابة. وتوفى فيما بين عام تسعين وثلاث وتسعين على روايات وهو آخر من توفى بالبصرة من الصحابة وكان موته بقصره ودفن علي فرسخين من البصرة. (أسد الغابة ٢٥٨)

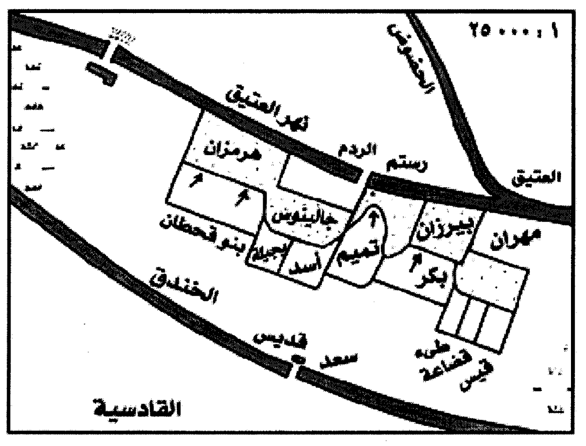
(٢) القرطبي في تفسير آية ١٦٧ من سورة آل عمران ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَّاتَّبَعْنَاكُمْ.. ﴾ قال السدى وابن جريج وغيرهما: كثروا سوادنا وإن لم تقاتلوا معنا فيكون ذلك دفعاً وقمعاً للعدو.

وابن أم مكتوم هو مؤذن الرسول (مثل بلال) وهو ابن خال خديجة بنت خويلد أولى زوجات الرسول، أسلم قديماً بمكة ومن المهاجرين الأولين إلى المدينة مع مصعب بن عمير. استخلفه رسول الله صلى الله عليه وسلم على المدينة ثلاث عشرة مرة فى غزواته. وله أحاديث عن النبى. وقد استشهد بالقادسية.

(الاستيعاب ٢/ ٤٩٤ - الإصابة ٥٧٦٦).

(٣) الفاروق القائد ٥٣ عن الخراج لأبى يوسف ٣٦.

ثبوتاً اضطرارياً. واستطاع القعقاع أن يوسع الإسفين الذى دقه فانفرج قلب جيش رستم. كانت الرياح نشطة فى اتجاه يحمل غبار المعركة ويلقى به فوق المجوس. ثم اشتدت وهى دبور[1] وعصفت فاقتلعت طيارة رستم عن سريره وأطاحت بها فهوت فى نهر العتيق. ومع اقتراب القتال من رستم ازداد الغبار تجاهه مع تعرضه للشمس فقام عن سريره. وقدمت عليه يومئذ بغال من المدائن بأموال فكانت واقفة خلف سريره على ضفاف العتيق، فوقف رستم إلى جوارها يستظل بظل بغل منها وحمله، وكان يحمل عدلين (حملين متساويين على جانبيه).



خريطة رقم (١٤) القادسية (٨)

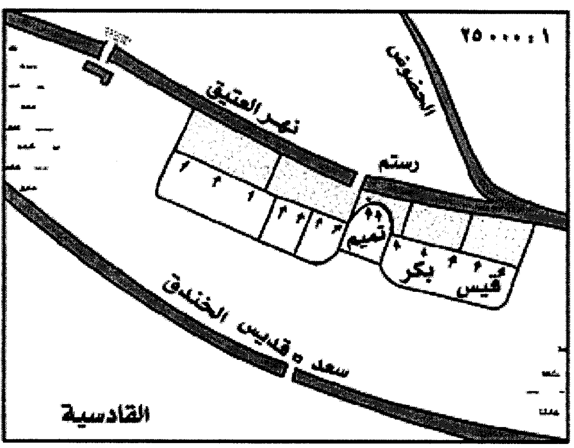
مصرع رستم

واختفى سرير رستم عن الأنظار حين طارت عنه الطيارة. وانتهى القعقاع وكتيبته من تميم والرباب إلى السرير فعثروا به وقد قام عنه رستم. واقترب هلال بن عُلَّفَة التيمى (من تيم الرباب) على صهوة جواده من ذلك البغل الذى يقف خلفه رستم وهو لا يشعر برستم،

---

(١) الصبا ريح ومهبها المستوى أن تهب من مطلع الشمس إذا استوى الليل والنهار. ومقابلتها الدبور. ودبرت الريح تحولت (مختار الصحاح). والصبا: الريح الشرقية والدبور: الريح الغربية. وفى معركة القادسية اتخذت الريح اتجاهها من الغرب إلى الشرق مع نشاط شديد، وكانت مع المسلمين ضد الفرس من يوم أرماث حتى نهاية المعركة.

فضرب الحبال التى تحمل العدلين بسيفه فقطعها ووقع أحد العدلين (نصف حمولة البغل) فوق رستم فأصاب ظهره إصابة بالغة، يقول الرواة: «فأزال من ظهره فقاراً» وعاد هلال يضرب الحمل فنفح مسكاً. ومضى رستم نحو العتيق، وأبصر به هلال وعرفه فتوجه إليه فرماه رستم بنشابة أصابت قدمه وشكتها إلى ركاب سرجه - وكان الركاب يصنع من الخشب[1] - وهو يصيح بالفارسية[2]: «ببايه» أى «كما أنت». ومضى رستم نحو العتيق وراح يتخفف مما عليه فألقى عنه ثقل حمله من سيف ودروع ثم رمى بنفسه فى العتيق. وأسرع هلال فاقتحمه وراءه وقد عام رستم وهلال قائم فيه على قدميه قد أدركه وأخذ برجله ثم جذبه فخرج به إلى البر وضرب جبينه بالسيف ففلق هامته وضرب[3] أنفه فقتله. ثم جر جثته حتى رمى بها بين أرجل البغال.



خريطة رقم (١٥) القادسية (٩)

(١) يرجع إلى الجزء الأول باب الخيل والفروسية من كتاب «الطريق إلى المدائن».
(٢) الطبرى ٣/ ٥٦٨ س ش س عن المجالد عن الشعبى وسعيد بن المرزبان عن رجل من بنى عبس.
الطبرى ٣/ ٥٧٦ عن ابن حميد عن سلمة عن محمد بن اسحق عن إسماعيل بن خالد مولى بجيلة عن قيس بن أبى حازم البجلى وكان ممن شهدها.
(٣) الطبرى ٣/ ٥٦٤ س ش س عن عطية عن عمرو بن سلمة.
الطبرى ٣/ ٥٦٤ س ش س عن محمد وطلحة وزياد.
الطبرى ٣/ ٥٦٦ س ش س عن النضر عن ابن الرفيل.
وفى رواية ابن اسحق (الطبرى ٣/ ٥٧٦ أن هلالاً احتز رأس رستم فعلقه وهى تناقض سائر الروايات.

حدث هذا والجميع مشتبكون فى ضراوة حتى إنه يبدو أن أكثرهم لم يلحظ ما حدث فصعد هلال بن علفة السرير ونادى يقول :

«قتلت رستم ورب الكعبة ، إلىّ» .

فأطافوا به وهم لا يرون السرير ولا يحسون به وكبروا وتنادوا فاتخذوا من مكان هلال فوق سرير رستم بؤرة تجمع . وانهار عند ذلك قلب جيش المجوس وانهزموا ، وبلغ الإسفين مداه حتى السرير وما وراء السرير إلى العتيق وانفصل ما بين ميمنة الفرس وميسرتهم .

محاولة انسحاب

ووقف جالنوس على الردم ونادى العجم إلى عبوره للانسحاب . حينذاك كان يستحيل على ميسرتهم أن تتراجع عبر الردم وقد أخذت تميم والرباب عليهم السبيل . وتمكن جالنوس وهرمزان (جناح الميمنة) أن يعبرا على الردم والمسلمون يقتلون منهم .

وركب الرعب المقترنين فى السلاسل - وهذا طبيعى - فتهافتوا فى نهر العتيق ، وأدركهم المسلمون فوخزوهم بالرماح فما أفلت منهم أحد ، أولئك كانوا ثلاثين ألفاً .

ووصل ضرار بن الخطاب القرشى إلى سارى «درفش كابيان» فأنزلها من عليائها لآخر مرة فلم ترتفع بعد أبداً . هذه راية فارس الكبرى التى رآها المسلمون مرة واحدة قبل هذه ، فهى التى كان يرفعها بهمن جاذويه فى المروحة حين هزم أبا عبيد الثقفى وقتله يوم الجسر . هذه الراية الحمراء ذات الشمس البنفسجية والقمر الذهبى «درفش كابيان» لعلها أشهر راية فى التاريخ وقد أوردنا وصفاً لها فى الجزء الأول من كتاب «الطريق إلى المدائن» .

ومحاولة للصمود

واستحيا بعض العجم من الفرار فثبت بعد أن استبانت الهزيمة بضعة وثلاثون كتيبة واستقتلوا ولم يتبعوا الفرار ، ولكنه كان قتال شراذم . فتصدى لهم بضعة وثلاثون من رؤساء المسلمين[1] فيمن معهم ، فكان أولئك العجم على وجهين : فمنهم من ثبت حتى قتل ومنهم من عاد وهرب .

فكان ممن هرب :

---

(١) الطبرى ٣/ ٥٦٩ س ش س عن المهلب ومحمد وطلحة وأصحابه .

الهرمزان وكان أمام عطارد بن حاجب التميمى.

وأهود وكان أمام حنظلة بن الربيع التميمى، وهو حنظلة الكاتب.

وزاذ بن بهيش وكان أمام عاصم بن عمرو التميمى.

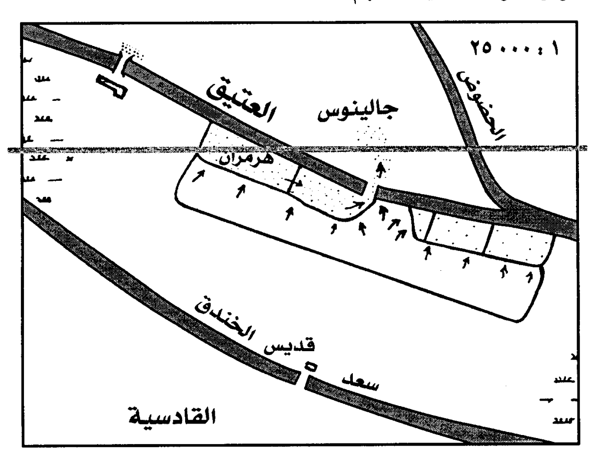
وقارن وكان أمام القعقاع بن عمرو التميمى.

وكان ممن ثبت حتى قتل:

فرخان الأهوازى وكان أمام بسر بن أبى رهم[1] الخثعمى.

وخُسْرَ وشنُوم الهمذانى وكان أمام ابن الهذيل الكاهلى[2].

وابن الهربذ وكان تجاه ذى النور عبدالرحمن بن ربيعة الباهلى، مال عليهم عبدالرحمن وقد تكتبوا ونصبوا للمسلمين فطحنهم بخيله[3].



خريطة رقم (١٦) القادسية (١٠)

(١) بسر بن أبى رهم قيل الجهنى وقيل الخثعمى (وهو بشر بن أبى ربيعة) ومن حيث كان جند الأهواز هم ميمنة جيش رستم وهم الذين ينسب إليهم فرخان فإن هذا يعنى أن بسر كان فى ميسرة المسلمين ومن ذلك نذهب إلى أنه كان من خثعم.

(٢) فى رواية أخرى لنفس الرواة وعمرو وسعيد أن يزدجرد حين هرب من حلوان عام ١٦ هـ. ترك خسروشنوم للدفاع عنها - الطبرى ٤/ ٣٤.

(٣) الطبرى ٣/ ٥٦٩ س ش س عن يونس بن أبى اسحق عن أبيه عمن شهدها.

وشهريار بن كنارا وكان حيال سلمان بن ربيعة الباهلى، وقد أبصرهم سلمان تحت راية لهم قد حفروا لها وجلسوا تحتها وقالوا لا نبرح حتى نموت، فحمل عليهم فقتل من كان تحتها وسلبهم[1] وأخذ الراية. وكان سلمان فارس الناس يوم القادسية وكان يقال: «لسلمان أبصر بالمفاصل من الجازر بمفاصل الجزور»[2]. وكان سلمان من مدد الشام.

وكان مع رستم فى القادسية أربعة آلاف من الديلم يسمون «جند شاهنشاه» كان كسرى برويز قد أتى بهم من الديلم حين وجه إليها جيوشه فكانوا خدمه وخاصته ثم ظلوا على تلك المنزلة بعده. فلما قتل رستم وانهزم المجوس اعتزلوا جانباً وقالوا ما نحن كهؤلاء (الفرس) ولا لنا ملجأ، وأثرنا عندهم غير جميل، والرأى لنا أن ندخل معهم فى دينهم فنعز بهم، فاعتزلوا، وابصر بهم سعد فقال: «ما لهؤلاء؟» فأتاهم المغيرة بن شعبة فسألهم عن أمرهم فأخبروه بخبرهم وقالوا ندخل فى دينكم. فرجع إلى سعد فأمنهم فأسلموا وحالفوا زهرة بن حوية فأنزلهم سعد بحيث اختاروا[3].

زال تماماً كل ما كان لدى الفرس من معنوية وعز وأصابهم الانهيار التام وركبهم الذل والهوان. قال رجل من بنى عبس[4]:

«أصاب أهل فارس يومئذ بعد ما انهزموا ما أصاب الناس قبلهم، قتلوا حتى أن كان الرجل من المسلمين ليدعو الرجل منهم فيأتيه حتى يقوم بين يديه فيضرب عنقه، وحتى إنه ليأخذ سلاحه فيقتله به، وحتى إنه ليأمر الرجلين أحدهما بصاحبه وكذلك فى العدة» (يعنى يأمر العدد منهم فيقتل العدد).

ولقد شهد شقيق بن سلمة الأسدى القادسية غلاماً بعد ما احتلم[5] يروى[6] فيقول:

«... فهزمهم الله، فلقد رأيتنى أشرت إلى إسوار منهم فجاء إلىّ وعليه السلاح التام فضربت عنقه ثم أخذت ما كان عليه».

---

(١) نفس المصدر السابق + فتوح البلدان ٦٤٤ عن الواقدى.

(٢) الطبرى ٣/ ٥٦٩ س ش س عن الغصن عن القاسم عن البهى أن الشعبى قال....
فتوح البلدان ٦٤٤ عن أحمد بن سلمان الباهلى عن السهمى عن أشياخه.

(٣) فتوح البلدان ٧٠٨ عن أبى مسعود الكوفى عن بعض الكوفيين عن مسعر بن كدام.
فتوح البلدان ٧٠٩ عن المدائنى.

(٤) الطبرى ٣/ ٥٦٩ س ش س عن سعيد بن المرزبان عن رجل من بنى عبس.

(٥) الطبرى ٣/ ٥٢٥ س ش س عن عبيدة عن شقيق.

(٦) الطبرى ٣/ ٥٦٨ نفس السند.

وفى رواية عن الأسود النخعى قال : «شهدت القادسية ، فلقد رأيت غلاماً منا من النخع يسوق ستين أو ثمانين رجلاً من أبناء الأحرار ، فقلت أذل الله أبناء الأحرار»[1] .

وتم تطهير ميدان المعركة الذى كان يعج منذ قليل بأكثر من مائتين وستة وسبعين ألفاً من البشر من الطرفين ، لم يعد فيه الآن إلا نحو من ثلاثين ألفاً من المسلمين المنتصرين بخلاف أعداد من أسرى الفرس وقتلاهم الذين ملأوا الميدان .

مطاردة قريبة

كان ذلك بعد الظهر ولم يبلغ العصر . فأمر سعد القعقاع بن عمرو بمطاردة من سفل فى هربه نحو الشرق وخرج معه فى تلك المطاردة أخوه[2] عاصم . وأمر شرحبيل بن السمط بقوة من ميسرته بمطاردة من علا فى هروبه نحو الشمال والشمال الغربى وذلك فى مطاردة سريعة غير عميقة فالفلول مازالت قريبة . وأمر خالد بن عرفطة بسلب القتلى وبدفن الشهداء .

دفن الشهداء

ما أعنفها معركة . . لم يتح للمسلمين منذ صباح أمس - عماس - حتى بعد ظهر اليوم - يوم القادسية - أن يجمعوا شهداءهم . لقد حملوا فى الأيام السابقة ألفين وخمسمائة . أما فى يوم عماس وليلة الهرير ويوم القادسية فقد استشهد منهم ستة آلاف استقبلتهم ملائك الرحمن بالبشرى والسلام . فدفنهم إخوانهم الذين لم يبلغوا بعد منزلتهم بين خندق سابور ووادى[3] مُشَرِّق . فكان شهداء الهرير والقادسية ألفين وخمسمائة دفنوا وراء الخندق تجاه مشرق ودفنوا شهداء عماس ثلاثة آلاف وخمسمائة على وادى مشرق .

وخرج صبيان المسلمين ونساؤهم ومعهم الأداوى (أوعية الماء) فانحدروا من العذيب مع العشاء يسقون من به رمق من المسلمين ويقتلون من به رمق من المشركين . عن أم كثير امرأة همام[4] بن الحارث النخعى قالت :

---

(١) الطبرى ٣/ ٥٧٦ عن ابن حميد عن سلمة عن ابن اسحق عن عبدالرحمن بن الأسود النخعى.
(٢) الطبرى ٣/ ٥٦٥ س ش س عن محمد وطلحة وزياد.
(٣) الطبرى ٣/ ٥٦٤ س ش س عن ابن مخراق عن أبى كعب الطائى عن أبيه.
(٤) الطبرى ٣/ ٥٨١ س ش س عن سليمان بن بشير عن أم كثير امرأة همام بن الحارث النخعى.

«شهدنا القادسية مع سعد مع أزواجنا فلما أتانا أن قد فرغ من الناس شددنا علينا ثيابنا وأخذنا الهراوى ثم أتينا القتلى، فما كان من المسلمين سقيناه ورفعناه وما كان من المشركين أجهزنا عليه، وتبعنا الصبيان نوليهم ذلك ونصرفهم به».

أما المجوس فقد قتل منهم يوم عماس وليلة الهرير ويوم القادسية عشرة آلاف خلاف من قتل فى الأيام السابقة وخلاف الثلاثين ألفاً المقترنين بالسلاسل الذين تهافتوا فى العتيق.

جثة رستم

وجمع خالد بن عرفطة الأموال والأسلاب فكان شيئاً لم يجمع قبل ولا بعد فى ميدان القتال مثله. ويروى الرفيل الفارسى قال:

«دعانى سعد فأرسلنى أنظر له فى القتلى وأسمى له رؤوسهم فأتيته وأعلمته ولم أر رستم فى مكانه (عند السرير) فأرسل إلى رجل من التيم يدعى هلالاً فقال: ألم تبلغنى أنك قتلت رستم؟

قال: بلى.

قال: فما صنعت به؟

قال: ألقيته تحت قوائم الأبغل.

قال: فكيف قتلته؟

فأخبره حتى قال: ضربت جبينه وأنفه.

قال سعد: فجئنا به.

فذهب هلال فجاء به حتى رماه أمام باب القصر.

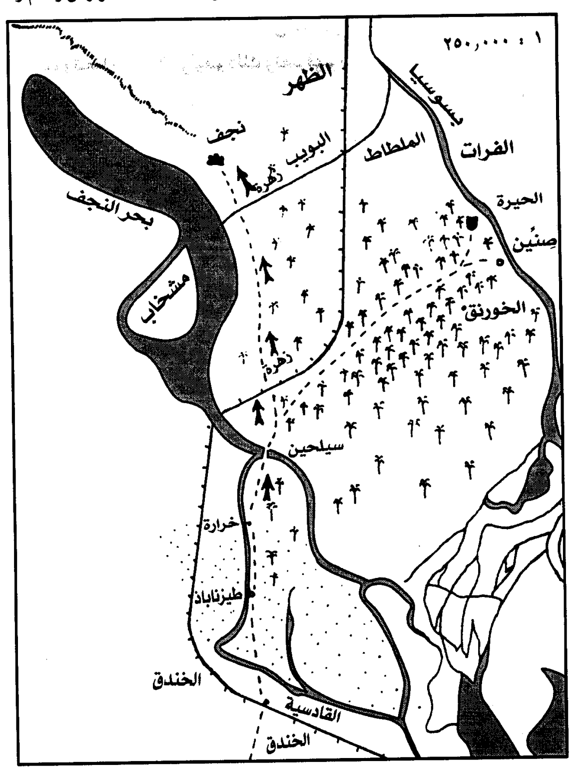
فقال له سعد: جرده إلا ما شئت.

فأخذ هلال سلبه حتى لم يدع عليه شيئاً وكان قد تخفف حين ألقى بنفسه فى مياه العتيق فباع هلال الذى كان عليه بسبعين ألف درهم وضاعت قلنسوته فلم يعثر عليها ولعلها سقطت فى العتيق فغرقت أو جرفها التيار وكانت قيمتها وحدها مائة ألف لو ظفر بها».

وجاء نفر من العباد (لعلهم الفرس الذين أسلموا) حتى دخلوا على سعد فقالوا:

«أيها الأمير، رأينا جسد رستم على باب قصره وعليه رأس غيره».

وكان الضرب قد شوهه، فضحك سعد[1]. (وهذا يناقض أن هلالاً قد احتز رأس رستم وعلقها).



خريطة رقم (١٧) القادسية (١١)

---

(١) الطبرى ٣/ ٥٦٦ س ش س عن النضر عن ابن الرفيل عن أبيه.

وفى فتوح البلدان ٦٤٤. يقول: «وقتل رستم فوجد بدنه مملوءاً ضرباً وطعناً فلم يعلم من قاتله. وكان قد مشى إليه عمرو بن معدى كرب وطليحة بن خـويلد الأسدى وقرط بن جماح العبدى وضرار بن الأزور الأسدى، وقيل قتله زهير بن عبد شمس البجلى وقيل عوام بـن عبد شمس وقيل هلال بن علفة التيمى». وقد أخذنا =

ورجع القعقاع وشرحبيل من المطاردة، فقال سعد للقعقاع:
«أغد فيما طلب شرحبيل».
وقال لشرحبيل:
«أغد فيما طلب القعقاع».

فعلا القعقاع وسفل شرحبيل حتى بلغ مقدار الخرارة من القادسية يقتلون فلول رستم فى كل قرية وأجمة وشاطئ نهر. ورجعوا، فهنأ سعد المسلمين وأثنى على كل حى خيراً[1]. جميل من سعد ألا ينسى تهنئة جنوده وهو القائد المنتصر.

ثم أمر سعد زهرة بن الحوية أن يخرج فى آثارهم فى مطاردة أكثر عمقاً. فنادى زهرة فى المقدمات وانطلق حتى إذا أتى الردم وجد المجوس بثقوه خلفهم ليعوقوا المسلمين عن طلبهم. وكان زهرة على حصان ذكر، فقال لبكير بن الشداخ[2] الليثى: «يا بكير أقدم». كان بكير على فرس أنثى اسمها أطلال وقد اشتهر بها فعرف بفارس أطلال، فضربها بكير وصاح بها:
«ثبى أطلال».

فتجمعت ثم وثبت وكان البثق واسعاً فاجتازته، وأوثب زهرة حصانه خلفها وكذلك سائر الخيل فاقتحمته وتتابع على ذلك ثلاثمائة فارس يجتازون تلك الفجوة، ولم تستطع كل الخيل ذلك ولاحظ زهرة أن بعض الخيل كاعت[3] فنادى:

«خذوا أيها الناس على القنطرة وعارضونا».

ثم مضى بالثلاثمائة ومضى الآخرون يتبعونه عبر القنطرة.

= بأن هلال بن علفة هو الذى قتله.
أولاً: لتضافر الروايات على ذلك.
وثانياً: لاكتمال تفاصيلها.
وثالثاً: لاستحالة الاقتناع بالأقاويل الأخرى إذا ضاهيناها بمواقع من ذكر مع مواقف المسلمين بالقادسية.

(١) الطبرى ٣/ ٥٦٦ س ش س عن محمد وطلحة وزياد.

(٢) وقيل كان اسمه بكر نسبه ابن الكلبى فقال بكير بن شداد بن عامر بن الملوح بن يعمر (وهو الشداخ) بن عوف بن كعب بن عامر بن ليث. وهو الذى فتح موقان وجهه إليها سراقة بن عمرو. وفيه قال الشماخ:
وغيبت عن خيل بموقان أسلمت ... بكير بنى شداخ فارس أطلال

(٣) كاع الجواد: مشى وتمايل على كرعه من شدة الحر أو عقر فمشى على كوعه.

مصرع جالنوس

كان جالنوس قد بلغ الخرارة جريحاً[1] بمن فر معه، وبعضهم تجاوزها، كان جالنوس في أخرياتهم يحمي فرارهم ويعمل عمل حرس المؤخرة. نزلوا الخرّارة فطعموا وشربوا الخمر!! ثم قاموا يتعجبون من نتيجة هذه المعركة وأن رميهم وقتالهم لم يؤثر في المسلمين. ورفعوا لجالنوس كرة فهو يرميها بالنشاب يرشقه فيها، وهم على ذلك دهمهم زهرة ومن معه فحمل على جالنوس وهو لا يعرفه فطاعنه فاختلفا ضربتين ثم قتله[2] زهرة وانهزم عن جالنوس أصحابه وأخذ زهرة سلبه، كان عليه يارقان (أساور تلبس في العضد) وقلبان وقرطان، وإن حصان زهرة يومئذ ما عنانه إلا حبل مضفور وما حزامه إلا شعر منسوج.

وقتل زهرة في هذه المطاردة من وجد من الفلول بين الخرارة إلى السيلحين ثم أمعن حتى بلغ النجف، بينما كان هرمزان يجد في فراره فاستطاعت بعض تلك الفلول أن تصل إلى دير قرة[3]. ورجع زهرة وأصحابه حتى باتوا ليلتهم بالقادسية[4]، ثم أصبحوا وقد اجتمعوا جميعاً لا ينتظرون أحداً من جندهم.

وحدث حين حانت الصلاة أن وجدوا المؤذن المعتاد في الهشداء، فاختلف الناس على الأذان حتى كادوا أن يجتلدوا بالسيوف، فأقرع سعد بينهم فخرج سهم رجل فأذن[5].

بين سعد وزهرة

وحين[6] عاد زهرة من المطاردة التي خرج فيها كان قد تدرع بما كان على جالنوس فعرفه

---

(١) الطبري ٣/ ٥٦٧ س ش س عن سعيد بن المرزبان.

(٢) الطبري ٣/ ٥٧٦ عن ابن حميد عن سلمة عن محمد بن اسحق عن إسماعيل بن أبي خالد مولى بجيلة عن قيس بن أبي حازم البجلي.

فتوح البلدان ٦٤٥. وفي رواية له أن كثير بن شهاب الحارثي طعن جالنوس ويقال قتله، ثم يقول: وقال ابن الكلبي قتله زهرة بن حويه السعدي وذلك أثبت.

(٣) لم نقف على موقعه.

(٤) الطبري ٣/ ٥٦٦ س ش س عن محمد وطلحة وزياد.

(٥) الطبري ٣/ ٥٦٦ س ش س عن عبدالله بن شربمة عن شقيق (بن سلمة الأسدي وقد شهدها).

(٦) الطبري ٣/ ٥٦٧ س ش س عن سعيد بن المرزبان.

الطبري ٣/ ٥٦٧ س ش س عن عبيدة عن إبراهيم.

الطبري ٣/ ٥٦٨ س ش س عن عبيدة عن عصمة.

الأسرى الذين كانوا عند سعد وقالوا: «هذا سلب جالنوس».

فقال له سعد: «هل أعانك عليه أحد؟»

قال: «نعم».

قال: «من؟»

قال: «الله».

وكان زهرة يومئذ شاباً له ذؤابة وقد سُوِّد في الجاهلية وحسن بلاؤه في الإسلام. وغضب سعد أن تسرع زهرة فلبس ما كان على جالنوس واستكثره عليه فنزعه عنه وقال: «ألا انتظرت إذني؟»

لا عليك يا أخي

من سعد إلى عمر[1]

«أما بعد، فإن الله نصرنا على أهل فارس ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم بعد قتال طويل وزلزال شديد. ولقد لقوا المسلمين بعدة لم ير الراءون مثل زهائها فلم ينفعهم الله بذلك بل سلبهموه ونقله عنهم إلى المسلمين واتبعهم المسلمون على الأنهار وعلى طفوف الآجام وفي الفجاج.

وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد القارئ[2]، وفلان وفلان.. ورجال من المسلمين لا نعلمهم، الله بهم عالم، كانوا يدوون بالقرآن إذا جن عليهم الليل دَوِيَّ النحل. وهم آساد الناس لا يشبههم الأسود. ولم يفضل من مضى منهم من بقي إلا بفضل الشهادة إذ لم يكتب لهم».

كتب سعد هذه الرسالة إلى عمر صباح اليوم التالي، يعني كان تاريخها الاثنين ١٧ شعبان ١٥ هـ ٢٣ سبتمبر (ايلول) ٦٣٦م بشره فيها بالفتح وبعدة من قتلوا ومن أصيب من المسلمين وسمى لعمر فيها من يعرف. وكتب أيضاً بما كان من شأن زهرة وسلب جالنوس. كذلك كتب زهرة في هذا الشأن إلى عمر. وكان سعد بن عميلة الفزاري هو رسول سعد بالفتح إلى عمر.

(١) الطبري ٣/٥٦٨ س ش س عن محمد والمهلب وطلحة.

(٢) انظر ترجمته في آخر الكتاب تحت عنوان: «ترجمة مشاهير قادة الفتح».

وكان عمر مازال يخرج إلى ظهر المدينة حين يصبح يستخبر الركبان عن أهل القادسية فإذا انتصف النهار رجع إلى أهله ومنزله. فلما لقى البشير سعد بن عميلة سأله: «من أين؟»

قال: «من القادسية».

قال: «يا عبدالله حدثنى».

قال: «هزم الله العدو».

هذا وسعد على ناقته لا يعرف عمر وعمر يخب معه ويستخبره حتى دخلا المدينة وهما على ذلك فإذا الناس يقولون لعمر: «السلام عليكم يا أمير المؤمنين».

فقال سعد: «فهلا أخبرتنى رحمك الله أنك أمير المؤمنين!»

فجعل عمر يقول: «لا عليك يا أخى»[1].

وقام عمر فى الناس فقرأ عليهم كتاب سعد بالفتح ثم قال:

«.. إنى حريص على أن لا أدع حاجة إلا سددتها ما اتسع بعضنا لبعض، فإذا عجز ذلك عنا تآسينا فى عيشنا حتى نستوى فى الكفاف.

ولوددت أنكم علمتم من نفسى مثل الذى وقع فيها لكم، ولست معلمكم إلا بالعمل.

إنى والله ما أنا بملك فأستعبدكم وإنما أنا عبدالله عُرَض علىَّ الأمانة فإن أبيتها ورددتها عليكم واتبعتكم حتى تشبعوا فى بيوتكم وترَوْا سَعِدْتُ.

وإن أنا حملتها واستتبعتكم إلى بيتى شقيت ففرحت قليلاً وحزنت طويلاً وبقيت لا أُقال ولا أُردُّ فأستعتب»[2]. واغتم عمر كثيراً لمصاب سعد بن عبيد وقال: «لقد كاد قتله يُنغِّصُ على هذا الفتح»[3].

من عمر إلى سعد

وكان جواب عمر إلى سعد فى شأن زهرة:

---

(١) الطبرى ٣/ ٥٨٣ س ش س عن مجالد بن سعيد.
الإصابة ٣٦٧٣.

(٢) الطبرى ٣/ ٥٨٤ س ش س عن محمد وطلحة والمهلب وزياد.

(٣) فتوح البلدان ٦٤٧.

« . . أنا أعلم بزهرة منك . وإن زهرة لم يكن ليغيب من سلب سلبه شيئاً ، فإن كان الذى سعى به إليك كاذباً فلقاه الله مثل زهرة فى عضديه يارقان .

تعمد إلى مثل زهرة وقد صَلِىَ بمثل ما صلى به وقد بقى عليك من حربك ما بقى تكسر قرنه وتفسد قلبه ! ؟

أمض له سلبه وفَضِّلْهُ على أصحابه عند العطاء بخمسمائة .

وإنى قد نفلت كل من قتل رجلاً سلبه » .

رد عمر إلى زهرة اعتباره بهذا ، ورد سعد إليه ما كان نزعه منه فباعه بسبعين ألف درهم .

وفى معركة القادسية قطعت يد زيد بن صوحان العبدى ، فقد روى من عدة وجوه أن النبى ﷺ كان فى مسيرة له إذ هوَّم (التهويم أول النوم) فجعل يقول : زيد وما زيد ، جندب وما جندب . فسئل عن ذلك فقال : رجلان من أمتى ، أما أحدهما فتسبقه يده إلى الجنة ثم يتبعها سائر جسده ، وأما الآخر فيضرب ضربة تفرق بين الحق والباطل . فكان زيد بن صوحان قطعت يده يوم جلولاء[1] وقيل بالقادسية وقتل يوم الجمل . وأما جندب فهو الذى قتل الساحر عند الوليد بن عقبة - نقول إن يده قطعت بالقادسية لأن بنى ربيعة كما سوف نرى لم يكونوا فى جيش جلولاء .

---

(١) أسد الغابة ١٨٤٨ . وقال زيد بن صوحان بن حجر بن الحارث بن الهجرس بن صبرة ابن حدرجان بن عاس بن ليث بن حداد بن ظالم بن ذهل بن عجل بن عمرو بن وديعة بن لكيز بن أفصى بن عبدالقيس . (انظر ترجمته فى آخر الكتاب تحت عنوان «ترجمة مشاهير قادة الفتح»).

الباب العاشر

بعد المعركة



انتهت المعركة الحاسمة فى القادسية، وتمت المطاردة بعدها وتنفس المسلمون الصعداء، فراحوا كعادتهم يسجلون انتصارهم شعراً.

قال عمرو بن شأس الأسدى[١]:

جَلبنا الخيلُ من أكناف نيق ... إلى كسْرى فوافَقَها رِعَالاً[٢]
تَرَكْنَ لهم على الأقسام شَجواً ... وبالحَقْوَين أياماً طوالا[٣]
وداعية بفارس قد تركنا ... تُبَكّى كلما رأت الهلالا
قَتَلْنا رستماً وبنيه قسراً ... تُثير الخيل فوقهمُ الهَيالا
تركنا منهُمُ حيث التقينا ... قياماً ما يريدون ارتحالا
وفرَّ البيرزانُ ولم يُحارم ... وكان على كتيبته وبالا
ونجّى الهرمزان حذار نفس ... ورَكْضُ الخيلِ مُوصلةً عجالا

وقال أشعث بن عبدالحجر[٤] بن سراقة العامرى الكلابى، وكان شهد الحيرة مع خالد والقادسية مع سعد:

وما عُقرَت بالسَّيْلحين مطيتى ... وبالقصر إلا خيفة أن أعيرا
فبئس امرؤٌ يَبْأى علىّ برهطه ... وقد ساد أشياخى معداً وحِمْيَرا

وقال قيس بن المكشوح[٥]:

---

(١) الطبرى ٣ / ٥٤٠ س ش س عن الغصن عن القاسم عن رجل من بنى كنانة.
(٢) الرعال: الجماعات المتفرقة واحدها رعلة - الكامل للمبرد ١ / ٤٨.
(٣) الأقسام: يقصد أقسام العراق وأنحائها، الشجو: الهم والحزن - مختار الصحاح.
(٤) فتوح البلدان ٦٤٧. وقد ذكره ابن حجر باسم عبدالحجر بن سراقة وقال: يغلب أنه لم يترك على اسمه فى الإسلام - الإصابة ٦٣٦٥.
(٥) فتوح البلدان ٦٤٧.

جلبت الخـيـل من صنعــاءَ تَرْدى ... بكلِّ مـــدجَّج كـــالليث ســـام
إلى وادى القــــرى فــــديار كلب ... إلى اليـــرمـــوك فـــالبلد الشـــآمى
وجـئنا القـادسـيـــة بعــد شهــر ... مــســـــومـــة دوابرُهـا دوامـى
فناهضنا هنالك جـمع كـــســـرى ... وأبنــاء المــــرازبــة الـكـــــرام
فلمـــا أن رأيتُ الخَـــيلَ جـــالتْ ... قَــصَــدْتُ لموقف الملك الهُــمَــام
فـأضـرب رأسـه فـهـوى صـريعـاً ... بســـيفٍ لا أفَلَّ ولا كـــهَـــام
وقـــد أتلى الإله هنا خـيــــراً ... وفــــعل الخــيـــر عند الله نام

وقال عصام بن المقْشَعر :

فلو شَـهـدْتَنى بالقـوادس أبصَـرَتْ ... جلاد امرىءٍ ماض إذا القوم أحجموا
أضــارب بالمخــشُــوب حــتى أفُلَّه ... وأطعن بالرمـح المِتلْ وأُقْــــدمُ

وقال طليحة بن خويلد

طرقَتْ سُليـــــمى أرحُلَ الرَّكب ... أنى اهتـــديت بسَـبْـسَبٍ سـهـب
انى كـلَفْتُ ســــلام بُعـــدَكُمُ ... بالغـــارة الشــعــواء والحـــرب
لو كنت يوم القـــادســـيـــة إذ ... نــازلتـــهم بمهنَّد عَـــضْــب
أبصـــرتِ شـــداتى ومُنْصَرَفى ... وإقـــامـــتى للطعنِ والضـــرب

وكـان أبو مـفـزِّر الأسـود بن قطبـة شـاعـر المسلمين فى تلك الأيام وهو القـائل :

ألا بلَّغـا عنى الغـريب رسـالة ... فـقـد قـسـمت فـينا فـيوء الأعـاجم
وردت علينا جـزية القــوم بالذى ... فككنا بـه عنهم ولاة المعـاصم[١]

وقال جندب بن عمار الطائى[٢] :

زعم العــواذل أن ناقـــةَ جُنْدُب ... تلوى القـرية عـريت وأجـمت
كـذب العـواذل لو رأين مُناخَـهـا ... بالقــادســيـــة قلن لج وذلت
لو يضـرب الطنبـورَ تحت جـرانهـا ... رجـلٌ أجـشُّ إذا تـرنمَّ حـنَّـت

---

(١) الإصابة ٤٥٦ .

(٢) الإصابة ١٢٢٥ . وقال : جندب بن عمار بن نعيم بن شهاب بن لام بن عمرو بن طريف . كان شاعراً . وفد على النبى صلى الله عليه وسلم وشهد القادسية وقال الأبيات .

وقال النسير بن ديسم[1] العجلي (كان قائد الطلائع يوم البويب):

لقد علمت بالقادسية أنني صبور على اللأواء عف المكاسب

وقال منقع بن الحصين[2] - وكان له فرس اسمه جناح شهد به المعركة:

لما رأيت الخيل زَيَّل بينها طعان وَنشَّابُ صبرتُ جناحا
فطاعنت حتى أنزل الله نصره وود جناح لو قضى فأراحا
كأن سيوف الهند فوق جبينه مخاريق برق في تهامة لاحا

وغير هؤلاء كثير من الشعراء مثل ربعي الذهلي[3] السدوسي والربيع بن مطر بن بلخ التميمي[4] وربيعة بن مقروم الضبي[5] من الرباب. وفي غمرة ذلك التسجيل الشعري ذكر بعضهم مسألة بقاء سعد في القصر فلم يبق شاعر إلا عيّره بها[6].

قال رجل من بني أسد بيتين من أقذع الشعر:

نقاتل حتى أنزل الله نصره وسعد بباب القادسية مُعْصِمُ
فأُبْنا وقد آمَتْ نساءٌ كثيرٌ ونسوة سعدٍ ليس فيهن أَيِّمُ

فدارت على ألسن الناس. وقال جرير بن عبدالله البجلي:

---

(١) الإصابة ٧٧٧ - ٨٦٦٠.
(٢) الطبقات الكبرى ٧ / ٤٣. وقال منقع بن الحصين التميمي السعدي من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ممن سكن البصرة واختط بها داراً. أتى النبي بصدقة إبلهم فسمعه يقول: «اللهم لا أحل لهم أن يكذبوا علي». قال المنقع: فلم أحدث بحديث عن النبي صلى عليه وسلم إلا حديثاً نطق به كتاب أو جرت به سنة، يكذب عليه في حياته فكيف بعد موته.
(٣) الإصابة ٢٧٢٣.
(٤) الإصابة ٢٧٢٩.
(٥) الإصابة ٢٧٣٦.
(٦) الطبري ٣ / ٥٧٧ عن ابن حميد عن سلمة عن محمد بن اسحق عن إسماعيل بن أبي خالد مولى بجيلة عن قيس بن أبي حازم البجلي وكان ممن شهد القادسية.
الطبري ٣ / ٥٨٠ س ش س عن المقدام بن شريح الحارثي عن أبيه.
الطبري ٣ / ٥٧٩ س ش س عن عبدالملك بن عمير عن قبيصة بن جابر (الأسدي).
الطبري ٣ / ٥٨٠ س ش س عن القاسم بن سليم بن عبدالرحمن السعدي عن عثمان ابن رجاء السعدي.

أنا جـــريـر كنيـــتى أبو عـــمـــرو   قـــد نصـر الله وسـعـد فى القـصـر

وبلغ سعداً ما يقول الناس فأشرف عليهم وأراهم ما به من القرح فى فخذيه وإليتيه فعذره المسلمون، وقال سعد يجيب جريراً:

ومـا أرجـو بَجـيلةَ غـيـر أنى   أُؤَمّلُ أجـرَها يوم الحـساب
فـقـد لَقِيَتْ خُيـولُهمُ خـيولاً   وقـد وقعَ الفـوارسُ فى ضـراب
وقـد دَلَفَت بعـرصتـهم فـيـول   كـأن زُهاءها إبلٌ جـراب[1]
فلولا جـمعُ قـعـقـاعِ بن عـمـرو   وَحـمَّـال لَلَجُّـوا فى الكذاب
هم منعـوا جُـمُـوعَكمُ بطعنٍ   وضـربٍ مـثل تشْـقـيق الإهاب
ولولا ذاك أُلفِـيـتم رَعَـاعـاً   تُشَلُّ جـمـوعكم مـثل الذباب

يقول قيس بن أبى حازم البجلى: «... ولم يكن سعد لعمرى يجبن».

وقال عثمان بن رجاء السعدى: «كان سعد بن مالك أجرأ الناس وأشجعهم، إنه نزل قصراً غير حصين بين الصفين فأشرف منه على الناس، ولو عراه الصف فُوَاق ناقة أخذ برمته، فوالله ما أكرثه هول تلك الأيام ولا أقلقه».

أسر الشهداء

أمر آخر مما كان بعد المعركة ولعله من أبرز الظواهر فى معسكر المسلمين، ذلك أن هجوم الفرس بالأفيال يوم أرماث على بجيلة ومن جاورها قد أصابها بكثير من الضحايا. وفى بعض الروايات[2]:

«لم يكن من قبائل العرب أحد أكثر امرأة يوم القادسية من بجيلة والنخع. وكان مع الناس نساؤهم وفى النخع سبعمائة امرأة فارغة وفى بجيلة ألف، فصاهر هؤلاء ألف من أحياء العرب وهؤلاء سبعمائة، وكانت النخع - وبجيلة - تسمى أصهار المهاجرين - أو أختان المهاجرين».

(١) دلفت: أسرعت، عرصتهم: حوشهم وحوزتهم.
(٢) الطبرى ٣ / ٥٨١ س ش س عن عطية وهو ابن الحارث عمن أدرك ذلك.
الطبرى ٣ / ٥٨١ س ش س عن محمد والمهلب وطلحة.

والمهاجرون هم المجاهدون هنا . ونعتقد أن عملية المصاهرة هذه لم تتم مباشرة بعد المعركة ولابد أن تكون قد امتدت زمناً هو على الأقل عدة المتوفى عنها زوجها (أربعة أشهر وعشرة أيام) ولا يمنع أن تكون قد بدأت فى أعقاب المعركة بالنسبة لغير أرامل الشهداء من بناتهم وأخواتهم وأمهاتهم . وهو علاج اجتماعى سليم لمشكلة من مشاكل الحرب فيحسمها حسماً كريماً . وفى بعض الروايات عن نساء النخع أن المجاهدين تزوجوهن قبل الفتح وبعد الفتح حتى استوعبوهن فصار اليهن سبعمائة رجل من أفناء العرب .

وعن حنش بن الحارث بن لقيط النخعى عن أبيه قال[١] :

« ... فأتينا القادسية فقتل منا كثير ومن سائر الناس قليل ، فسئل عمر عن ذلك فقال : إن النخع وُلّوا عظم الأمر وحده » .

وكانت هنيدة بنت عامر الهلالية هلال النخع امرأة القعقاع بن عمرو ، فخطب أختها أروى يوم القادسية بكير بن عبدالله الليثى وعتبة بن فرقد السلمى ، وسماك بن خرشة الأنصارى (وهو خلاف أبى دجانة) وذلك بعد الفتح . فطلبت أروى من هنيدة أن تستشير لها القعقاع فيمن تختار منهم ، فقال القعقاع :

إن كنت حاولت الدراهم فانكَحى ... سماكاً أخا الأنصار أو إبنَ فرقَد
وإن كنت حاولت الطعان فيممى ... بُكَيْراً إذا ما الخيل جالت عن الردَى
وكلهم فى ذروة المجد نازلٌ ... فشأنكم إن البيان عن الغَد

الغالب والمغلوب

وفى الأيام التالية للمعركة راح المسلمون يقومون أقباضهم ويرممون أمورهم . هذا ووحدات جيش خالد العائدة من الشام تصل تباعاً بعد أن شهدوا اليرموك وفتح دمشق ، بدأ وصولهم مع القعقاع يوم أغواث ، ثم يوم عماس مع هاشم بن عتبة بن أبى وقاص ثم يوم القادسية واليوم التالى ليوم القادسية بعد أن انتهت المعركة والمطاردة . بعضهم أدرك المعركة فشارك فيها وبعضهم لم يدركها . فكتب سعد إلى عمر يسأله عما ينبغى أن يسير[٢] به فيهم . وكان هذا هو الكتاب الثانى بعد الفتح أرسله مع نذير بن عمرو ولما يأته بعد جواب الكتاب الأول .

---

(١) الإصابة ٧٢ .

(٢) الطبرى ٣ / ٥٨٤ س ش س عن محمد وطلحة والمهلب وزياد .

ويبدو أن سعداً استمر يكتب كل يوم إلى عمر، فكان كلما عرضت له قضية كتب بها إلى عمر. فكتب كتاباً آخر أرسله مع أنس بن الحُلَيْس يقول:

«إن أقواماً من أهل السواد ادعوا عهوداً.

ولم يُقم على عهد أهل الأيام لنا ولم يف به أحد علمناه إلا أهل بانقيا وبسماً وأهل أُلَيس الآخرة.

وادعى أهل السواد أن فارس أكرهوهم وحشروهم فلم يخالفوا إلينا ولم يذهبوا فى الأرض».

وكتب إيضاحاً أكثر مع أبى الهياج بن مالك الأسدى:

«إن أهل السواد جلوا، فجاءنا من أمسك بعهده ولم يجلب علينا فتممنا لهم ما كان بين المسلمين قبلنا وبينهم، وزعموا أن أهل السواد قد لحقوا بالمدائن. فأحْدِث إلينا:

١- فيمن تم. (على الوفاء بالعهد وهم أهل بانقيا وبسما وأليس الآخرة).

٢- وفيمن جلا.

٣- وفيمن ادعى أنه استكره وحشر فهرب ولم يقاتل أو استسلم.

فإنا بأرض رغيبة والأرض خلاء من أهلها وعددنا قليل، وقد كثر أهل صلحنا، وإنَ أعمَر لها وأوهن لعدونا تَألُّفُهم».

فقام عمر فى الناس فقال:

«إنه من يعمل بالهوى والمعصية يسقط حظه ولا يضر إلا نفسه.

ومن يتبع السُّنة وينته إلى الشرائع ويلزم السبيل النهج ابتغاء ما عند الله لأهل الطاعة أصاب أمره وظفر بحظه، وذلك بأن الله عز وجل يقول: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾.

وقد ظفر أهل الأيام والقوادس بما يليهم، وجلا أهله، وأتاهم من أقام على عهدهم.

فما رأيكم فيمن زعم أنه استكره وحُشر؟

وفيمن لم يدَّعِ ذلك ولم يُقِم وجلا؟

وفيما أقام ولم يدع شيئاً ولم يجْلُ؟

وفيمن استسلم؟»

فأجمعوا على الوفاء لمن أقام وكف لم يزده غلبه إلا خيراً.

وأن من ادعى دعوى فصدقوه فيها أو وفى فبمنزلتهم، وإن لم يصدقوه أعادوا صلحهم.

وأن يجعل أمر من جلا إليهم فإن شاءوا وادعوهم وكانوا لهم ذمة، وإن شاءوا ظلوا على جلائهم ومُنعوا من أرضهم ولم يعطوهم إلا القتال، وأن يخيروا فمن عاد وأقام واستسلم فعليه الجزية وإلا فالجلاء وكذلك بالنسبة للفلاحين.

وكتب عمر جواب الكتاب الذى حمله أنس بن الحليس:

«أما بعد. فإن الله جل وعلا أنزل فى كل شىء رخصة فى بعض الحالات إلا فى أمرين، العدل فى السيرة، والذكر.

فأما الذكر فلا رخصة فيه فى حالة ولم يرض منه إلا بالكثير.

وأما العدل فلا رخصة فيه فى قريب ولا بعيد ولا فى شدة ولا رخاء. والعدل إن رؤى ليناً فهو أقوى وأطفأ للجور وأقمع للباطل من الجور وإن رؤى شديداً فهو أنكش للكفر.

١- فمن تم على عهده من أهل السواد ولم يُعن عليكم بشىء فلهم الذمة وعليهم الجزية.

٢- وأما من ادعى أنه استكره ممن لم يخالفهم إليكم أو يذهب فى الأرض فلا تصدقوهم بما ادعوا من ذلك إلا أن تشاؤوا، وإن لم تشاؤوا فانبذ اليهم وأبلغوهم مأمنهم».

وكتب رداً على الكتاب الذى حمله أبو الهياج بن مالك الأسدى:

«... أما من أقام ولم يجل وليس له عهد فلهم ما لأهل العهد بمقامهم لكم، وكفهم عنكم إجابة، وكذلك الفلاحون إذا فعلوا ذلك. وكل من ادعى ذلك فصدق فلهم الذمة، وإن كُذِّبوا نُبذ إليهم.

وأما من أعان (عليكم) وجلا فذلك أمر جعله الله لكم فإن شئتم فادعوهم إلى أن يقيموا لكم فى أرضهم ولهم الذمة وعليهم الجزية. وإن كرهوا ذلك فاقسموا ما أفاء الله عليكم منهم».

فلما قدمت كتب عمر على سعد والمسلمين عرضوا على من يليهم ممن جلا وتنحى عن السواد أن يتراجعوا ولهم الذمة وعليهم الجزية، فتراجعوا وصاروا ذمة كمن بقى على عهده

إلا أن خراجهم أثقل، وأنزلوا من أقام منزلة ذى العهد وكذلك الفلاحين. ولم يدخلوا فى الصلح ما كان لآل كسرى ولا ما كان لمن خرج معهم ولم يجيبهم إلى واحدة من اثنتين الإسلام أو الجزية، فصارت هذه فيئاً لمن أفاء الله عليه، وكان سائر السواد الذمة.

وأخذوهم بخراج كسرى وكان على رؤوس الرجال على ما فى أيديهم من الحصة والأموال. وكان مما أفاء الله عليهم ما كان لآل كسرى (البيت المالك) ومن انحاز إليهم وعيال من قاتل معهم وأمواله وما كان لبيوت النيران (معابد المجوس) والآجام ومستنقع المياه وما كان موقوفاً للسكك، وكان ذلك متفرقاً فى كل السواد فلم يتأت قسمته، ولذلك تركوه يقوم به لأهل الفيء من وثقوا به وتراضوا عليه. وقد أكثرت المصادر والمؤلفات فى ذكر النظام المالى الذى وضعه عمر والمسلمون لما فتح الله عليهم وأفاضوا فى ذلك بما يغنينا عن الاستطراد وراءه اكتفاء بما ذكرنا.

الأنفال

وقسمت الغنائم على المجاهدين فكان نصيب الراجل ألفين ونصيب الفارس ستة آلاف. وقد أمر عمر سعد أن يفضل أهل البلاء عند العطاء فزادهم سعد خمسمائة لكل منهم وكانوا خمسة وعشرين رجلاً منهم[1] زهرة وعصمة الضبى والكلج (هؤلاء ذكرهم الرواة، ولابد أن كان منهم القعقاع وعاصم والربيل بن عمرو وسواد بن مالك). كذلك أمره أن يعطى من لحق بهم من جيش الشام ممن لم يدرك القتال.

ووزع سعد وأعطى ثم بقى عنده شيء كثير فكتب إلى عمر يسأله، فأمره أن يعطى حملة القرآن، فجاءه عمرو بن معدى كرب وبسر بن أبى رهم (وهو بشر بن ربيعة بن عمرو الخثعمى)، فقال سعد لعمرو:

«ما معك من كتاب الله تعالى؟»

فقال عمرو إنه أسلم ثم شغله الجهاد عن حفظ القرآن، فلم يعطه شيئاً.

وسأل بسراً عما معه من القرآن فقال: «بسم الله الرحمن الرحيم». فلم يعطه شيئاً فقالا أبياتاً يهجوانه بها.

---

(١) الطبرى ٣ / ٥٦٨ س ش س عن عبيدة عن إبراهيم وعامر.

فقال بسر[1]:

ألمَّ خـيـال من أمـيـمـة مَـوْهِـناً	وقـد جـعلت أولى النجـوم تغـورُ
ونحن بصـحـراء العـذيب ودارها	حـجـازية إن المحل شـطـيـرُ
ولا غرو إلا جَوبُها البيدَ فى الدجى	ومن دوننـا رَعْنٌ أشَـمٌّ وقـورُ
تَحِنُّ ببـاب القـادسـيـة ناقـتـى	وسـعـد بن وقـاص علىَّ أمـيـرُ
وسـعـد أمـيـر شـره دون خـيـره	طويل الشَّذى كابى الزناد قصير
تذكَّـرْ هـداك الله وقـع سـيـوفنا	ببـاب قـديس والمَكَـرُّ عـسـيـر
عـشـيـة وَدَّ القـوم لو أن بعضـهم	يعـار جناحَىْ طـائر فـيطـيـر
إذا مـا فـرغنا من قـراع كـتـيبـة	دلفنا لأخـرى كـالجـبـال تسـيـر
وعنـد أمـيـر المؤمنـين نوافـل	وعند المثنى فـضـة وحـريـر[2]

وقال عمرو بن معدى كرب:

إذا قُـتلنا ولا يبكى لنا أحـد	قـالت قـريش ألا تلك المقـادير
نُعطَى السـوية من طعن به نَفَـذٌ	ولا سـوية إذ تعطى الدنانيـر

وكتب سعد بذلك إلى عمر فأجابه عمر: «أن أعطهما على بلائهما».

---

(١) فتوح البلدان ٦٤٧.
الإصابة ٧٦٨ - ٨٦٩.

(١) جوبها: قطعها، جوب الشىء قطع وسطه.
الرعن: أنف الجبل، والأرعن طويل الأنف وهو أيضاً الأحمق.
الشذى: الشر والأذى.
يقال: فلان وارى الزند أى فالح مفلح. وفلان كابى الزند أو الزناد أى خاسر.

خريطة القادسية

لقد أسسنا كثيراً مما ذكرنا فى شرح مراحل المعركة على الخريطة التى رسمناها للقادسية ولمواقع الوحدات فيها. وهى خريطة أنشأناها ولم ننقلها عن سوانا، تشمل أوضاع قوات الفريقين ثم تطبيق هذه الأوضاع على طبوغرافية المكان. ونشرح هنا الأسس التى بنينا عليها تفاصيل هذه الخريطة.

أولاً - الأساس الجغرافى

١- أن القادسية بين الخندق والعتيق كما ذكر سعد لعمر. وقد أخذنا موقع القادسية من خريطة العراق الأثرية وكذلك عن خريطة غير مطبوعة مرسومة بمقياس ١ : ١٠٠٠٠٠ وافتنا بها مشكورة مديرية الآثار العراقية ببغداد.

٢- وقُدَيْس حصن على الخندق كان يقال له أيضاً «قصر قديس»، وهو الذى اتخذه سعد مقراً له يشرف منه على المعركة. ذلك القصر نذهب إلى أنه كان من ثلاث طوابق على الأقل، أخذنا ذلك مما جاء فى حادث أبى محجن إذ صعد من محبسه إلى سعد ليسترضيه فلما ردَّه سعد نزل إلى محبسه، فلما وافقته سلمى على فك قيده نزل فأخذ البلقاء، يفيدنا هذا أن سجن أبى محجن كان طابقاً فوق الأرضى وأن سعداً كان فى سطح فوق ذلك.

٣- أضفنا إلى الخريطة من المعالم الهامة وفق الأوصاف التى وردت فى المصادر التاريخية مما لم نجده فيما بين أيدينا من خرائط. وقد كان هذا يكفينا من الناحية العلمية، ولكن رغبة منا فى زيادة الاستيثاق وفى إشراك خبراء من أهل العراق، فقد أعدنا الخريطة بعد الإضافات التى أدخلناها إلى مديرية الآثار العراقية ببغداد للعرض وإبداء تأييدها لما أضفنا إلى خرائطها الأصلية أو نقده مع بعض استفسارات منا، ونعتب على الهيئة العلمية إن لم توافنا بأى رد فى هذا الشأن.

ولم نجد الخندق فى خرائط القادسية فماذا قالت عنه المصادر التاريخية؟

كانت هناك قناة صناعية غربى نهر الفرات وهى نهر كرى سعده المسمى خندق سابور الذى نسب بعض المؤرخين حفره إلى نبوخذنصر واتخذه سابور ذو الأكتاف الملك الساسانى ٣٠٩ - ٣٧٩م بعد أن أهمل قليلاً، اتخذه خندقاً فأجرى فيه الماء وبنى عليه المخافر كخط دفاعى لمراقبة البادية والحيلولة دون تسرب الموجات العربية إلى العراق. وقد شيد فى ضفته الغربية جداراً ضخماً مبنياً بالحجارة. ويمتد هذا النهر أو الخندق من مكان جنوبى هيت بنحو سبعة عشر كيلو متراً ويمتد على طول الحدود الغربية لأرض العراق السهلة وينتهى فى البحر قرب نهر بوبيان وهو مصب نهر الفرات القديم الواقع على بعد حوالى ثلاثين كيلو متراً إلى الغرب من شط العرب (خور عبدالله الحالى بين البصرة والزبير) وإلى الشرق من جبل سنام. وقد أحياه المسلمون بعد تحرير العراق فسمى نهر كَرْى سَعْدَه (نسبة إلى سعد بن عمرو بن حرام) الذى أمره سعد ابن أبى وقاص بكريه (حفره) ويبلغ طوله حوالى تسعمائة كيلو متر ويسلك الضفة الغربية لبحيرة الحبانية فجبل سعده فوادى أبى فروخ ثم ينحدر إلى الجنوب الشرقى حتى يصل أكناف طف كربلاء من ناحية الغرب حيث يتصل بخندق سابور قرب مدينة الكوفة غربى الفرات ويستمر فى سيره نحو الجنوب ماراً بغربى آثار خورنق النعمان ثم ينحدر إلى الطرف الشرقى من بحر النجف الذى جف الآن. وهنا تسكت المصادر عن سير الخندق بجهة القادسية ولكنها تعود فتقول ثم يمتد على طول الجانب الغربى من هور الحمار (بمنطقة البصرة) فيمتد جنوباً غربى هور عبدالله قريباً من ميناء أم قصر. وعندما كان نهر كرى سعده عامراً كانت منطقة هور الحمار أيضاً عامرة بالمزارع والقرى ومازالت آثار الأبنية القديمة قائمة فى منتصف البحيرة كتل شعيب وأم الساح وأبو زركى وأبو صلابيخ. (عن تقرير مديرية الآثار العراقية).

٤- ونهر العتيق لم نجد له أثراً على أى خريطة ولكننا وجدنا فى خريطة مديرية الاثار المذكورة وادٍ يمُر شمالى القادسية مباشرة هو وادى مصب، لم نجد أى معالم أخرى بالمنطقة يمكن أن تكون وفق أوصاف نهر العتيق سواء من حيث موقعه ومن حيث مساره فاعتبرناه هو وكان ذلك مما عرضنا على الآثار العراقية فلم نتلق جواباً. وعند القادسية يقترب العتيق من الخندق بحيث يكون بين القنطرة التى عليه وبين قديس مسافة ميل (والميل ١٨٤٨ متراً).

٥- هذه القنطرة لم تكن تجاه قديس وإنما كانت أعلى من مكان الردم. دليلنا على ذلك أن رستم حين بلغ العتيق - فى الموضع الذى ردمه بعد ذلك -ساير العتيق نحو خفان إلى الجنوب الشرقى ينظر إلى المسلمين حتى بلغ منقطع عسكرهم، ثم رجع وصعد حتى بلغ منقطع

عسكرهم، ثم رجع وصعد حتى بلغ القنطرة.

٦- عن يمين القادسية وعن يسارها فيوض من بطائح العراق التى خلفها فيضان الفرات فيما انخفض من الأرض. فعن يسارها منخفض الجوف يتجه نحو الحيرة والنجف وعن يمينها بطيحة طويلة تصل إلى الولجة - كذلك وصفها سعد لعمر فى خطابه - وهى البطيحة العظمى، فكأنما كانت القادسية معبراً جافاً يجتاز تلك الفيوض بين الصحراء والسواد. (الطبرى ٣ / ٤٩٢).

٧- قدرنا عمق خطوط الفرس بحوالى مائتى متر. قدرنا ذلك من أن هاشم ابن عتبة وقف أمام صف المسلمين ونزع سهماً فأصاب أذن فرسه، قال: أين ترون سهمى كان بالغاً؟ فقيل: العتيق.. إذن كان بين موقف هاشم أمام صف المسلمين والمعركة دائرة وبين العتيق وهو آخر صفوف الفرس مرمى سهم. ولقد كان المرمى المؤثر للسهم مائتى ذراع (حوالى مائة متر) ونفترض أن أقصى مدى للسهم يجاوز المدى المؤثر بمقدار الضعف.

٨- فى موضع آخر وجدنا نشاب الفرس يجوز صفوف المسلمين والمعركة دائرة، ومعنى هذا أيضاً أن عمق صفوف المسلمين كان نحواً من ذلك. وحين يتحاجز الطرفان فلابد أن يكون ما بينهما من مسافة يكفل حد الأمان وذلك بأن يتجاوز مدى الرمى بالسهام. وإذن كان بين الخندق والعتيق (أى بين قديس والردم) حوالى ٦٠٠ متر.

٩- بقيت القنطرة بين خيلين من خيول الفرس وخيول المسلمين.

١٠- كان ردم العتيق تجاه قديس. هذا الردم كان المعبر الوحيد الذى يصل جيش رستم بقاعدته، وقد انضغط المجوس حتى كان آخر صفهم على شفا العتيق فلم يتسع خلف صفوفهم مكان لمواصلاتهم حتى وجدنا طعام رستم كان يمر أمام الصفوف. معنى هذا أن الفرس تركوا ممراً أمام الردم إلى أمام صفوفهم كما رسمنا بالخريطة.

١١- كانت الجبهة بطول ميل بين الصفين وبطولهما

ثانياً - تعبئة رستم

١٢- هرمزان على الميمنة. وجالنوس بينه وبين القلب.

١٣- مهران على الميسرة. وبيرزان بينه وبين القلب.

١٤- بهمن جاذويه بين رستم وجالنوس منذ كانوا بالنجف فجعله بالقلب ويبدو أن رستم اطمأن إليه منذ انتصر يوم الجسر على أبى عبيد.

١٥- وإذاً كان ترتيب فرق الفرس من الميمنة إلى الميسرة كالآتى، هرمزان - جالنوس - بهمن جاذويه - بيرزان - مهران.

١٦- أفيال الفرس كانت ٣٠ فى رواية و٣٣ فى رواية أخرى. رواية ثالثة تفسر لنا هذا التعارض بأنها كانت ٣٠ فيلاً للقتال و٣ للملوك تركبها لا تقاتل. وضع رستم ١٨ فيلاً منها بالقلب (إذاً منها واحد غير مقاتل)، و٨ فى الميمنة (إذاً منها واحد غير مقاتل)، و٧ فى الميسرة (إذاً منها واحد غير مقاتل). (الطبرى ٤ / ١١٣). مع كل فيل ٤٠٠٠ مقاتل من الفرسان والمشاة. وهكذا ينضبط تعداد جيش الفرس المقاتل ٣٠ فيلاً × ٤٠٠٠ مقاتل = ١٢٠٠٠٠ مقاتل . ذهبنا إلى أن نصفهم من الفرسان ونصفهم من المشاة .

إذاً كانت فرقة هرمزان (الميمنة) = ٧ × ٤٠٠٠ = ٢٨٠٠٠.

وكانت فرقة مهران (الميسرة) = ٦×٤٠٠٠ = ٢٤٠٠٠.

١٧- يوم أرماث وجه الفرس إلى الوجه الذى به بجيلة (فى ميسرة المسلمين) ١٣ فيلاً، منها ٧ أفيال ميمنتهم الخاصة بهرمزان، وإذاً كان معها ٦ أخرى من أفيال القلب هى أفيال جاره فى موقفه، جالنوس.

إذاً كانت فرقة جالنوس = ٦×٤٠٠٠ = ٢٤٠٠٠.

١٨- هذه الأفيال الستة كانت من عدد أفيال القلب السبعة عشر. ومعنى هذا أنه يبقى منها أحد عشر فيلاً تحت قيادتى بيرزان وبهمن. فإذا كان رستم قد جعل فى يمين القلب ستة أفيال (جالنوس) فإن المنطق يقضى بأنه وضع فى يسار القلب ستة أفيال أيضاً (بيرزان) ويبقى لبهمن خمسة أفيال.

١٩- كان صف الفرس على حافة العتيق، فوضعنا فرقهم على الخريطة بأبعاد تتناسب مع تعداد كل فرقة.

٢٠- كان جالنوس أول من دعا المجوس إلى عبور العتيق للانسحاب، وعبره فكان الردم خلفه أو على الأقل بمكان قريب يسمح له أن يكون أول من عبر. ثم عبر بعده هرمزان.

٢١- عبدالله بن المعتم العبسى على الميمنة - عبس من قيس عيلان، إذاً كانت قيس عيلان فى الميمنة.

٢٢- شرحبيل بن السمط الكندى على الميسرة - كندة من قبائل اليمن القحطانية. إذاً كانت سائر قبائل قحطان فى الميسرة. يدعم هذا.

أ - ان النخع نافست بجيلة فى كثرة شهدائها فكانت تجاورها وتدور الدائرة عليها معها حين طحنتها الأفيال يوم أرماث.

ب- رواية قيس بن أبى حازم الأحمسى البجلى (من بجيلة)، قال مر بنا عمرو بن معدى كرب (الزبيدى) وهو يحضض الناس بين الصفين (الطبرى ٣ / ٥٣٧).

جـ- وروايته أيضاً أن الأعاجم وجهت إلى الوجه الذى فيه بجيلة ١٣ فيلاً. إذاً كانت مواقف زبيد (من اليمنيين القحطانيين) قريبة من بجيلة وزبيد من سعد العشيرة.

د - أن الأشعث بن قيس قام فى بنى كندة يدفع عن بجيلة. وكندة أيضاً من اليمنيين القحطانيين - عشيرة شرحبيل بن السمط قائد الميسرة.

تفيدنا كل هذه الأدلة وأمثالها أن القحطانيين جميعاً قد اجتمعوا فى الميسرة تحت قيادة شرحبيل بن السمط. ومن لم يرد له ذكر معين يحدد لنا بدقة موقع مواقفه بين القحطانية رتبناهم وفق تجاور مساكنهم حسب ما ذكرنا عن ابن خلدون فى الجزء الأول من كتاب «الطريق إلى المدائن».

٢٣- أرسل سعد يوم أرماث إلى بنى أسد أن يردوا هجوم الفرس عن بجيلة (الطبرى ٣ / ٥٣٨). وإذاً فقد كانت أسد تجاور بجيلة فى مواقفها. وكانت أسد من ولد عدنان ولم تكن من القحطانية، ومعنى هذا أنها لم تكن عن يسار بجيلة حيث تدور الدائرة مع قبائل الحقطانيين وإنما كانت عن يمينها حيث لم تكن المعركة قد امتدت إليها بعد، يفيدنا هذا أيضاً أن بجيلة كانت منتهى يمين القحطانية.

٢٤- وجدنا غالب بن عبدالله الليثى يخرج مع فرسان بنى أسد يدفعون عن بجيلة، وليث من كنانة وكانت كنانة ثلاثمائة فقط فى المعركة - يدلنا هذا على انضمام كنانة إلى أسد، وقد كان أسد وكنانة أخوين وهما ابنا خزيمة بن مدركة ابن إلياس بن مضر. فكان

انضمام كنانة إلى أسد فى المعركة هو انضمام القليل إلى إخوتهم الأكثر عدداً.

٢٥- وجه الفرس ضغطهم يوم أرماث على أسد فوجهوا إليهم جالنوس وبهمن (الطبرى ٣ / ٥٤٠). يوافق هذا تعبئة الفرس فيما تواجه بالنسبة لموقع أسد من الجبهة.

٢٦- رد عاصم وبنو تميم أفيال الفرس عن أسد، وإذًا كانت تميم إلى اليمين من أسد فقد كانت بجيلة هى التى عن يسارها. ويصل هذا بمواقف المسلمين أن تقع تميم فى صميم قلب المسلمين أمام القصر وفى مواجهة قلب جيش الفرس. يؤيد هذا:

أ - أنه عند التعبئة أدخل سعد مقدمة زهرة ومؤخرة عاصم - وكلاهما كان من تميم - فى الوسط.

ب- أسر عاصم بن عمرو التميمى يوم أرماث البغل الذى يحمل طعام رستم وبطبيعة الحال كان مكان رستم فى قلب الفرس يواجه قلب جيش المسلمين.

جـ- بارز القعقاع بن عمرو التميمى بهمن جاذويه وكان مكانه فى القلب من جيش رستم.

د - ثم بارز بيرزان وكانت مواقفه إلى جوار بهمن.

هـ- انتهى القعقاع ومن معه يوم القادسية إلى سرير رستم، فكان إذًا قبالته.

و - هلال بن علفة التيمى تيم الرباب قتل رستم. وكان الرباب وتميم أبناء عمومة وتتجاور مساكنهم فى جزيرة العرب، وبعض النسابة يجعل الرباب من تميم مما يجعل من المعقول أن تكون مواقفهم مع تميم.

٢٧- سقطت «درفش كابيان» فى يد ضرار بن الخطاب الفهرى (القرشى) وفهر من كنانة وكنانة كانت مع أسد. ومن البديهى أن ينصب رستم رايته الكبرى إلى جوار سريره ونرى أن ذلك كان إلى يمين السرير حيث يواجه موقف كنانة.

٢٨- توزيع قبائل المسلمين على طول الجبهة بمعدل يتناسب وعدد كل قبيلة يستقيم مع كل ما سبق.

٢٩- لم نجد فى الروايات ما يدلنا على مواقف ١٠٠٠ من قضاعة و١٠٠٠ من طىء وكان هناك لذلك احتمال من اثنين، إما أن يكونوا اتخذوا مواقفهم فى الميمنة بحكم تجاور مساكنهم فى شبه الجزيرة مع عبس وذبيان من قيس عيلان - وفق تحليل ابن خلدون - وإما

أنهم كانوا فى الميسرة بحكم أنهم قحطانيون (كانوا أصلاً من قحطانية اليمن ثم نزحوا شمالاً)، وقد رجحنا الاحتمال الأول واخترناه لأنه هو الذى يتفق به أن تكون سائر القبائل فى مواقفها تلك التى رسمناها على الخريطة فاستقامت بذلك، ولو وضعنا طيئاً وقضاعة فى الميسرة لانزاحت كل من بجيلة وأسد وتميم إلى اليمين مسافة تباعد مواقفها بعض الشىء عما أمامها من تعبئة الفرس التى التحمت معها.

على هذه الأسس رسمنا خريطة تعبئة القادسية التى أعانتنا كثيراً على تتبع سير المعركة وفهم مراحلها وأحداثها فى أيامها كلها، وجاءت فى كل جزئية منها موافقة لكل ما ذكرته روايات المصادر.

ونرجو أن نكون قد وفقنا فى ذلك إلى عين الصواب.

توقيت القادسية

تضاربت الأخبار عن توقيت موقعة القادسية والأيام السابقة لها. وقد جمعنا فيما يلى ما وجدناه من ذلك ثم قمنا بالنظر فيه ومقارنته ببعضه ومطابقته على الأحداث حتى خلصنا إلى النتيجة التى أخذنا بها:

١- كانت وقعة القادسية فى أول محرم ١٤هـ[١].

٢- بدأ توافد المسلمين لهذه الحملة على المدينة فى أول محرم ١٤هـ. فأنزلهم عمر بصرار[٢].

٣- كانت وقعة القادسية وافتتاحها سنة ستة عشر[٣].

٤- كان بعض أهل الكوفة يقول كانت وقعة القادسية سنة خمسة عشر[٤].

٥- قال (لا ندرى من) والثبت عندنا أنها كانت فى سنة أربعة عشر[٥].

٦- وأما محمد بن اسحق فإنه قال كانت سنة خمسة عشر[٦].

٧- فى آخر سنة خمسة عشر قتل الله رستم بالعراق، وشهد أهل اليرموك حين فرغوا منه يوم القادسية مع سعد بن أبى وقاص، وذلك أن سعداً حين حسر عنه الشتاء سار من شراف يريد القادسية، وفى رواية ابن اسحق أن اليرموك كانت فى رجب سنة خمسة عشر[٧]. (الطبرى ٤ / ١٣٦).

٨- نزل سعد زرود أول الشتاء[٨].

٩- أقام سعد بزرود (الثعلبية) ثلاثة أشهر حتى لحق به أصحابه ثم قدم العذيب فى ١٥هـ[٩].

---

(١) الطبرى ٣/٥٣٨ س ش س عن إسماعيل بن أبى خالد.
(٢) الطبرى ٣/ ٤٨٠ س ش س عن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم.
(٣) (٤) (٥) (٦) الطبرى ٣/ ٥٩٠ عن الواقدى.
(٧) الطبرى ٣/ ٥٧٢ عن ابن اسحق عن وهب بن كيسان عن عبدالله بن الزبير.
(٨) الطبرى ٣/٤٨٦ س ش س عن محمد وطلحة عن ماهان وزياد بإسناده.
(٩) فتوح البلدان ٦٣٣.

١٠- أقام سعد بالقادسية شهراً ثم كتب إلى عمر: «لم يوجه القوم إلينا أحداً»(١).

١١- أقام رستم بين الحيرة والسيلحين أربعة أشهر لا يقدم على المسلمين(٢).

١٢- كان بين خروج رستم من المدائن وعسكرته بساباط وزحفه إلى أن لقى سعداً أربعة أشهر(٣).

١٣- كان بين قدوم خالد العراق ونزول سعد القادسية سنتان وشيء. وكان مقام سعد بها شهرين وشيئاً حتى ظفر(٤).

١٤- خطب سعد يوم أرماث وذلك يوم الاثنين في المحرم ١٤هـ فكان مما قال: «.. وقد أباحها لكم منذ ثلاث حجج...»

وقال عاصم يومها لقومه: «... وأنتم تنالون منهم منذ ثلاث سنين...»(٥).

١٥- كان مقام سعد بالقادسية بعد الفتح شهرين في مكاتبة لعمر.. ثم ارتحل إلى برس لأيام بقين من شوال ١٥هـ - كذلك أورد الطبرى برس ضمن أحداث عام ١٥هـ(٦).

١٦- علم سعد بمخاضة أسفل العسكر فأرسل إليها طليحة بن خويلد فعبر منها العتيق إلى خلف عسكر الفرس وراء الردم(٧).

١٧- كان قتال القادسية يوم الخميس والجمعة وليلة السبت وهى ليلة الهرير(٨).

من جملة هذه الروايات نجد لها اتجاهاً عاماً واحداً إذا استثنينا من بينها القليل الشاذ. فمن حيث كان بدء توافد المسلمين على المدينة فى أول محرم ١٤هـ فإنه ينتفى أن تكون القادسية فى أول محرم ١٤هـ. والذين قالوا إن القادسية كانت عام ١٦هـ يختلفون مع الثابت أن فتح المدائن كان فى صفر ١٦هـ وكان بين القادسية والمدائن من الزحف والمعارك ما لا يتسع له ما قبل صفر من عام ١٦هـ، كما سنرى فى الكتاب التالى.

---

(١) الطبرى ٣/ ٤٩٤ س ش س عن عبدالله بن مسلم العكلى، والمقدام بن أبى المقدام عن أبيه عن كرب بن أبى كرب العكلى.

(٢) فتوح البلدان ٦٣٤.

(٣) الطبرى ٣/ ٥٠٩ س ش س عن محمد وأصحابه وشاركهم النضر بإسناده.

(٤) الطبرى ٣/ ٥٠٢ س ش س عن عمرو عن الشعبى.

(٥) الطبرى ٣/ ٥٣١ س ش س عن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم.

(٦) الطبرى ٣/ ٦١٩ س ش س عن محمد والمهلب وعمرو وسعيد.

(٧) الطبرى ٣/ ٥٥٧ س ش س عن محمد وطلحة وزياد.

(٨) فتوح البلدان ٦٤٢.

أما الرواية التي تقرر أن سعداً نزل زرود أول الشتاء، فكأنها تقرر أن ذلك كان في أواخر شعبان ١٤هـ فهو الذي كان يوافق منتصف أكتوبر (تشرين الأول) ٦٥٣م الذي يمكن اعتباره أول الشتاء، ويكون مسيرهم ونزولهم زرود قبل حلول شهر الصوم رمضان، وهو أول شتاء يجيء بعد محرم ١٤هـ. يتفق مع هذا، الرواية التي تقول أن سعداً سار من شراف حين حسر عنه الشتاء، يعني في مارس (آذار) ٦٣٦م الموافق صفر ١٥هـ، وهو ما يتفق أيضاً مع بقاء سعد في زرود ثلاثة أشهر وكأنه أقام في شراف حوالي شهرين في عملية تنظيم لقواته. ويطابق هذا الرواية التي حددت قدومه على العذيب في عام ١٥هـ. لقد توفي المثنى وسعد بزرود وتزوج سعد سلمى قبل خروجه من شراف. بين نزول سعد زرود وبين خروجه من شراف يتحتم أن يكون قد انقضت عدة المتوفي عنها زوجها وهي أربعة أشهر وعشرة أيام. ولكن سعداً كان في زرود قبل وفاة المثنى بزمن لا تذكره المصادر، ومن حيث كان كل منهما ينتظر قدوم الآخر فلم يكن ذلك الانتظار ليطول بين الرجلين دون أن يتكاتبا لتحديد مكان اللقاء، كما لم تكن تلك الأيام لتقصر حتى ينتفي مفهوم الانتظار. ولربما يكون سعد قد أقام بشراف أياماً بعد زواجه من سلمى. والتاريخ الذي قدرناه لخروج سعد من شراف يجعل تلك المدة كلها خمسة أشهر ونصف منذ نزوله زرود وهي مدة معقولة ومنطقية مع هذا التقدير، بل إن نقصانها أو زيادتها كثيراً عن ذلك يخرجها عن حدود المعقول.

لقد نزل سعد بشراف وكتب إلى عمر بمنازل الناس فكتب له عمر بتنظيم جيشه وقام سعد بإجراء ذلك التنظيم ثم كتب إلى عمر بذلك فأجابه بخطته لمعركة القادسية وأمره بالسير إليها. وإذًا فلابد أن يكون الزمن الذي أقامه سعد بشراف يتسع لانتقال البريد بينه وبين المدينة أربع مرات علاوة على ما اقتضته عملية التنظيم، ووفق تقديرنا أنه أقام بشراف حوالي شهرين.

بناء على ذلك قدرنا نزول سعد القادسية في حوالي ١٦ صفر ١٥هـ - ٢٩ مارس (آذار) ٦٣٦م على أساس أن بين شراف والقادسية مسير ثلاثة أيام. وأقام سعد بالقادسية شهراً قبل أن يعين يزدجرد رستم لحرب المسلمين ثم عينه بعد ذلك وسار ذلك السير البطيء الذي استغرق أربعة أشهر على روايتين، إحداهما تقول من خروجه من المدائن والثانية تجعل الأربعة أشهر بين الحيرة والسيلحين.

يضاف إلى ما سبق الاعتباران الآتيان:

١ - أن ارتحال سعد إلى برس من القادسية بعد أن أقام بها شهرين بعد المعركة كان لأيام بقين من شوال ١٥هـ.

٢ - في رواية ابن اسحق أن اليرموك كانت في رجب ١٥هـ. وأن أهل اليرموك حين فرغوا منه شهدوا القادسية.

يجعلنا هذا وذاك نضع القادسية من أحداث شعبان ١٥هـ.

يؤيدنا في هذا كافة الروايات التي تجعلها في عام ١٥هـ. ويؤيدنا أيضاً خطبة سعد في القادسية التي قال فيها: «.. وقد أباحها لكم منذ ثلاث حجج». وخطبة عاصم التي قال فيها: «.. وأنتم تنالون منهم منذ ثلاث سنين..» ومن حيث بدأت حملات فتح العراق منذ عام ١٢هـ. فلا يتفق فوات ثلاث حجج إلا في عام ١٥، أما في عام ١٤ فتكون حجتان فقط هما عام ١٢ وعام ١٣، وأما في عام ١٦ فتكون قد بلغت أربع حجج.

ويلاحظ من عبور طليحة بن خويلد نهر العتيق خوضاً أن الوقت لم يكن وقت فيضان بل كان زمن تحاريق. ولقد وافق شعبان ١٥هـ. شهر سبتمبر (أيلول) ٦٣٦م وهو ما يتفق مع ما ذهبنا إليه.

هذا ويدعم ما ذهبنا إليه أيضاً الخطة العامة للقادسية، فقد كان مما كتب عمر إلى سعد:

«فإن منحك الله أدبارهم فلا تنزع عنهم حتى تقتحم عليهم المدائن فإنه خرابها إن شاء الله».

يعني أن الخطة انبنت على معركة حاسمة بالقادسية يعقبها اندفاع خاطف إلى المدائن. وقد كان فتح بهرسير والمدائن في صفر ١٦هـ. مما لا يستقيم معه أن تكون القادسية عام ١٤هـ. وإنما يطابق أن تقع في شعبان ١٥هـ.

ولو أن سعداً كان حاد البصر، إلا أن رؤيته أبا محجن والبلقاء ليلة السواد يدلنا على أنها كانت ليلة مقمرة صافية، ولا نتصور أن يراه على الصورة التي مرّت بنا ليلة السواد في غير إضاءة قمرية واضحة. وفي فتوح البلدان ٢٤٢ أن قتال القادسية كان يوم الخميس والجمعة وليلة السبت وهي ليلة الهرير. وبالرجوع إلى تقويم شهر شعبان ١٥هـ استطعنا أن نطابق ذلك في الليالي المقمرة مع أيام الخميس ١٣ شعبان والجمعة ١٤ شعبان - ٢٠ سبتمبر (ايلول) ٦٣٦م وهي ليلة رؤية أبي محجن، والسبت ١٥ شعبان.

أما الرواية التي تذهب إلى أنه كان بين قدوم خالد العراق ونزول سعد القادسية سنتان وشيء وأن مقامه بها كان شهرين وشيئاً حتى ظفر، فإنها تنضبط إذا قسنا ذلك على خروج

خالد من العراق فى صفر ١٣هـ وليس على قدومه إليه فى محرم ١٢هـ. ولعل الراوى أن يكون قد التبس عليه.

على ذلك نكون قد أخذنا بكافة الروايات السبعة عشر وأعملناها فيما عدا أرقام ١ و ٣ و ٥ منها فقد نقضناها.

نفرغ ما سبق فى النتائج الآتية:

١ محرم	١٤هـ	٢٤ فبراير	٦٣٥م	بدأ تجمع الجيش بصرار.
حوالى ١٣ شعبان	١٤هـ	١ أكتوبر	٦٣٥م	خرج سعد من صرار.
حوالى ٢٧ شعبان	١٤هـ	١٥ أكتوبر	٦٣٥م	بلغ زرود مع أول الشتاء وأقام بها ثلاثة أشهر.
حوالى ٣٠ ذى القعدة	١٤هـ	يناير	٦٣٦م	خرج من زرود بعد أن لحق به سائر جيشه.
حوالى ٨ ذى الحجة	١٤هـ	٢٢ يناير	٦٣٦م	نزل بشراف ونظم جيشه وتزوج سلمى.
حوالى ١٣ صفر	١٥هـ	٢٦ مارس	٦٣٦م	خرج من شراف بعد انحسار الشتاء إلى القادسية.
حوالى ١٦ صفر	١٥هـ	٢٩ مارس	٦٣٦م	بلغ القادسية وأقام بها شهراً قبل تولية رستم.
حوالى ٢٣ ربيع الأول	١٥هـ	٤ مايو	٦٣٦م	تولى رستم حرب سعد.
الاثنين ١٠ شعبان	١٥هـ	١٦ سبتمبر	٦٣٦م	بلغ رستم القادسية بعد تحرك بطىء.
الخميس ١٣ شعبان	١٥هـ	١٩ سبتمبر	٦٣٦م	أرماث - وليلة الهدأة.
الجمعة ١٤ شعبان	١٥هـ	٢٠ سبتمبر	٦٣٦م	أغواث - وليلة السواد.
السبت ١٥ شعبان	١٥هـ	٢١ سبتمبر	٦٣٦م	عماس - وليلة الهرير.
الأحد ١٦ شعبان	١٥هـ	٢٢ سبتمبر	٦٣٦م	يوم القادسية.
حوالى ٢١ شوال	١٥هـ	٢٥ نوفمبر	٦٣٦م	خرج من القادسية إلى اللسان ثم برس ثم بابل.
حوالى ٤ ذى الحجة	١٥هـ	١٨ يناير	٦٣٧م	نزل على بهرسير وبدأ حصارها.
حوالى ٧ صفر	١٦هـ	٢٠ مارس	٦٣٧م	فتح بهرسير بعد حصار دام حوالى شهرين.
حوالى ١٤ صفر	١٦هـ	٢٧ مارس	٦٣٧م	فتح المدائن.

القادسية معركة

بعد هذا الاستطراد الطويل لعلنا لاحظنا أن القادسية قد أخذت شكلاً خلاف معارك الحملات السابقة. في تلك الحملات كانت المعارك سريعة متلاحقة فى لقطات سريعة وحركات خاطفة نلهث وراء خالد بن الوليد أو المثنى بن حارثة لمتابعتهما واللحاق بهما. أما فى القادسية فقد اتخذت وضعاً مستقراً فى أرض تم اختيارها قبل ذلك بفترة طويلة عن دراسة سبقت وإصرار وترصد حتى لكأننا كنا نستحثهم على إنجازالمعركة من طول ما انتظرنا، فهى مثال للتدبير الرزين الذى لا يتعجل الأمور ولا يستعجل النتائج. فإذا ذهبنا نتأمل مزايا معركة القادسية وصفاتها تبين لنا الآتى:

دراسة الموارد المتاحة للمعركة

١- أن أمير المؤمنين عمر لم يبادر إلى الدخول فى المعركة قبل أن يتم بالفعل حشد كل القوى المستطاعة، وأن تقدم سعد نحو القادسية كان بطيئاً أبطأ من أى تقدم سبق، فقد نزل المسلمون زرود فى أواخر شعبان ١٤هـ. بينما لم يصلوا القادسية إلا حوالى منتصف صفر ١٥هـ. أى بعد خمسة أشهر ونصف. انقضت هذه الشهور فى عملية حشد وتوجيه وتنظيم للموارد. بعبارة أخرى أن عمر بدأ حربه مع فارس بدراسة واقعية للموارد المتاحة للمعركة المطلوبة، وعرف جيداً كم من الجند تحت يده، كما كان يدرك نوع هؤلاء الجند مشاتهم وفرسانهم وإمكانياتهم المادية والمعنوية. وقد اهتم اهتماماً خاصاً بحشد الخطباء والشعراء ورؤساء القبائل لما لهؤلاء من أثر معنوى فى الحرب عند العرب.

جندية ممتازة

٢- لقد كانت هذه المعنوية من أكثر العوامل ظهوراً فى المعركة، معنوية لا تعرف الخوف والوجل قامت على إيمان حق لا يتزعزع أفرغ فى أصحابه أعلى درجات الشجاعة.. أى جرأة

تلك التى تدفع صاحبها إلى مهاجمة فيل مدرع ومدرب، عليه طاقم مسلح بالقسى والرماح والطبرزينات.. هذه الجسارة النادرة استطاعت أن تخرج من المعركة ثلاثين فيلاً مرتين، مرة فى يوم أرماث ومرة أخرى يوم عماس، فأحدث ذلك أثراً مزدوجاً إذ ارتاح المسلمون منها ومما كانت تفعل كسلاح له فاعليته، كما فجع خروجها الفرس وقد كانوا يعتمدون عليها ويعتبرونها سلاحهم الرهيب الذى يحتكرونه دون أعدائهم.

هذه الجندية الممتازة لم تواجه الأفيال فحسب وإنما واجهت أيضاً تلك الأعداد المهولة من المشاة الفرس المقترنين فى السلاسل وغير المقترنين، وفرسانهم الدارعين الذين يفوقونهم عدداً وعدة. ولكن المسلمين كانوا يمتازون بلياقة بدنية ولياقة سلوكية أكبر، تجلى هذا وذاك فى ذلك الصبر الجميل على القتال ساعات طوال دون خَوَر، فإذا شعروا بالتعب شعروا معه أن عدوهم أيضاً قد تعب وأن النصر لمن صبر، ويتمثلون قوله تعالى:

﴿ وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾.

كذلك ساهمت النساء والصبيان فى تمريض الجرحى وحفر القبور لثمانية آلاف وخمسمائة شهيد وفى سقى المصابين وأعمال التشطيب بعد الفراغ من صلب المعركة.

لقد هدفنا من وراء ترداد المواقف الفردية لأبطال المسلمين إلى تبيان نوع تلك الجندية التى كان الواحد منهم ينتقى أشد مواطن الخطر ليجود فيها بنفسه عن إخوانه ويكون له مندوحة لو لم يفعل. فهذا يسأل أى الموت أشد، وذاك يموت ليبلغ مكان رستم وثالث يتلقى ضربة الطبرزين فى وجهه ليضرب خرطوم الفيل.. وهكذا.

وفى أثناء ذلك يجرى الشعر على ألسنتهم عذباً يشيد ببطولاتهم ويسجل مواقفهم فى فخر صادق لا زيف فيه هم له أهل. هى نماذج فوق دلالتها على شجاعتهم وإيمانهم واحتسابهم أنفسهم لله كانت تدل على مهارة فى القتال وكفاءة تدريبية، بكل تأكيد لم يكن للمجوس مثيل لها.

دراسة واعية للعملية

٣- وكما درس عمر موارده لقد درس أيضاً العملية المطلوبة، وكانت رسائله الكثيرة إلى سعد ورسائل سعد إليه دراسة لاحتياجات المعركة ودراسة للمنطقة وطبيعتها وطبوغرافيتها ومداها ومسافاتها. وبناء على ذلك كان يرسم خطة المعركة فى مواقعها وخطة إمدادها بما

يلزمها من إمدادات وتموين سواء من القاعدة الأصلية فى شبه الجزيرة أو من الميدان نفسه .

من تلك الرسائل يتبين أن عمر كان يعرف الكثير عن جغرافية الميدان ثم كان يطلب المزيد من سعد فيصفه وصفاً طبوغرافياً استطعنا منه أن نرسم نحن اليوم خريطة القادسية ! ذلك الموقع المختار وما اتصف به من صفات كان هو محور خطة القادسية وعليه اعتمادها .

مزايا أرض القادسية

٤ - كانت أرض القادسية كما سبق أن ذكرنا عند التقاء الصحراء بالسواد ، وراءها صحراء العرب وأمامها أنهار السواد وبطائحه المغمورة بالمياه وزروعه ونخيله ، فإذا دارت الدائرة لصالح المسلمين انحصر الفرس بين الأنهار ولم يكن انسحاب قواتهم كبيرة العدد سهلاً ويكون اصطيادهم فى المطاردة هيناً . أما إذا دارت لغير صالح المسلمين فخط رجعتهم مفتوح وراءهم إلى صحرائهم التى يتوه فيها خصمهم .

ضيق وسعة

٥ - سبق المسلمون الفرس إلى أرض المعركة واتخذوا مواقفهم فيها قبل أن يعبر الفرس . ثم لم يتركوا لهم اتساعاً مناسباً يستوعبهم استيعاباً مريحاً . كانت الجبهة بطول ميل (والميل ١٨٤٨ متراً) وكان عرض ما يشغله المجوس فى حدود مائتى متر . وإذن فقد كانت مساحة ما يقف عليه جيش فارس حوالى ٣٧٠٠٠٠ متراً مربعاً ، فإذا أخذنا فى اعتبارنا أن جيش الفرس والتبع بلغ ٢٤٠٠٠٠ لكان نصيب الفرد منهم من مساحة أرض المعركة متراً ونصف متر مربع ليقف ويتحرك فيها ، فإذا أدخلنا فى اعتبارنا وجود خيل وأفيال وأثقال ومتاع لكان نصيب الفرد منهم أقل من ذلك . وقد يقال على سبيل الحدس والتخمين الذى لم يقل به أحد من الرواة أن التبع ربما كانوا من وراءالعتيق وحينئذ يرتفع حيز الفرد إلى أقل من ثلاثة أمتار مربعة . فأى ضيق ذلك الذى وضع فيه جيش فارس نفسه ، أو الذى وضعه فيه سعد ؟ وكيف يتسنى لجيش هذا وضعه أن يتحرك وأن يقاتل وأن يناور ؟

هذا بينما لنا أن نفترض - محقين فى افتراضنا - أن المسلمين أخذوا من مساحة أرض الميدان حاجتهم على الأقل لأنها كانت فى أيديهم ابتداء ، وإذًا فقد كان لهم أن يتحركوا وأن يروحوا ويجيئوا بينما حركة المجوس مقيدة . وهكذا تنقلب الكثرة العددية نقمة فى غير

صالح أصحابها. وربما ساعد هذا على أن يفسر لنا كيف عجز اثنان وخمسون ألفاً من المجوس معهم ثلاثة عشر فيلاً أن يطحنوا ألفين من بجيلة حين شنوا هجومهم عليهم يوم أرماث.

اتجاه الشمس

٦- نظرة إلى خريطة القادسية تبين لنا أن صفوف المجوس كانت إلى الشمال والشمال الشرقي وأن صفوف المسلمين كانت إلى الجنوب والجنوب الغربي. ومعنى هذا بعبارة أخرى أن وجوه المجوس كانت تتجه إلى الجنوب والجنوب الغربي بينما وجوه المسلمين كانت تتجه نحو الشمال والشمال الشرقي. وإذًا فقد كانت الشمس من شروقها إلى غروبها تقابل وجوه المجوس بينما هي في ظهور المسلمين. بطبيعة الحال لم يكن هذا عن اختيار من المسلمين وتعمد له حين اختاروا موقع القادسية ولكنه الصدفة التي تحدث أحياناً أو ما يطلقون عليه في الحرب «عنصر الحظ»، وهو ضرب من القضاء والقدر كان من نصيب المسلمين.

واتجاه الريح

٧- حظ آخر أو قضاء آخر حالف المسلمين في مواقعهم تلك بالقادسية، ذلك هو اتجاه الريح. والرياح السائدة على العراق شمالية غربية تتجه من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي معظم أيام السنة[1]. ولكن يتعرض الجو شتاء للأعاصير فينقلب اتجاه الريح. وقد حدث ذلك في أيام القادسية فنشطت الريح الدبور في اتجاه من الغرب إلى الشرق، ولابد أنها كانت أكثر ميلاً عن تسامت «غرب شرق» فكانت أقرب إلى أن تهب من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي حتى اقتلعت طيارة رستم وألقت بها في نهر العتيق. فكل غبار المعركة كانت تسفيه الريح في وجوه المجوس وتفعل فعلها لاسيما وأنها قادمة من منطقة صحراوية، في حين كانت الرؤية في أوضح حالاتها للمسلمين وبصفة خاصة لسعد الجاثم فوق قديس قصر القادسية يشرف منه على ميدان المعركة ويصدر أوامره وتوجيهاته ويحرك وفق ما يرى قواته.

كان قديس برجاً للمراقبة ممتازاً، والشمس والريح والغبار كانت من جنود الله في هذه المعركة شاركت فيها لصالح المسلمين. وقبلها بسنوات عشر حين تنبأ الرسول ﷺ بسقوط

(١) جغرافيا العراق الطبيعية ١٠٥ - د. جاسم محمد الخلف.

قصور الحيرة والمدائن وصنعاء والشام في أيدى المسلمين أنزل الله في مثل ذلك من غزوة الخندق قوله تعالى[1] :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ .

وفي القادسية كان كثير ممن شهد غزوة الخندق تلك في العام الخامس من الهجرة وتلقوا نبوءة النبي وشهدوا نزول تلك الآية الكريمة، شهدها سعد وسلمان الفارسي وغيرهم من المهاجرين والأنصار، وليس هذا فقط بل شهدها أيضاً من المسلمين الأبرار الذين يقاتلون اليوم في القادسية من كان لازال كافراً مع قريش وأسد وغطفان يريدون اقتحام المدينة على رسول الله ومن معه من المؤمنين، شهدها ضرار بن الخطاب القرشي وطليحة بن خويلد الأسدي وغيرهما، شهدوا غزوة الأحزاب كافرين وشهدوا القادسية مؤمنين.

اختيار الموقع بصفاته السالفة إذن كان هو أساس الخطة لمعركة القادسية فاعتمدت على مزاياه كلها واستفادت منها، ولأنه كان محصوراً فلم يكن يتسع خط المواجهة لأكثر من عدد معين تفقد الكثرة معها ميزتها، إذ ماذا يصنع أولئك الذين هم خلف الصف الأول؟ فضلاً عن ذلك فإن وجود العتيق خلف ظهور الفرس حرمهم بالفعل من فرصة انسحاب منتظم فكانت كارثتهم محققة. ولولا موقع العتيق ذاك لاستطاع رستم أن ينجو بنفسه وقد كان لرستم وزنه في دولته وكان يمكن أن يعول عليه في استمرار الحرب بشكل أكثر فاعلية. ولولا موقع العتيق لما غرق فيه ثلاثون ألفاً من المقترنين بالسلاسل. ولولا موقع العتيق لاستطاع عدد أكبر ممن تناولتهم رماح المسلمين وسيوفهم أن يجدوا طريقاً لانسحاب أفضل.

قيادة ممتازة

٨- وكما توفرت الجندية الممتازة والأركانات التي رأينا جهودها، كذلك توفرت للمسلمين كفاءة القيادة.

لقد كان سعد مثالاً للحزم الذي ينبغي لقائد في الميدان ونموذجاً للهدوء والرزانة والأناة بالرغم مما أصابه من مرض وعلل وضعته في موضع حرج للغاية، ولكن ماذا كان يستطيع أي قائد مثالي أن يصنع أفضل مما صنع سعد؟ إن كافة القادة اليوم والمشهود لهم منهم يفعلون

(١) الأحزاب: ٩.

أكثر من ذلك دون مرض فيقودون معاركهم من مناطق هى خارج ميادينها . لقد كشفت لنا هذه المعركة عن أهم ميزات القائد الصحابى الجليل سعد بن أبى وقاص ومعدنه النفيس، وهى الأعصاب الهادئة، فلم يصدر قراراً واحداً يتسم بالرعونة أو النزق، بل وجدناه والمعركة على قيد أمتار منه حين اقتنع بأنه ليس مطلوباً منه شىء وجدناه يذهب فينام! لقد كان سعد رضى الله عنه فى هذا صورة للحديث الذى رواه هو نفسه عن رسول الله ﷺ حيث قال :

«التؤدة فى كل شىء خير . . إلا فى عمل الآخرة» .

ومن هنا كان تباطؤه فى التكبيرات التى كانت أوامره بالتحرك والالتحام، فكان يؤثر الروية للنظر والرؤية، وحتى يجهد عدوه وينظر ما عنده .

وبعد دراستنا لحروب خالد والمثنى فى عهد أبى بكر لعل منا الآن من يتوقع من سعد أن ينادى فى جيشه للزحف نحو المدائن والاشتباك السريع بأى قوات مجوسية تكون على الطريق . إن كان كذلك فقد نسينا إذن الفارق بين ثنائى «أبى بكر - خالد» وبين ثنائى «عمر - سعد» . لقد كان لأبى بكر طبيعته فاختار لها القائد الذى يناسبها، وكان لعمر طبيعة أخرى فاختار لها أيضاً القائد الذى يناسبها . فماذا حدث؟ لقد أقام سعد بالمسلمين فى القادسية فى انتظار بلوغ سعد بن عميلة إلى المدينة ثم ما يأمر به عمر .

وليس هدوء الأعصاب هو الذى تحلى به سعد فحسب، فلا شك أن شجاعته كانت تدعو إلى إعجاب أكبر وما إقامته بالقصر مع ما به من علة تمنعه من مباشرة القتال إلا إفراط فى الشجاعة . فكما ذكر الراوية عثمان بن رجاء السعدى « . . ولو عرَاه الصف فواق ناقة لأُخِذَ برمته، فوالله ما أكرثه هول تلك الأيام ولا أقلقه» .

ولقد كان سعد بالتعبير الحربى الحديث - محافظاً على غرضه - لقد كانت لديه خطة يعمل على إنفاذها أساسها أن تدور المعركة هنا على هذه الرقعة من الأرض بالذات، ولقد ظل رستم يطاوله شهوراً عسى أن يزحزحه عن غرضه وسعد صبور مُصر على ما عزم عليه حتى زجر من كلمه من المسلمين فى اقتحام العراق ما دام الفرس لا يحضرون . وبدلاً من ذلك راح سعد يضغط على الفرس حتى يجبرهم على الخروج إليه حيث هو وذلك بالغارات التى كان يشنها على أنحاء العراق .

٩- وأخيراً لنا ملاحظة تلفت نظر المتأمل لحملة سعد ابن أبى وقاص وهى التغيير الشامل للقيادات والأركانات السابقة التى حملت مسئوليات، سواء فى حملة خالد بن الوليد لفتح العراق أو فى عمليات المثنى بن حارثة. أين الأقرع بن حابس وأعبد بن فدكى وأخوه أبو ليلى والزبرقان بن بدر وبشير بن الخصاصية وشجرة بن الأعز وعروة بن الجعد وعتيبة بن النهاس وفرات بن حيان ومطر بن فضة والمنذر بن حسان وحرملة بن مريطة وسلمى بن القين ونسير بن ديسم وغيرهم؟ هذه الأسماء التى لمعت فى الحملات السابقة لعل أصحابها كانوا موجودين فى القادسية أيضاً ولكن دون ذكر أو ضجيج وبعضهم سوف يظهر مرة أخرى فى قيادات مع استطراد الفتوح. ولكنهم فى القادسية ظهرت بدلاً عنهم قيادات شابة أخذت الأضواء مثل زهرة بن الحوية وشرحبيل بن السمط وحمال بن مالك والربيل بن عمرو، فلماذا كان هذا التغيير؟

لعل بعضاً منه كان راجعاً إلى عمر بن الخطاب شخصياً، فقد رأيناه يتدخل فى كل شىء ولا يترك للقائد العام فى الميدان إلا أقل بكثير مما كان يمنح أبو بكر قواده من سلطات. وإننا نلمس ذلك من خطاب عمر إلى سعد عن زهرة وقوله: «أنا أعلم بزهرة منك» بحيث نرجح أن اختيار مثل زهرة إنما كان اختياراً من عمر ولم يكن اختياراً من سعد. وسوف يكون ذلك أكثر وضوحاً فيما بعد حين استطردت الفتوح إذ كان عمر هو الذى يعين كافة تعبئة الحملات ويوجهها وجهتها من أرض الله. لا ندرى على وجه القطع واليقين تعليلاً لتلك الظاهرة ولكنها ربما رجعت لأسباب مثل تلك التى عزل عمر خالداً من أجلها والتى عرضناها فى الجزء الثانى من «الطريق إلى المدائن».

وهناك من الشواهد أيضاً ما يجعلنا نرجح أن آخرين كانوا اختياراً من سعد بحكم صلته السابقة بهم ومعرفته الشخصية لهم. فلا نحسب أنه كان من قبيل المصادفة البحتة أن يكون اختيار خالد بن عرفطة رديفاً لسعد إذا علمنا أن خالداً كان قبل الهجرة فى مكة حليفاً لبنى زهرة عشيرة سعد بن أبى وقاص، ولربما كان شغب من شغب فى اختيار خالد بن عرفطة أن كان ذلك ظناً منهم أنه اختيار راجع إلى تفضيل شخصى مع وجود من هو أولى وأكثر ظهوراً من ابن عرفطة.

١١- ولا يفوتنا فى معرض هذا التعليق أن نضع أمام الأنظار أنه كانت لدى الفرس مزايا وأدوات :

أ - كان فى جانبهم الكثرة العددية الساحقة .

ب- أفضلية العدة والسلاح ونوعيته .

جـ- سلاح الأفيال الرهيب الذى لم يكن لدى المسلمين مثله .

د - ستون ألفاً من الفرسان .

هـ- أعلى درجات الكفاءة القيادية والحربية والسياسية فى الدولة التى تمثلت فى رستم وأركانه هرمزان وجالنوس وبهمن جاذويه وبيرزان ومهران وغيرهم .

و - تمتع الدولة الساسانية باستقرار داخلى توقفت فيه المنازعات الداخلية واجتمع الجميع على يزدجرد ملكاً لا ينازع ، مع توقف حروب الدولة فى أى ميادين أخرى مع الروم أو غيرهم .

ز - كان الفرس يقاتلون قريباً من ديارهم وعلى بُعد نحو مائتى كيلو متر من عاصمتهم .

ومع ذلك كله فقد انتصرت القلة المؤمنة المسلمة على كل تلك الإمكانيات ، وصدق الله العظيم : ﴿ ... قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾[1] .

---

(١) البقرة: ٢٤٩.

خاتمة

ذكرنا فى أول هذا الكتاب أن معركة القادسية تقع على قمة المعارك الحاسمة فى تاريخ العالم باعتبار أنها المعركة التى انفتحت على آثارها أبواب العراق وفارس، وهى التى من عندها استطرد النصر الساحق للمسلمين فاستطرد معه السقوط الساسانى سياسياً وحربياً والسقوط المجوسى دينياً وعقائدياً.

ثم درسنا المعركة بكافة تفاصيلها ابتداء من الإعداد لها إلى متابعة أحداثها يوماً بيوم وساعة بساعة حتى تم انتزاع النصر من المجوس ليتوج به هام المسلمين.

والآن صار واضحاً أن معركة القادسية لم تكن تستهدف احتلال موقع أو اكتساب أى أرض كانت، وإنما كان هدفها الجلى الذى حافظ عليه سعد هو تحطيم الجيش الضخم لامبراطورية فارس، فإذا ما تحطم فقد انفتحت بعد ذلك الأرض ودالت الدولة.

ولقد رأينا فى «الطريق إلى المدائن» نمطاً معيناً من العمل الحربى نستطيع أن نصفه بأنه نمط أبى بكر - خالد، ثم رأينا فى القادسية نمطاً آخر يمكن أن نصفه بأنه نمط عمر - سعد. ثم كانت القادسية منطلقاً لما بعدها من فتوح حتى تمام سقوط دولة الفرس واستيلاء المسلمين على آخر شبر من ترابها على نفس النمط والأسلوب الأخير.

هذا بكامل تفاصيله، طبقاً لمنهجنا فى البحث الذى التزمناه فى «الطريق إلى المدائن» وفى «القادسية»، هو موضوع بحثنا الذى ضمناه كتابنا التالى «تحت الطبع» الذى سيتناول سقوط المدائن وما بعد المدائن.

موضوعنا التالى سوف يبدأ بتحرك جيش سعد بعد القادسية واشتباكاته مع فلول المجوس فى برس ثم فى بابل مع فتح جبهة جديدة فى قطاع الأبلة.. ثم معركة مظلم ساباط وحصار بهرسير إحدى المدائن السبع غربى دجلة حتى سقوطها... أعجب عملية عبور فى التاريخ الحربى لفتح المدائن، مركبات المسلمين البرمائية.. كتيبة الأهوال.. معركة العبور.. إيوان كسرى يسقط فى أيدى المسلمين مع وصف كامل للإيوان.. غنائم المدائن.. سمو المسلمين

وأمانتهم.. حلوان عاصمة مؤقتة ليزدجرد.. معركة جلولاء فى الطريق إلى حلوان.. عمر يبكى على غنائم جلولاء!.. معاملة المجوس كأهل الكتاب.. الجبهات الأخرى.. تكريت ثم الموصل ونينوى.. هيت وقرقيسياء.. ماسبذان.. الأبلة.. الأهواز.. ثورة أبرقباذ.. إنشاء قاعدة الكوفة.. فتح الجزيرة.. ورطة المسلمين فى طاوس.. هرمزان الأسير عند عمر.. عمر يحاكم هرمزان.. فتح السوس، جندى سابور.. فتح الفتوح بنهاوند.. النعمان بن مقرّن تلميذ سعد.. لله جنود من عسل.. سقوط همذان.. انسياح المسلمين من البصرة ومن الكوفة حتى حدود السند (باكستان اليوم).. البائس يزدجرد الثالث ابن شهريار.

ثم أعقبنا ذلك بفصول ثلاثة لابد منها عن الباعث على حركة الفتح الإسلامى، وعن مشروعية القتال فى الإسلام، وعن عوامل نجاح الفتوح.

ترجمة مشاهير قادة الفتح[1]

أبو محجن الثقفي

أبو محجن بن حبيب الثقفي، اختلف في اسمه فقيل مالك وقيل عبدالله وقيل اسمه كنيته وعلى أي حال فقد اشتهر بأبي محجن، بن حبيب بن عمرو بن عمير بن عوف بن عقدة بن غيرة بن عوف بن قصي وهو ثقيف. كان من الأبطال الشجعان في الجاهلية والإسلام ومن أولي البأس والنجدة من الفرسان وله مواقف. في حصار ثقيف بالطائف كان مشركاً ورمى عبدالله بن أبي بكر بسهم ودمل الجرح حتى عاد وانتقض عليه في شوال ١١ هـ فمات (الطبري ٣ / ٢٢١). ثم أسلم أبو محجن حين أسلمت ثقيف وسمع من النبي وروى عنه. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أخوف ما أخاف على أمتي من بعدي ثلاث: إيمان بالنجوم وتكذيب بالقدر وحيف الأئمة».

وكان شاعراً مطبوعاً كريماً، غير أنه كان منهمكاً في الشراب لا يكاد يقلع عنه ولا يردعه حد ولا لوم لائم. كان أبو بكر يستعين به وجلده عمر في الخمر مراراً، عن ابن جريح قال: بلغني أن عمر بن الخطاب حد أبا محجن بن حبيب في الخمر سبع مرات. وقال قبيصة بن ذؤيب: ضرب عمر بن الخطاب أبا محجن الثقفي في الخمر ثماني مرات. وقال ابن سيرين: فلما أكثر عليهم سجنوه وأوثقوه.

شهد حرب العراق مع أبي عبيد بن مسعود الثقفي وكان ممن هاجم الفيل معه فضربه على عرقوبه، ثم كان مع المثنى يوم أليس الصغرى وانصرف منها.

وكانت ثقيف تسكن الطائف وقد كان ذا بساتين ونخل وكرم، فنفاه عمر بسبب إدمانه الخمر إلى جزيرة في الخليج الفارسي حيث لا كرم، وبعث معه حارساً يدعى أبو جهراء البصري كان أبو بكر يستعين به ورجلاً آخر ليحملاه في البحر إلى تلك الجزيرة، فرأى الرجل

---

(١) نورد هنا تراجم مشاهير القادة الذين لم ترد أسماؤهم وتراجمهم في كتاب «الطريق إلى المدائن».

سيفاً مع أبى محجن فخافه، وقيل بل هم أبو محجن بقتله فهرب أبو جهراء وهرب منه أبو محجن ولحق بسعد بن أبى وقاص بالقادسية.

وتختلف الروايات حول سبب حبس أبى محجن فى قصر القادسية، فرواية تذهب إلى أنه كان ممن شغب على سعد حين استخلف خالد بن عرفطة. وتذهب رواية أخرى إلى أن أبا جهراء لحق بعمر حين هرب منه أبو محجن فكتب عمر إلى سعد بسجنه. ورواية ثالثة تقول إن أبا محجن هوى امرأة من الأنصار يقال لها شموس فحاول النظر إليها فلم يقدر فآجر نفسه من بنّاء كان يبنى بيتاً بجانب منزلها فأشرف عليها من كوة وأنشد:

ولقد نظرت إلى الشموس ودونها   حرج من الرحمن غير قليل

فاستعدى زوجها عمر فنفاه وكان ذلك سبب قصة أبى جهراء. وتقول رواية رابعة أن سلمى سألت أبا محجن بعد أن عاد ليلة السواد «فى أى شىء حبسك هذا الرجل؟» قال: أمَ والله ما حبسنى بحرام أكلته ولا شربته ولكنى كنت صاحب شراب فى الجاهلية وأنا امرؤ شاعر يدب الشعر على لسانى يبعثه على شفتى أحياناً فيساء لذلك ثنائى ولذلك حبسنى، قلت:

إذا مت فادفنى إلى أصل كَرْمة   تُرَوِّى عظامى بعد موتى عُرُوقُها
ولا تَدْفِنَنّى بالفلاة فإننى   أخاف إذا ما مت أن لا أذوقها
وتُروى بخمر الحُصِّ لحدى فإننى   أسير لها من بعد ما قد أسوقها

(الحص مكان مشهور بخمره) - الطبرى ٤ / ١٢٤.

وفى هذه القصة أن سعداً قال له بعد بلائه ليلة السواد:

«لا أجلدك فى الخمر أبداً».

فقال أبو محجن: «وأنا والله لا أشربها أبداً. قد كنت آنف أن أدعها من أجل جلدكم».

فلم يشربها بعد. وحكاية أخرى أن سعداً دعا به فأطلقه وقال:

«اذهب فما أنا بمؤاخذك بشىء تقوله حتى تفعله».

قال: «لا جرم والله لا أجيب لسانى إلى صفة قبيح أبداً».

ونستطيع من بين هذه الروايات الأربع أن نستبعد الروايتين الثانية والثالثة اللتين ذهبتا إلى

أن حبس أبي محجن كان بأمر من عمر بسبب الخمر أو بسبب الشموس، فلو كان الأمر كذلك ما كان من سلطة سعد أو سلوكه أن يفرج عن أبي محجن قبل أن يراجع عمر. كذلك نستبعد الرواية الرابعة الأخيرة التي تذهب إلى أن سعداً حبسه في الخمر أو في شعره فيها وأنه قال لا أجلدك في الخمر أبداً، أو ما أنا بمؤاخذك بشيء تقوله حتى تفعله. هذا وذاك غير مقبول في شرع الله ومحال أن يسمح له سعد بهذا أو ذاك وليس في سلطته شرعاً أن يفعل. لذلك أخذنا بالرواية الأولى، رواية الشعب على خالد بن عرفطة.

وفي الأخبار أن ابناً لأبي محجن دخل على معاوية بن أبي سفيان فقال له معاوية: «أبوك الذي يقول: إذا مت فادفني إلى جنب كرمة...؟» إلخ.

فقال ابن أبي محجن: «لو شئت ذكرت أحسن من هذا من شعره».

قال: «وما ذاك؟»

قال: «قوله»:

لا تسأل الناس عن مالي وكثرته	وسائل الناس عن حزمي وعن خلقي
اليوم أعلم أني من سراتهم	إذا تطيش يد الرعديدة الفَرِقِ
قد أركب الهول مسدولاً عساكره	وأكتم السر فيه ضربة العنق
أعطى السنان غداة الروع حصته	وعامل الرمح أرويه من العلق
عف المطالب عما لست نائله	وإن ظُلمت شديد الحقد والحنق
وقد أجود وما مالي بذي قنع	وقد أكرُّ وراء المحجر الفرق
قد يعسر المرء حيناً وهو ذو كرم	وقد تثوب سوام العاجز الحمق
سيكثر المال يوماً بعد قلته	ويكتسي العود بعد اليبس بالورق

(مسدولاً عساكره: كثيرة لا تخترق، أكتم سر من أمامي بضربي عنقه فلا ينطق بسره، عامل الرمح: نصل سنه، العلق: العروق، الفرق: الخائف).

قال معاوية: «لئن كنا أسأنا القول فلنحسن لك الفعل».

وأجزل جائزته وقال: «إذا ولدت النساء فلتلدن مثلك».

ويذهب بعضهم إلى أنه كان عبيد بن أبي محجن وأن ذلك كان مع عبدالملك ابن مروان.

قال هيثم بن عدي إنه أخبره من رأى قبر أبي محجن الثقفي بأذربيجان أو قال في نواحي

جرجان وقد نبتت عليه ثلاثة أصول كرم وقد طالت وأثمرت وهى معرشة على قبره ومكتوب على القبر «هذا قبر أبى محجن الثقفى». قال: فجعلت أتعجب وأذكر قوله إذا مت فادفنى إلى جنب كرمة (البيت) (الطبرى الاستيعاب ٤ / ١٨١ كنى - الإصابة ١٠١٧ كنى - فتوح البلدان ٦٢٥ - ٦٢٦ - ٦٤١ - ٦٤٧).

الأسود بن يزيد النخعي

الأسود بن يزيد بن قيس النخعى من كبار التابعين من الكوفيين وهو صاحب عبدالله بن مسعود. روى عن أبى بكر وعمر وكان فاضلاً عابداً. كان يصوم الدهر وكان يصوم فى اليوم الشديد الحر الذى إن الجمل الجلد الأحمر ليرنح فيه، وحتى كان يسود لسانه من الحر وكان يصوم فى السفر حتى يتغير لونه، وقد ذهبت إحدى عينيه من كثرة الصيام. وكان علقمة يقول له: ما تعذب هذا الجسد، فيقول: إنما أريد له الراحة. وقد طاف الأسود بالبيت ثمانين ما بين حجة وعمرة. وكان يقرأ القرآن فى ست وروى أنه كان يقرأه فى رمضان فى ليلتين. وعن عائشة أنها قالت: ما بالعراق رجل أكرم علىّ من الأسود. وكانت أمّه مقعدة. وكان أصفر الرأس واللحية وعمامته سوداء يرسلها من خلفه. وحين حضرته الوفاة عام خمس وسبعين قال لرجل كان عنده: إن استطعت أن تُلَقِّنِّى حتى يكون آخر ما أقول لا إله إلا الله فافعل ولا تجعلوا فى قبرى آجراً ولا تتبعونى بصوت. (الطبقات الكبرى ٦ / ٤٦ - الاستيعاب ١ / ٧٥).

زيد بن صوحان

أسلم فى عهد النبى وصحبه، وفى الاستيعاب أنه لا يعلم له صحبة. وكان فاضلاً ديّناً خيراً سيداً فى قومه هو وإخوته. شهد يوم الجمل وكان معه راية عبدالقيس وحمل يومها من المعركة وقد أثخنته الجراح فقال له أصحابه هنيئاً لك الجنة يا أبا سلمان. فقال: وما يدريكم؟ غزونا القوم فى ديارهم وقتلنا إمامهم فيا ليتنا إذ ظُلمنا صبرنا ولقد مضى عثمان على الطريق. ثم مات، وسمعت عائشة أم المؤمنين صوت خالد فقالت: خالد بن الواشمة؟ قال: نعم. قالت: أنشدك الله أصادقى أنت إن سألتك؟ قال: نعم وما يمنعنى، قالت: ما فعل طلحة؟ قال: قتل. قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون. ما فعل الزبير؟ قال: قتل. قالت: إنا لله

وإنا إليه راجعون. قال: بل نحن لله ونحن إليه راجعون على زيد وأصحاب زيد. قالت: زيد بن صوحان؟ قال: نعم. فقالت: خيراً. فقال والله لا يجمع الله بيننا فى الجنة أبداً. فقالت: لا تقل فإن رحمة الله واسعة وهو على كل شىء قدير.

سعد بن عبيد الأنصارى

سعد بن عبيد الأنصارى حليف بنى فزارة. شهد بدراً، وقيل هو أبو زيد الذى جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ، وقيل أبو زيد غيره فكان أحد أربعة من الأنصار جمعوا القرآن فى حياة النبى وكان يسمى القارئ ولم يكن أحد يسمى القارئ غيره وكان يؤم فى مسجد قباء فى زمن النبى. كان ثانى من تطوع لحرب الفرس بعد أبى عبيد الثقفى وذلك بعد وفاة أبى بكر حين قدم المثنى إلى المدينة يطلب المدد (الجزء الثالث من كتاب «الطريق إلى المدائن»). هرب يوم الجسر فكانت الوجوه تعرض عليه بعد ذلك فيأبى إلا العراق ويقول: «إن الله جلّ وعز اعتدّ علىّ فيها بفرَّة فلعله أن يرد علىَّ فيها كرة». روى البخارى فى تاريخه عن طارق بن شهاب قال: شهد سعد بن عبيد القادسية فقال: «إنا مستشهدون غداً فلا تكفنونا إلا فى ثيابنا التى أصبنا فيها». فاستشهد وهو ابن أربع وستين سنة. وهو سعد بن عبيد بن النعمان بن قيس بن عمرو بن زيد ابن أمية بن ضبيعة بن زيد بن مالك بن عوف الأوسى. وكان ابنه عمير والى عمر بن الخطاب على الشام. (الإصابة ٣١٧٦ - الاستيعاب ٢ / ٣٨).

طليحة بن خويلد

طليحة بن خويلد بن نوفل بن نضلة بن الأشتر بن جحوان بن فقعس. بعد شهرين من غزوة أحد بلغ النبى أن طليحة وأخاه سلمة على رأس بنى أسد يحرضانهم ومن أطاعهما لمهاجمة المدينة، فأرسل النبى إليهم أبا سلمة بن عبدالأسد فى سرية من مائة وخمسين فيهم أبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبى وقاص وأسيد ابن حضير وأمرهم بالسير ليلاً والاستخفاء نهاراً وسلوك طريق غير مطروق حتى فاجأوهم ففروا وطاردوهم ثم رجعوا ومعهم غنائم. وكان طليحة زعيم بنى أسد مع الأحزاب يوم قدموا يريدون غزو المدينة فلما عصفت الريح وهطل المطر وقصف الرعد خيل له أن المسلمين انتهزوا الفرصة ليعبروا إليهم الخندق فقام ونادى: «إن محمداً بدأكم بشر فالنجاة النجاة». وقام أبو سفيان يؤيد الانصراف فانصرفوا.

ثم وفد طليحة على النبى ﷺ فى وفد بنى أسد وكان معه ضرار بن الأزور وآخرون فأسلموا. وقبل وفاة رسول الله ارتد طليحة وادعى النبوَّة حتى أوقع به خالد بن الوليد فى بزاخة من منازل بنى أسد عام ١١هـ وهرب طليحة إلى الشام ثم عاد إلى الإسلام وأحرم بالحج ورآه عمر فقال له: «إنى لا أحبك بعد قتل الرجلين الصالحين عُكّاشة بن محصن وثابت بن أقرم» وكانا طليعين لخالد فى حرب الردة فلقيهما طليحة وسلمة فقتلاهما. قال طليحة لعمر: «هما رجلان أكرمهما الله بيدى ولم يهنى بأيديهما». وحسن إسلام طليحة وكان من الفرسان الأبطال، شهد القادسية ونهاوند واستشهد بها.

يرجع إلى "طليحة بن خويلد الأسدى" للمؤلف

مراجع البحث المهمة

الإصابة فى تمييز الصحابة (١٩٣٩)	ابن حجر العسقلانى – التجارية
أحسن التقاسيم	المقدسى
أسد الغابة فى معرفة الصحابة	ابن الأثير – دار الشعب بالقاهرة
أنساب الأشراف	البلاذرى
الاستيعاب فى معرفة أسماء الأصحاب	يوسف بن عبدالله القرطبى – التجارية
البداية والنهاية فى التاريخ	أبو الفداء ابن كثير
البيان والتبيين	الجاحظ
بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب	محمود شكرى الآلوسى
البخلاء	الجاحظ
تاريخ بغداد	الخطيب البغدادى
تاريخ الأمم والملوك	الطبرى – دار المعارف بمصر
تاريخ العرب العسكرى	محمود الدرة
تهذيب التهذيب	ابن حجر
الجامع لأحكام القرآن	القرطبى – دار الكتب المصرية
جغرافيا العراق الطبيعية	د. جاسم محمد الخلف
جغرافية العراق الحديث	هاشم السعدى
الجغرافية العسكرية	طه الهاشمى
خريطة العراق الأثرية	مديرية الآثار العراقية ببغداد
حركة الفتح الإسلامى فى القرن الأول	د. شكرى فيصل
الخراج وصنعة الكتابة	قدامة بن جعفر – Brill 1889
ديوان الشماخ بن ضرار	دار المعارف
الدرر فى اختصار المغازى والسير	ابن عبدالبر
شعر الفتوح الإسلامية فى صدر الإسلام	النعمان عبدالمتعال القاضى – القومية
صحيح البخارى	شرح الكرمانى – المطبعة المصرية
الطبقات الكبرى	ابن سعد
عيون الأخبار	ابن قتيبة – دار الكتب المصرية
فتوح البلدان	البلاذرى – نشر صلاح الدين المنجد

الفاروق القائد	لواء محمود شيت خطاب - دار الشعب
الفتح العربى للعراق وفارس	محمد فرج - دار الفكر العربى
الفروسية العربية فى العصر الجاهلى	سيد حنفى - سلسلة إقرأ رقم ٢١١
قادة الفتح العربى للعراق وفارس	لواء محمود شيت خطاب - دار القلم
لسان الميزان	ابن حجر
الكامل فى التاريخ	ابن الأثير
معجم القبائل العربية القديمة والحديثة	محمد رضا كحالة
مفصل جغرافية العراق	طه الهاشمى
مسند الإمام أحمد	أحمد بن حنبل
معجم البلدان	ياقوت الحموى
المسالك والممالك	ابن خرداذبة
نابليون	اميل لود فيج
وفيات الأعيان	ابن خلكان

The Memoirs Field Marshal Viscount Montgomery.

فهرس الخرائط والأشكال

الصفحة	رقم	الموضوع

ثالثًا: اللوحات

فهرس الأعلام

عندما ترد هذه الإشارة (-) بين رقمين تعنى أن العلم مكرر فى الصفحات ما بين الرقمين.

(ب)

(ت)

(ج)

(ز)

(س)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

فهرس المواقع والبلدان

محتويات الكتاب

المؤلف فى سطور

- مصرى من مواليد القاهرة ١٩٢٦ .

- بكالوريوس تجارة - جامعة فؤاد الأول ١٩٤٦ .

- البنك الأهلى المصرى ١٩٤٦ - ١٩٧٩ مدير عام .

- بنك فيصل الإسلامى المصرى حتى أغسطس ١٩٨٧ نائب المحافظ .

- المصرف الإسلامى الدولى حتى فبراير ١٩٨٩ عضو مجلس الإدارة المنتدب .

- وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى ١٩٧٩ .

- عضو نادى الأهرام للكتاب .

كتب أخرى للمؤلف

- علوم القرآن.
- حجر رشيد والهيروغليفية.
- **من أعلام الفتوح الإسلامية:**
  * النعمان بن مقرن
  * طليحة بن خويلد الأسدى
  * محمد بن مسلمة الأنصارى
  * عدى بن حاتم الطائى
- **استراتيجية الفتوحات الإسلامية:**
  * الطريق إلى المدائن
  * القادسية
  * سقوط المدائن ونهاية الدولة الساسانية (تحت الطبع)
  * الطريق إلى دمشق (تحت الطبع)
  * الفتح الإسلامى لمصر
- أطلس تاريخ القاهرة
- أطلس الفتوح الإسلامية
- النقط فوق الحروف
- التقويم الهجرى والميلادى لسنى الفتح
- الكويت من جزيرة العرب